الخلافة المغتصبة

أزمة تاريخ ام أزمة مورخ ؟



الكاتب و الصحافي إدريس الحسيني

الخلافة المغتصبة

أزمة تاريخ أم أزمة مورخ ؟

دار الخليج للطباعة و النشر

الطبعة الثانية

مزيدة و منقحة

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

الاهداء

إلى ريحانتي سعيدة - أم حيدر - على ما وفرته لي في أجواء مشجعة كل البحث والدراسة.. ولما هي حقيقة به من جزيل الشكر وعظيم الفخار.. أهدي هذا الكتــاب، خدمة للحسين (ع).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في كتابي السابق - الإنتقال الصعب - كنت قد تجاوزت الكثير من الموضوعات المهمة بسبب السرعة من جهة، وبسبب تجنبي الدخول في مطارحات معقدة من جهة أخرى. ذلك أن كتاب - الإنتقال - لم يكن سوى مجلى لتجربة استمرت رازحة بين أسوار الباطن القاتل والممل، ميدانا لفورة عاطفية أفقدتني كما سبق القول مني ″ تقنياتي المعرفية ″ - لذا كان الخطاب فيها ذو نبرة حادة تعبر في ذات الوقت، عن حجم القلق الذي ظل يكتنفني ويتسلط على قريحتي. وهو القلق الذي يعاني من تسلطه كل باحث عن الحقيقة في أغوارها المظلمة، وكل متنقل في ملكوت الاعتقاد، في رحابه الواسعة. ومن جهة أخرى، لأن العنصر الشخصي كان له حضور مكثف في كل زوايا الكتاب، فكان أقرب ما يكون إلى قصة منه إلى كتاب بحث وتحليل!.

أود قبل ولوج أبواب البحث، أن أتحدث عما آثاره كتاب ″ الإنتقال ″ من ردود الفعل في بعض الأوساط، وما أثاره من الاعجاب والأريحية في نفوس البعض الآخر. علما أن الكتاب كما سبقت الإشارة إليه، لم يكن يهدف إلى الانتصار لطائفة على أخرى، ولا إنزال فئة مقابل أخرى. كانت الحقيقة هي مدار الكتاب، الحقيقة وحدها!.

كان مما آخذوني عليه، تلك الطريقة العنيفة والطبيعة الخشنة التي تناولت بها الموضوع، ومن جهة ثانية، وجدوا علي فيما ذهبت إليه من مرويات مسقطة

ومزدرئة بأشخاص مقدسين، كما فيه تعرض للصحابة والخلفاء الراشدين!.

وثالثا، عن تجاوزي مصلحة الوحدة، وسعيي وراء الفتن التاريخية.

ولست واجدا على هؤلاء فيما ادعوه من الأمر، خصوصا بعد أن أثلج صدري انطباع زمرة من العلماء والمشايخ ممن أثق في أهليتهم ونبوغهم.

أرد على من رأى في أسلوبنا عنفا زائدا وجرأة مفرطة. بأنني لم أكتب كتابي إلا بدافع الاحتجاج. فالقضية في تقديري متصلة بمصير الإنسان أمام خالقه وبدينه الذي يشكل ينبوع ممارسته العبادية اليومية عندما ترى نفسك وقد دنوت قاب قوسين أو أدنى من لهيب النار، وفجأة تكتشف حبل النجاة. أفلا يدعوك ذلك إلى الجنون، إلى قول أي شئ في حق من قادك إلى هذه الهوة السحيقة، للهوه ولعبه. ماذا كنت أنوي قوله لربي، لو سألني عمن هو إمام زماني؟!.

أفكنت مجيبا: يا ربي إني لا أدري! ماذا لو قضيت كل حياتي في معرفة كل الرجال، وذهبت إلى ربي وأنا لا أعرف عن أئمة أهل البيت شرو نقير؟!.

أفكنت مجيبا: يا ربي إني قد عرفت مالك وبن حنبل والشافعي، وأبا حنيفة.

وعرفت يا ربي، فولتير ومونتسكيو وفيرلين.. ولم أعرف الإمام زين العابدين، أو الإمام الصادق، أو حتى إمام الزمان؟!.

كيف كان يتهيأ لي إن الرسول، بعدها سيحضنني في جنات الخلد والتمس القرب منه وبرفقة ابنه الحسين (ع) أأقول له - بالله عليك، هأنذا جئتك يا رسول الله بعد أن قربني منك تعبدي واتباعي لرجال ذبحوا وخذلوا ابنك هذا الذي بين جنبيك؟!.

إن القضية إذا نظرنا إليها بمنظار الإيمان، والحق. سوف لا أكون إلا كذلك، عنيفا وجريئا. أما الذين وجدوا في تلك المرويات التي أثرتها في كتابي، تحريضا بالصحابة والراشدين. فإنني لا أجد طريقا يقوى، ولا دليلا تنهض في وجه من يرفض الروايات، لا لضعف سندها ولا لرطانة متنها، وإنما فقط لأجل تعرضها للمقدسين!.

ما ذنب الرواية إذا جاءت بما يخالف المقدس، وبما لا يستجيب لهوى

المقدسين؟! وهل هذا المقدس يستمد حجيته من النص أم أنه يستمدها من الذهنية التاريخية – السياسية –؟!.

متى رأى الذين يقدسون أشخاصهم بالعيان؟! حتى يقطعوا بأنهم كانوا على حالة أسطورية من التقوى والورع؟! إننا لم نتعرف عليهم إلا من خلال الروايات، فلماذا نقف في وجه الروايات المناقضة علما بأن الرواية هي مصدرنا الوحيد لمعرفة رجال التراث! إنها رواية برواية، واللبيب من يفهم بالعقل والإشارة!.

ثم من هم هؤلاء الذين أسقطتهم؟ أوليسوا هم الذين أسقطوا أنفسهم. أولم يسقطوا رسول الله (ص) عندما خالفوه في حياته واستنكفوا عن تنفيذ وصاياه في مماته. وقتلوا أبناءه وضيقوا على نسله الطاهر. لقد قال عنه عمر: إنه يهجر.
ورفض هو وأبو بكر تجهيز جيش أسامة بن زيد. وتصرف أبو بكر في ماله (ص) بلا حق.

لقد أسقطوه في عين عامة المسلمين، أسقطه عمر وهو ينزله منزلة أبي بكر في الهدى، عندما قال:

لأن لم أستخلف فإن الرسول لم يستخلف، وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر.

لقد أسقطوه – بأمي وأبي – فكيف أجد حرجا في التعرض لهم بحق. إنني لم أرم تسقيطهم، ولكنني حاولت فقط إرجاعهم إلى أحجامهم الطبيعية، أزلت فقط ورقة التوت عنهم لتنكشف عوراتهم أمام أجيال المسلمين. أفهذا يعتبر تسقيطا؟! ثم بالله عليك، متى كانوا كبارا حتى نسقطهم؟! وهل وجودهم كبارا وعمالقة في الأذهان المسحورة بكذب المؤرخين كاف لجعلهم كبارا وعمالقة في واقعهم التاريخي. كيف أكبر من قال عن نفسه:

إن لي شيطانا يعتريني. أو ″ كل الناس أفقه منك يا عمر ″.

نعم.. لقد تعرضت مثلا لنسب عمر بن الخطاب، وذكرت ما علق به من رواسب جاهلية بسبب ما سبق من تكريعه للخمر. وإني لم أقل شيئا لم يثبت في

واقع الأمر، فنسب عمر كما ذكرته كان مما جاء في مثالب النسابة الكلبي وهو من الممدوحين عند العامة وقد مدحه ووثقه بن خلكان، كما اعتمد رواياته بن خلدون، وكثير من حفاظ ومؤرخي العامة. وإن وجد من يؤاخذني على تعرضي لما ولده الادمان على الخمر في شخصية عمر. فإن ذلك ليس إسرافا مني لم يسبقني أحد إليه. قلت في الإنتقال:

" وعلى الرغم من أن الخمر كانت من عادة العرب، إلا أن التواريخ والسير، تثبت إن من بين العرب من كان يتورع عنها " وهذا إسراف بدا مني لما بت أحاسب عمر على فعل قام به في الجاهلية. ولكن كان أجدر بمن اعترض على ذلك أن يفهم سياق حديثي، الذي كان يهدف تحليل شخصية عمر النفسية والاجتماعية. ولعل قولة سبقت من ابن خلدون تعزز ما ادعيناه، إذ قال: " وقد كانت حالة الأشراف في العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة، ولم يكن الكرم شجرتهم، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم " [1].

وهذا يدل على أن عمر الذي كرعها في جاهليته لم يكن من أشراف العرب، حسب هذا الزعم.

أما الذين اعتبروا كتابي واقعا ضد الوحدة، وباعثا على الفتنة التاريخية. فماذا أقول لهم؟.

إن عقلي لم يعد يفهم هذه الفلسفة الوحدوية المجحفة، ولا ذائقتي بالتي تستسيغ هذه النغمة السياسوية. أي وحدة هذه التي تقوم على مذبحة الحق؟!.

وأي فتنة بدأت وانتهت؟! كيف أسكت وأنا أرى مجاميعهم تعقد الجلسات وتؤلف البحوث الطوال في تكفير أهل الولاية ومحاصرة المد العلوي.

لنعد فيما نعود إليه إلى طاولة المفاوضات التاريخية وبعقلية نيرة ومنهجية موضوعية.

وعلى كل حال فأنا لا أروم الفتنة ولا إعاقة الوحدة. وإذا كانت الفتنة هي أن أكشف عن وجه الحقيقة والوحدة هي أن أساهم في تعزيز الباطل، فنعم الفتنة هي

---

[1] تاريخ ابن خلدون، ص ١٨ ج ١.

ونعم الفرقة كانت!.

هناك دائما دواعي تدفع الإنسان إلى مثل هذه المشاريع. هو هذا الجهل العريض والأمية المنتشرة في أرجاء الوطن الإسلامي، هذا الجهل وتلك الأمية لهما رابطة بمجمل المباني المذهبية عند المسلمين، فأصول الفقه وقواعده يتغذى بمنهجية الفقهاء كما تحددها ملكاتهم ومبانيهم، وهذه الملكات وتلك المباني تقوم على علم الحديث، وهذا الأخير يقوم على السند في اتصاله وعدالة رجاله، وهنا تكمن الثغرة الخطيرة أي في عدالة الراوي التي تقوم على المزاج السياسي والإيديولوجي، المزاج الذي لا يمكن فهم حقيقته إلا بإرجاعه إلى سياقه التاريخي، لماذا يتحول أبو هريرة الدوسي الذي رفض عمر بن الخطاب نفسه رواياته، ونعته الإمام علي (ع) بالكذب على رسول الله (ص) إلى رجل صادق الرواية موثق عند أهل السنة والجماعة. أليس هو ذات المزاج السياسي والإيديولوجي لأن أبا هريرة كذب على الرسول (ص) لدعم بني أمية لقاء حطام الدنيا، وماذا كان سيعطيه علي (ع) فيما لو ظل عمره كله يمدحه. وهل إن أبا هريرة الدوسي هذا الذي جمع في ذاكرته مالذ وطاب من مرويات، كيف لا يدعوه ما حفظه من رسول الله (ص) إلى نصرة الحق الذي قاتل من أجله علي (ع) أولا أقل أن لا يروم معسكر معاوية لينصره بأكاذيبه المفضوحة، وإن الذي بشهادته ذاته إنه صاحب الرسول (ص) لإشباع بطنه، كيف لا يصاحب معاوية بعد أن ضمن له وفرة الدنيا بعد أن لم يحلم بها في حياته، علما أن صحبة معاوية لا تقتضي منه سوى مزيدا من الكذب والتجديف.

إن الجهل المطبق، والأمية المنتشرة تجعل من الضروري أن تنهض الأصوات المسؤولة بالدعوة إلى ما يلم شعث الإسلام الحق ويرأب صدعه ويعيد حبك نسيجه المنفوش.

في مناقشاتي الكثيرة مع العامة، كنت أضع هدفا من احتجاجاتي. أن تعالوا جميعا للتباحث الموضوعي الهادف إلى تصحيح ما ينوء به الصرح الإسلامي من متعلقات الماضي، لنجعل من مواد دراساتنا، مادة تعني بالفقه المقارن تكون أساسا للتعريف بمختلف المذاهب الإسلامية، والأسس التي تقوم عليها وتاريخية نشوءها وتطورها، يتولى توضيحها علماء نزيهون يمثلون مختلف المدارس والمذاهب

الإسلامية، غير أن الواقع ظل دائما يجري بعكس الاتجاه المطلوب، الإمام الصادق (ع) مثلا، هو ذلك العملاق الكبير الذي على يده تخرج كبار الفقه الإسلامي، نراه يقبر في ذاكرة النسيان، في حين هناك بعض الأصوات المختنقة بتعسفها، تحاول عبثا إنقاذ بعض المذاهب من تحت الرميم، وتعيد بناء الطلل المنسي.

فمتى ما لم يتنازل الطرف الآخر عن موقفه الصارم الذي لا يتسع لرأي الآخر، فإن المشكلة ستبقى عالقة إلى الأبد. حتى ولو طال المزمار بطلب الوحدة، إن الرافضي ظلت ولا زالت هي عنوان كل معتصم بولاية الأئمة الطاهرين من أهل البيت، وكان التشيع ولا يزال تهمة مسقطة للسمعة. ففي الماضي المتخلف كانت تهمة التشيع تعني الجريمة التي لا حد فيها غير الإعدام في دولة خلفاء بني أمية والعباس. وعلي تهمة تتلف عدالة الراوي عند المحدثين، ومن هنا كان بينهم والتعرض للإمام النسائي أن ينسبوا له التشيع عندما كتب في خصائص الإمام علي (ع) فنال بها ما شاء له الخلفاء من الشتم والضرب كما أن الشافعي الذي يعد أحد أئمة المذاهب الأربعة كان ممن أتهم بالتشيع لأهل البيت (ع) وكان البخاري يرفض الرواية عنه، ولم يخرج أحاديثه كما ذكر الرازي في مناقبه، وكذلك الطبري المؤرخ الكبير وصاحب أول تفسير جامع عند العامة، لم ينج من هذه التهمة التي رجم من أجلها، في حين لا يجد المحدثين حرجا في أن يخرجوا أحاديث لمن عرف بالنصب لأهل البيت. فقد أخرج البخاري لعمر ابن حطان، وهو خارجي، كما أخرج النسائي لعمر بن سعد قاتل الحسين. إن هذه التهمة أصبحت معنية في حد ذاتها. أن يكون المرء شيعيا كاف لإخراجه من الملة أو الآدمية في عصور الظلام.

وساعد في ذلك بلاغات العرب في تشويه صورة أعدائهم أو أقلياتهم، ولعل الكثير ممن يجهل مغزى هذه التهمة كان ينخرط بسهولة في هذه الجوقة الناصبية، وذلك من باب حشر مع الناس عيد. فكثير من أهل الشام ظلوا يلعنون عليا (ع) في المنابر، ولم يعرفوه عن قرب، حتى إذا جاء الشامي إلى الكوفة ويسأل عن علي (ع) فيقال له إنه بالمسجد، يأخذه العجب، ويدهشه الأمر، معربا عن حالته بقوله. أو علي يصلي!؟.

وهو حال من انخرط بغباء في هذه الجوقة الناصبية في عصرنا، لقد قال ابن الأثير في كامله:

" قال علي بن عيسى: لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه ".

ويؤسفني جدا أن تستمر الحقيقة في الغياب عن هذه الأمة النائمة، والتي زادها نوما كسلها في التماس عقيدتها الصحيحة، مكتفية بما حملته أقلام التحريف على أديم التاريخ.

وهناك أيضا بعض من صغار القوم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ممن راموا تهديدنا بعد سماعهم الكتاب، ويا ليتهم قرأوا ما جاء فيه وتمعنوه، إذن لاستناروا منه ما يرشد ألبابهم في الفجاج المختلفة، وقضوا به على عتمة أذهانهم وجهالاتهم. وبعضهم وجد علينا في اتهامنا جمهورهم بالجهل والأمية. وكأنهم ممن أخذتهم العزة بالجهل.

فترفعنا عن الالتفات إلى. استفزازاتهم الصغيرة، وأحجمنا عن التنغم بأقاويلهم إحجام الساري عن نقيق الضفادع. إنهم حاولوا تسلق مقامات العلماء بجهلهم وصغارهم. هؤلاء رحمة بهم سوف لا نعطي أهمية لما قالوه.

وفي النهاية أود أن أقول إن كتابنا هذا محاولة في استدراك ما فاتنا هناك. عاملين الوسع في مناقشة القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي وعقائده وتاريخه. التي لا زالت عالقة في أذهان المسلمين لا يتوفر لديهم فيها حل شاف ولا جواب منطقي. ولأن الإمامة وما يتصل بها من موضوعات هي مفتاح كل الصراعات التي شهدها التاريخ الإسلامي، وحيث كانت هي الأساس الذي تكاثرت عليه جميع الاتجاهات والمذاهب الكلامية والفقهية، كان لا بد من التطرق إليها بمزيد من البحث والإيضاح. ولأن اختيارنا المنهجي - أيضا - ظل هو التاريخ، لما يمثله هذا الأخير من أهمية قصوى في تسهيل البحث وتيسير الايضاح، تقرر عندي أن يكون هو ميدان الدراسة من دون أن يقودنا ذلك إلى رفض الميادين الأخرى التي تساهم أيضا في تيسير البحوث.

فإذا كان التاريخ كذلك، ساحة يتحرك فيها وعينا بكل ما له علاقة بالفكر الإسلامي، وإنه ساحة ضرورية لفهم نشوء وتطور وتكامل الظاهرة الفكرية والسياسية والمذهبية كان من الواجب علينا تبني قواعد الممارسة التاريخية والمنهج التاريخي الذي يعطي للسياق دورا أساسيا في الحدود التي تتجلى فيها سلطة السياق التاريخي على الوقائع والأحداث وعلى عملية تفكير هذه الوقائع والأحداث.

وما دام إن المنهج الذي تبنيناه يدعونا إلى إعادة المباني المذهبية إلى طبيعتها البسيطة من جهة تعقدها بفعل الصيرورة التاريخية، وإلى وحدتها من جهة تداخلها بالعناصر الأخرى المتعددة، التي تؤسس المبنى المذهبي. كان لا بد من الرجوع إلى النص النبوي الذي يقع في خط النص القرآني من الناحية البيانية.

وذلك في ضوء السياق التاريخي الذي وقعت فيه محنة النص النبوي وانطلقت سلطة الرأي، لتحل محله. ولأن السقيفة لم تكن سوى المنعطف الأول، أو بؤرة لانعكاس المخبوء والمستتر من واقع المجتمع الإسلامي، بدأنا حديثنا عن ملابساتها محاولين التعرض لمجريات أمرها. لتعيدنا مرة ثانية إلى السقيفة. إذ أن هذه الأخيرة هي بمثابة محطة ضرورية لفهم السيرة النبوية فهما حقيقيا. وكذلك محطة ضرورية في إيضاح تاريخ الخلافة والخلفاء. وحيث أن أول واقع فعلي للخلافة تتجسد فيما أسموه بالخلفاء الراشدين، كان اهتمامي أيضا منصبا على هذا الموضوع للوقوف عند حقيقته، والنهوض بدليل تاريخي، لإعادة المصداقية والاعتبار إلى النص ذي المعنى المغيب، من أجل إعادة تأسيس الفهم والوعي بتاريخنا الإسلامي. ولأن هذه التركيبة " الراشدة " لها علاقة بالصحبة وقضية الصحابة. كان لا بد من التطرق إلى هذا الموضوع الشائك لتوضيح جوانبه.

وبعد ذلك هناك بعض القضايا التي أطلقت عليها اسم " الأصنام " والتي أرى من الضروري هدمها، لأنها تحجب الحقيقة على الإنسان. وهي عبارة عن مسائل كثيرة مثار جدل ونقاش بين المذهبين. وحيث أن الأمور في جريانها لم تكن سوى امتداد لمنعطف السقيفة كنت أود لو أشير إلى أن السقيفة لم تشكل أول منعطف إلا فيما يتعلق بالمرحلة التي توفي فيها الرسول (ص) بينما هناك منعطفات أخرى جرت قبل ذلك، مثل واقعة الفتح. فالفتح كان يشكل منعطفا مهما في التاريخ الإسلامي، حيث دخل الجميع إلى الإسلام، وهذا منعطف رسم مرحلة القوة في

الدولة الإسلامية يومذاك.

غير أن دخول الجموع الغفيرة من مؤلفة قلوبهم وطلقاء. جعل المجتمع الإسلامي يدخل مرحلة جديدة من التحدي، هي مرحلة المنافقين في المجتمع الإسلامي. وأردت هذه المرة أن أجعله منطلقا في تفهم باقي المجريات.

وبعد ذلك حاولت أن أردف بحثي هذا، بطرح قضية الإمامة كما حللها ابن خلدون في تاريخه. مع الرد عليه فيما ذهب إليه من مزاعم، وكان ذلك هو الشق الثاني من البحث .

أسلوب الكتاب واضح جدا. لا محل فيه للتعقيد اللغوي. يعتمد طريقة النظار في الرد على المبطلين، كما يعتمد التحليل في فهم جانب من الظاهرة المدروسة. ميسر للقراءة والفهم والاستيعاب.

ربي يسر لي أمري.

واحلل عقدة من لساني.

يفقهوا قولي.

٢٨ / ٤ / ١٩٩٤ م

الدار البيضاء – المغرب

Casabanca MAROC

مدخل

حركة النفاق في المجتمع الإسلامي

هناك مرحلتان مرت بهما تجربة الرسالة في مقاومة الشرك العربي.

الأولى: تجسدت في مسلسل المعارك والحروب التي قادها الرسول الأعظم (ص) ضد مشركي مكة من أجل الإطاحة بهم.

الثانية: كانت بمد الفتح الإسلامي ودخول أخلاط كثيرة من العرب إلى الإسلام.

لقد كان أصل الصراع الذي جرى في بداية الدعوة، هو ما أسماه. القرآن الكريم مراع الشرك والإيمان.

وكان هدف الإسلام ابتداء هو إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام. فالجاهلية تمثل كل ما له علاقة بقيم الشرك، مقابل الإسلام الذي يمثل قيم التوحيد. وكان لكل معسكر رموزه وفعالياته. فالجاهلية عرفت رموزها وقياداتها في بني أمية بن حرب بقيادة أبي سفيان. الذي كان وراء أخطر الحروب وأضراها على المسلمين، ولكم كاد الإسلام أن ينتهي ويهلك أهله بتلك الحروب، ولعل أهم تلك المغازي التي كادت تذهب ريح المسلمين، هي غزوة الأحزاب التي وصفها القرآن، قائلا:

﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر** ﴾[٢].

---

[٢] سورة الأحزاب(آية ١٠).

وكان مما قاله الرسول (ص) داعيا به ربه في تلك المعارك:
" اللهم إن تهلك هذه العصابة، لن تعبد في الأرض " [3].

فهذه الحروب التي قادها المشركون بقيادة بني أمية. لم تكن حروبا سهلة. بل إنها كلفت المسلمين خسائر كثيرة في الأموال والأرواح. وكان الوحي يعايش هذه المحنة عن كثب. وكثيرا ما لعن وواعد بالنار مشركي قريش. ونزلت آيات كثيرة تبشرهم بعذاب أليم.

وكما كان لمعسكر الشرك رموزه وقياداته، فإن المعسكر الإسلامي تمثلت رموزه وقياداته في بني هاشم وعلى رأسهم الرسول (ص) وعلي (ع). تكرست تلك العداوة بين الفريقين بين أبي سفيان ووزراءه من دهاقنة الشرك، ونبي الله محمد (ص) ووزيره علي (ع) عداوة أشد ما تكون العداوة.

وكان الفتح بمثابة منعطف مهم في حياة الجماعة المسلمة. فالإسلام سوف يتحول من مستوى العصابة والجماعة الثائرة، إلى مستوى الدولة. والشرك سوف يتحول إلى عكس ذلك، من تجمع مركزي إلى حالة ضعيفة وفاشلة. وهذا التحول الكبير في تجربة المسلمين كان له أثران: أحدهما إيجابي تجلى في قوة الإسلام وشمول حاكميته. والثاني نتج عن دخول تلك الاخلاط في الإسلام بمن فيهم الطلقاء الذين عفا عنهم الرسول (ص) بعد أن أمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة.

إن الهزيمة العسكرية للشرك ليست كافية لتحسين إيمانهم، لقد انهزموا بعد أن نفذت كل حيلهم ومكايدهم لتحطيم الإسلام. وبعد أن نصبوا كل ما يملكون من حواجز، وأفرغوا كل ما في كنانتهم حتى الأهزع.

لقد دخل المشركون مرحلة جديدة من العمل وسلكوا استراتيجية الهدم من الداخل وبأسلوب سري للغاية. فتحولوا إلى شريحة منافقة في المجتمع تترصد الفرصة للانقضاض عليه.

ولم يكن النفاق في حقيقة الأمر سوى امتداد طبيعي ومنطقي للشرك. فهو

---

[3] سيرة ابن هشام. ٢٦٩ ج ٢

حلقة من حلقاته التاريخية. ظل بنو أمية على امتداد أحفادهم يمثلونه. في حين استمر التوحيد مع محمد وعلي وبنيه (ع).

إن الطبيعة الامتدادية للشرك، نلمحها في عودته بعد أن استتب الأمر لبني أمية عندما لحقت أهل البيت (ع) أعنف ضربة بقتل الإمام الحسين (ع) تمثلها يزيد وهو يومها مالك لزمام الأمور:

ليت أشياخي ببدر شهدوا — جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحا — ثم قالوا: يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القرم من ساداتهم — وعدلنا ميل بدر فاعتدل

لست من عقبة إن لم أنتقم — من بني أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك فلا — خبر جاء ولا وحي نزل [٤]

وأوضح الرسول الأعظم (ص) فيما أوضح للمسلمين. من أن سمة النفاق تتجلى في بغض هذا البيت الهاشمي وفي بغض علي (ع) لذلك شاع قوله عليه الصلاة والسلام: (يا علي، لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق " [٥].

وعندما جعل القرآن سمة المنافقين في لحن القول، أدرك المسلمون إن ذلك يتم من خلال موقفهم من علي (ع) لقد روى الجمهور، عن أبي سعيد الخدري أنه قال في قوله تعالى:

﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول** ﴾ [٦] قال: (ببغضهم عليا عليه السلام) [٧] .

وفي قوله تعالى:

﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا** ﴾ [٨]

---

[٤] تاريخ ابن كثير ٨ / ٢٠٤.

[٥] كنز العمال (٥٩٨/١١) و كتاب السنة (٥٨٤) و المصنف (١٩/٧ و ٣٩٤ و ٥٠٣) و كفاية الطالب (٦٨ ٧٢) و مصابيح السنة (١٧١/٤) و مناقب الخوارزمي (٣٩) و فرائد السمطين (١٣١/١) و الترمذي (٦٣٥/٥) و ٦٤٣) و مناقب ابن المغازلي (١٩٥/١٩٠) و منسد أحمد (٢٩٢٦) .

[٦] سورة محمد (آية ٣)

[٧] الدار المنثور (ج ٦ ص ٦٦)

[٨] الأحزاب / ٥٨.

ذكر جمع من المفسرين إنها نزلت في علي (ع) لأن نفرا من المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه [9].

وكانت أولى إرهاصات النفاق في مجتمع الرسول (ص) هي تلك المحاولة المشؤومة التي استهدفت حياة الرسول الأعظم (ص) وهي محاولة اغتيال قامت بها جماعة من الملثمين المنافقين. فعندما رجع رسول الله (ص) قافلا من تبوك إلى المدينة، وكان ببعض الطريق، مكربه ناس من أصحابه فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق. وأرادوا أن يسلكوها معه. فأخبر رسول الله (ص) خبرهم فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم فأخذ النبي (ص) العقبة وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر أرادوا المكر به استعدوا وتلثموا. وأمر رسول الله (ص) حذيفة بسوقها بينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه فغضب رسول الله (ص) وأمر حذيفة أن يراهم فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها ضربا بالمجن وأبصر القوم وهم متلثمين فأرعبهم الله حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر فأسرعوا حتى خالطوا الناس وأقبل حذيفة، حتى أدرك رسول الله (ص) فقال اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار. فأسرعوا وخرجوا من العقبة ينتظرون الناس فقال النبي (ص) يا حذيفة هل عرفت من هؤلاء الرهط أحدا. فقال حذيفة عرفت راحلة فلان وفلان، وكانت ظلمة الليل غشيتهم وهم متلثمين. فقال عليه السلام: هل علمتم شأن الركب وما أرادوا قالوا:

لا يا رسول الله قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا اظلمت لي العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس تضرب أعناقهم، قال: أكره أن تتحدث الناس وتقول أن محمدا قد وضع يده في أصحابه فسماهم لهما ثم قال اكتماهم " [10].

لقد بلغت خطورة النفاق في المجتمع الإسلامي حدا بات من الضروري معه

---

[9] تفسير الرازي (٢٧٣/٣) و إسباب النزول للواحدي ٢٧٣

[10] دلائل النبوة (٢٥٧/٥)

أن يعمل الرسول (ص) على تركيز المهمات الكبرى في يد وزير له، انتخبته السماء لنصرته وخلافته، وهو علي بن ابن طالب (ع).

لقد كان من الطبيعي أن ينطلق أبو بكر ببراءة ليقرأها على الناس فيما لو كان الأمر في بدايته، ولكن الأمر يتعلق بقضية كبيرة في مرحلة حرجة. بدأت الرسالة تحدد مواقفها مع الداخل بشكل يثير الاستفهام. فكان لا بد أن يؤدي سورة براءة علي (ع) ولو اقتضى الحال أخذها من أبي بكر.

وملخص الحادثة أن النبي (ص) كان قد أنفذ أبا بكر بسورة براءة إلى مكة. فلما بلغ ذا الحليفة بعث إليه عليا، فرده، فرجع أبو بكر إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، أنزل في شئ؟ قال: لا، ولكن جبرائيل جاءني وقال: لا يؤدي عنك إلا أنت، أو رجل منك، [11].

وفي تلك الظروف، اقتفى الاحتياط وضبط المهمات من الرسول (ص) أن يبقي يوم تبوك عليا بالمدينة على أهله، وذلك بعد أن كان الرسول (ص) يبقي فيها في مغازيه الأولى بعض الضعاف من غير ذوي الأهلية، أمثال ابن ام مكتوم الضرير، غير أن الظروف قد تغيرت بعد الفتح، وأصبحت المدينة مكتظة بالعناصر المنافقة، وكان من الضروري الابقاء على رجل ذي خبرة وبأس شديد.

لهذا السبب أبقى الرسول (ص) عليا (ع) وخلفه في المدينة، وزهد في وجوده في المعركة مع أنه أسد الحروب الرسالية جميعها.

ولكم حاول المنافقون استفزازه كي يبرح المدينة ليخلوا لهم الميدان من مراقب متنمر ذي بأس شديد. ذكر ابن هشام إن المنافقين أرجفوا به وقالوا:

" ما خلفه إلا استثقالا له، وتخففا منه " فأخذ علي (ع) سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني. فقال: كذبوا. ولكن خلفتك لما تركت

[11] مسند أحمد (٣/١ و ١٥١) والدر المنثور (٢٠٩/٣) و الرياض النضرة (١٣١/٢) و ذخائر العقبى (٦٩) و خصائص النسائي (٨٢) والمصنف (٥٠٦/٧) و كفاية الطالب (٢٥٤) و شواهد التنزيل (٢٣١/١) و مصابيح السنة (١٧٢/٤) و مناقب الخوارزمي (١٦٤) و الترمذي (٦٣٦/٥) و تفسير الطبري (م٦ ج ٦٥/١٠).

ورائي. فارجع فأخلفتني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع علي (ع) إلى المدينة.

بقي النفاق إذن حديث الأيام، تتناقله الألسن، وتحمله الأنباء عبر الأصقاع المفتوحة.

ونزلت يومها سورة بكاملها من القرآن تحت هذا الاسم، وربط القرآن في أكثر من موقع، النفاق بجانب الشرك والكفر:

﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [12].

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ [13].

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ [14].

﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ [15].

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ [16].

﴿ يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ [17].

والآيات السابقات تدل على أن النفاق أصبح في مستوى خطورة الكفر. وأنه امتداد للشرك.

ولم تكن هذه الخطورة باليسيرة على الفئة المؤمنة. ولا بالأمر الهين على من انطوى على حسن السريرة. لقد خاطب عمر بن الخطاب الناس بعد وفاة الرسول (ص) بنفس المنطق المنسجم مع ذلك الظرف التاريخي، وبنفس القضية التي يجدونها في أنفسهم وتستسيغها أذهانهم. إذ قال عمر للمغيرة حين قال له: " مات والله رسول الله (ص) فقال عمر كذبت ما مات رسول الله ولكنك رجل

---

[12] ٤٠ سورة النساء.

[13] ٦٨ سورة التوبة.

[14] ٧٣ – التوبة.

[15] ١ / الأحزاب.

[16] ٢٤ / الأحزاب.

[17] ١ / الفتح.

تحوسك فتنة ولن يموت رسول الله حتى يفني المنافقين " [18].

ولم يكن هناك من هو أكثر نفاقا وتبييتا للإسلام من أولئك الذين تمسكوا بشركهم حتى زمن الفتح. والذين لم يؤمنوا إذ أسلموا وهم معرضون. إنما كانوا من الطلقاء الذين بدا للرسول (ص) أن يبقيهم على قيد الحياة بعد أن كان أمر بقتلهم. هؤلاء كانوا في طليعة المنافقين الذين شاعت أخبارهم في أصقاع الجزيرة العربية. وقد سبق أن حذر الرسول (ص) المسلمين من خطر الأموية، عندما رأى الرؤيا الشهيرة. فلقد سمعوا منه عليه السلام قوله في الآية ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ هم بنو أمية، وذلك عندما رأى بني الحكم ابن أبي العاص ينزلون على منبره فساءه [19] ذلك فنزل قوله تعالى:

﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرة الملعونة في القرآن** ﴾ [20].

وازدادت خطورة النفاق بعد وفاة الرسول (ص) وبدأوا يتطلعون إلى مشاريع هدامة. فقد روى البخاري عن حذيفة بن اليمان قال:

" إن المنافقين اليوم أشرس على عهد رسول الله (ص) كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون ".

كل هذه القرائن تثبت أهمية الموقف، وخطورة الظرف الذي سبق وفاة الرسول الأعظم (ص).

لقد كان هناك أيضا كثيرا من الأمور تقتضي حلا شافيا قبل وفاة الرسول (ص). فالمسلمون قادمون على محاربة الروم وفارس. أمامهم بلاد كثيرة لم تفتح... وفي الداخل هناك حركة النفاق المنتشرة والمتوزعة على المناطق، وذات نفوذ كبير.. والدعوة إلى الله شأن بدأ يعرف هو الآخر نوعا من الصعوبة

---

[18] مسند أحمد (١١٨/٣) وشرح النهج (١٧٩/١) و طبقات ابن سعد (٢٦٦/٢) و البداية و النهاية (٢٤٢/٥)

[19] تفسير الطبري (١١٢/٩) و تفسير الألوسي (١٠٧/١٥) والدر المنثور (١٩١/٤) و تفسير الرازي (٢٣٧/٢٠)

[20] سورة الاسراء (آية ٦٠)

والتعقيد.. فالأيام التي يستقبلها المسلمون تتطلب منهم منهجا جديدا ودقيقا في الدعوة. إذ أنهم سوف ينفتحون على ديانات وفلسفات لم يكن للعرب سابق عهد بها. ولم يكن أحدهم متمرسا على ضروب المحاججات الكلامية والفلسفية. لقد كان الرسول (ص) هو الوحيد الذي تزعم حركة الاحتجاج على أهل الديانات.

فمن هو هذا الذي أوتي علم الأولين والآخرين ليتصدى لهذه التيارات الدينية وغير الدينية، بلغة العلم ومنطق الجدل وفكرة الوحي؟!.

وهل كان في نية الرسول (ص) أن يترك أمته لتقع على قراءة اساغوجي فورفوريوس، أو ميتافيزقا أرسطو. حتى تتعلم منطق الدفاع عن دينها، وإفحام الخصم والانتصار للعقيدة. بما يعزز إيمان الناس ويزلزل قلوب المناوئين. فلا بد للعلم النبوي أن يجد طريقه إلى خلف معين، تقم تربيته وإنشاءه لهذا الدور الخطير. ولهذا كانت فترة موت الرسول (ص) على جانب من الخطورة. ولحظة حرجة فيما لو أمعنا النظر فيها. إنها اللحظة التي ينتظر فيها الإنسان انفلات الروح من إنسان عزيز. واللحظة التي تضحى فيها الوصية أنفس من الدنيا عند المحيطين به.

لحظة وفاة الرسول وكانت جديرة بأن تشد أنظار القوم إلى الرسول (ص) وتنسيهم أنفسهم، بل التصارع على الخلافة. كانت تلك المصيبة الكبرى جديرة بأن تنسيهم الدنيا لبضعة أيام.

وكان جدير - أيضا جمن هم حول الرسول (ص) أن يهتموا أيما اهتمام بما يلفظه هذا الرجل العظيم من قول في نهاية رحلته من بين أظهرهم. فهو رجل ليس كباقي الناس.

غير أن الواقع يختلف - تماما - عما يفترض من طيبة هذه القلوب واستنارة تلك العقول.

لقد كانت نهاية صامتة ولعمري إنهم جعلوها كذلك حتى لا يثيروا على أنفسهم لومة لائم على حق أضاعوه. وحقيقة سكتوا عنها. مات الرسول (ص) صاحب الأمة العريضة، وصاحب الهموم الكبرى التي كان يركز عليها حتى نهاية عهده كاهتمامه بتجهيز جيش أسامة. مات هذا النبي العظيم وترك أمته مضطربة من

دون أدنى وصية أو إشارة تشد ظهر مصيرها. إلى من يخلفه في الأمر وكيف يخلفه فيه. وإذا كانت قضية الخلافة هي منشأ الخلاف عند المسلمين، وبداية التصدع في صرح الأمة. فكيف لا يسمع فيها لرسول الله رأي؟!.

إلا أن الحقيقة المرة ليست كما يحاول عرضها المزورون للأحداث التاريخية، جهلا أو طمعا. الحقيقة المرة هي أن رسول الله (ص) ما فتئ يوصي أمته في نهاية عهد. بمن يخلفه في أمته. غير أن تيار الاغتصاب وجه الأمر إلى وجهة معاكسة تقوم على الرأي الكسير والاغتصاب الجائر. كانت هناك حبكة جميلة، وطبخة لذيذة أعدها هذا التيار. لذلك سوف يتبين لنا كيف كان الرسول (ص) يدبر الأمر وكيف كان تيار الاغتصاب يتتبع هذه التدابير بخطى حثيثة، ويعيق تنفيذها.

التدابير النبوية في تركيز الإمامة

كانت هناك طرق كثيرة ومختلفة. اعتمدها الرسول (ص) في تركيز الإمامة وترسيخها في وجدان المسلمين وهي كالتالي:

١ - العمل على إشاعة الإمامة لعلي بن أبي طالب (ع)

لم يكن الإمام علي (ع) رجلا عاديا كباقي رجالات الرسول (ص) والذين عملوا على جعله كذلك هم ممن يتجاهل على التاريخ. ويتعسف على وقائعه ظلما وعدوانا. فالإمام علي (ع) كان صنوا وأخا وخليفة لرسول الله (ص) في كل أحواله. والذي فهمه المسلمون من اهتمام الرسول (ص) التواصل بهذا الرجل المتميز، هو أنه إمام المستقبل، وخليفة الرسول (ص) من بعده.

لقد اعتاد الأمويون ومن جاء بعدهم، أن يضخموا من شأن الخلفاء حتى لا يبقى لعلي (ع) فضيلة تذكر. ونحن سوف لا نقع فريسة لتلك المرويات التي تكذبها القرائن التاريخية، وتسخر من ابتذالها الألباب الملمة والمحيطة بكل السياق التاريخي الذي نشأ وتحرك فيه هؤلاء الثلاثة. وسوف أفرد لذلك بابا أحاول استيفاء القول فيه عن قيمة هؤلاء الخلفاء إن شاء الله.

وأهم تلك المواقف التي كان يرمي من خلالها الرسول (ص) إلى إظهار إمامة علي (ع) في المستقبل ما يلي:

أ - يوم الدار.

ب – أحاديث الوصية.

ج – يوم الغدير.

أ – يوم الدار:

وهو موقف جرى تحت سمع وبصر صناديد قريش وكبرائها، وعلي (ع) يومها لا يزال في طور الغرارة والصبا. إذ قرع الرسول (ص) مسامعهم، معلنا اختيار علي (ع) وزيرا له وخليفة من بعده. وملخص الحادثة كالتالي:

إنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ [21].

قام الرسول (ص) يدعو أقرباءه، وفيهم أبو لهب فقال (ص):

" يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شابا في العرب جاء بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله عز وجل أن أدعوكم إليه. فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم "؟.

فسكت القوم ولم يجيبوا إلا علي (ع) قال: " أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله. وبعد أن كررها ثلاثا، التفت إليهم وقال:

إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم (أو عليكم) فاسمعوا له، وأطيعوا.

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب، قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع، وجعله عليك أميرا " [22].

كان هذا هو أول موقف رسالي في الدعوة إلى الإسلام. طرح فيه علي (ع) بقوة. وكان الأمر بإنذار العشيرة، وهي أول خطوة للدعوة تزامنت مع طرح إمامة علي (ع)، لما في ذلك من تلازم وتكامل بين الدعوة والإمامة.

ب – أحاديث الوصية الأخرى

---

[21] الحجر / ٩٤ – ٩٥.

[22] تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٩ – ٣٢١ ط. دار المعارف – مصر.

وكان من دأبه صلوات الله عليه أن يعلن وصيته لعلي (ع) بشكل واضح، لأصحابه كالذي رواه العامة عنه، قال الرسول (ص):

" لكل نبي وصي ووارث، وإن وصيي ووارثي علي بن أبي طالب " [23].

وعندما نزل قوله تعالى:

﴿ **إني جاعلك للناس إماما، قال: ومن ذريتي** ﴾ [24].

روى الجمهور عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (ص) " انتهت الدعوة إلي وإلى علي لم يسجد أحدنا قط لصنم، فاتخذني نبيا واتخذ عليا وصيا " [25].

وفي قوله تعالى:

﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ [26].

روى الجمهور أيضا، عن ابن عباس وسعيد الخدري، عن النبي (ص):

" عن ولاية علي بن أبي طالب " [27].

ج - يوم الغدير:

عندما وصل النبي (ص) من حجة الوداع إلى مكان اسمه غدير خم يقع بين قلة والمدينة قرب الجحفة بناحية رابغ. قام خطيبا في المسلمين بعد أن أخذ بيد علي (ع) فقال:

" ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا بلى يا رسول الله!. قال: فمن كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه ".

ثم قال: " أيها الناس إني تارككم وأنتم واردي علي الحوض، وإني سائلكم حين تردون علي، عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما. قالوا: وما الثقلان

---

[23] أسد الغابة ابن الأثير ١ / ١٧٥.

[24] البقرة / ١٢٣.

[25] المناقب / ابن المغازلي.

[26] الصافات / ٢٤.

[27] الصواعق المحرقة.

يا رسول الله؟.

قال: الثقل الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله، وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به ولا تضلوا، ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي " [٢٨] .

وهناك أمثلة كثيرة من تلك الفضائل التي كانت تعكس مدى اهتمام الرسول الأعظم (ص) بولاية علي (ع) وسوف نذكر بعضها في مقام آخر.

وكان الرسول (ص) يعمل على تركيزها في أذهان المسلمين، حتى يستقرئوا من خلالها أحقية الإمام علي (ع) في خلافة النبي (ص). وظل عليه الصلاة والسلام يسلك طريقا هادئا في ذلك حتى لا يثير بها حفيظة قوم وتر علي (ع) قلوبهم بقتله أجدادهم على امتداد المعارك التي خاضها مع الرسول (ص) وحتى يتجنب عليه الصلاة والسلام حقد الحاقدين الذين رأوا في تنصيب علي (ع) تفويتا لمصالحهم ومطامعهم الخسيسة.

ولما كان الوحي يراقب عن كثب محنة الرسول (ص) خفف ذلك القلق عنه وأمره بأن يصدع بالحق، إكمالا للدين وختما لشريعته. فكان أن خطب فيهم خطبته الشهيرة بغدير خم. وفيها اكتمل الدين بقوله تعالى:

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [٢٩] .

كان هذا هو التدبير الذي انتهى إليه الرسول (ص) هو أن يصدع بالحق، ولا يخفي الأمر وليكن ما يكون، فالأمر إلهي: ﴿ **يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ [٣٠] .

فلتذهب نفوس حسرة، وليسلك الرافضون مذاهبهم.

---

[٢٨] مسلم (٢٥/٥و٢٧) ومسند أحمد (١٧/٣و٢٦و٥٩و١٦٧/٤) و المستدرك (١٠٩/٣و١٤٨) و مناقب الخوارزمي (١٥٤) وينابيع المودة (٣٢/١) و مجمع الزوائد (١٦٥/٩) و كفاية الطالب (٢٥٩) و مصابيح السنة (١٨٥/٤و١٨٥) و كتاب السنة (٣٣٧و٦١٣و٦٢٩)

[٢٩] سورة المائدة (آية ٣)

[٣٠] سورة المائدة (آية ٦٧)

فالأمر اليوم أجل من أن يسكت عنه.

لقد كان تلطف الرسول (ص) في الأمر من باب أن المجتمع أصبح غاصا بالمنافقين، وبمن لا زالت في قلوبهم موجدة عليه وعلى علي (ع) وبني هاشم في كل ما جرى لهم. إنه يعلم أن الأغلبية منافقة، ولذلك رفضت الإمامة لعلي (ع) واغتصبت حقه في ذلك انتقاما لماضيها الشركي.

٢ - التدبير الثاني / إبعاد المسلمين إلى جهة الخارج:

ذكر ابن سعد في طبقاته، إنه لما كان يوم الأربعاء بدء برسول الله (ص) المرض، فحم وصدع. فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ثم قال:.
أغز بسم الله في سبيل الله، فقاتل من كفر بالله فخرج وعسكر بالجرق فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار انتدب في تلك الغزوة فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم، فتكلم قوم وقالوا يستهل هذا الغلام على المهاجرين الأولين، فغضب رسول الله (ص) غضبا شديدا فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال " أما بعد، أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في إمارة أسامة، ولئن طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إنه كان للإمارة خليق وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشرة خلون من ربيع الأول وثقل رسول الله (ص) فجعل يقول انفذوا بعث أسامة ".

إن المدقق في نبرة الخطاب الأخير.. والملابسات التي لفته يدرك إلى أي مدى كان الرسول (ص) يراهن على ذهاب الجيش إلى مهمته وبذلك يتم إجلاءه من المدينة. فالإمعان في تجهيز جيش أسامة زيادة على الابقاء على علي (ع) بجواره في اللحظة التي سيفارق فيها الحياة.. له دلالة قوية على أن الرسول (ص) كان يروم إلى إجلاء كل من من شأنه الطمع في خلافة الرسول (ص) والتطلع إليها.

فهو من جهة يبين لهم أن أمر الإمارة من اختصاص النص. وأنه عندما أمر عليهم أسامة إنما عمل ذلك من جهة اختياره الذي لا دخل لمشورة فيه. فالمشورة لا مدخلية لها في المسؤولية.. وهو من جهة أخرى يبين لهم إنهم وأسامة وغيره

سواء. وإنهم ليسوا ذووا ميزة تناقض تأمير أسامة عليهم.. وإن أسامة على صغر سنه يبقى جدير بها ممن كانوا معه. وكأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن البعض سوف يرفض إمامة علي (ع) لصغر سنه. فبادر إلى هذا النوع من الاختيار لجعله درسا لأمته إلى الأبد!.

لقد حاول الرسول (ص) وبكل إمعان إجلاءهم بعيدا عنه ولو أن وجودهم يومها كان أفضل من غيابهم، إذن، لأبقى عليهم رسول الله (ص) في المدينة وهو يعلم أن وفاته لا شك واقعة!.

لكن ما الذي وقع؟.

كان تيار الاغتصاب من جهة واعيا بمقاصد الرسول (ص) مطلعا على تدابيره فأبو بكر وعمر بن الخطاب يدركان تمام الادراك، أن شيوع إمامة علي (ع) سوف يخلق لهما متاعب كثيرة.. وأن إجلاءهما خارج المدينة قد يفوت الفرصة عليهما، فإن كان أبو بكر وعمر بن الخطاب قد استشكلا تأمير أسامة عليهم فإن ذلك كان محاولة منهم لإفشال خطة الرسول (ص). هم مصممون على طلب الخلافة، فإذا أنزلهم الرسول (ص) تلك المنزلة، فكيف يتسنى لهم الصعود مجددا، بعد أن يرسخ في وجدان المسلمين إن أبا بكر وعمر بن الخطاب، هما كباقي المسلمين، وإنهما وإياهم سواء تحت إمرة أسامة. ومن هنا عملا على إفشال ذينك التدبيرين من خلال رفضهم امتثال الأمر.

إنهم لم يجهزوا جيش أسامة، وبقوا هناك على مقربة من الرسول (ص) يتتبعون مجريات الأمور. كان عمر يسترق السمع عن طريق عائشة في حين هرب أبو بكر إلى منزله بالسنح [٣١] بل إن عمر بن الخطاب ظل رافضا لإمارة أسامة، على الرغم من تشبث الرسول (ص) بها عندما قال: " لعن الله من تخلف عن جيش أسامة " [٣٢].

وذكر بن جرير الطبري في تاريخه، إن عمر بن الخطاب طلب من أبي بكر أيام خلافة هذا الأخير، عزل أسامة بن زيد. بل إنه أحيانا يواجه بها أسامة وكأنه يجتر

---

[٣١] الكامل ٣٢٣ ج ٢

[٣٢] الملل والنحل ج ١ ص ٢٣ ط مصرية.

شيئا ما وجده في نفسه من ذلك الاختيار عندما كان يلقى أسامة بن زيد فيقول له:

(السلام عليك ايها الامير) ، ويقول :

" مات رسول الله وأنت علي أمير " [٣٣] .

لقد كان - إذن - وجودهما في المدينة خطرا علي الرسول (ص) وعلي (ع) لذلك بادر الرسول (ص) إلى محاصرتهم بأسلوب آخر أوضح للعيان بأن يعهد بشكل جلي ونهائي يكشف فيه عن الخليفة الشرعي من بعد.. غير أن عمر بن الخطاب الذي كان يتجسس على كل ما يصدر عن الرسول (ص) بادر إلى منع الناس من إحضار الكتاب والدواة للرسول (ص) لكتابة العهد ولم يكن لمنع عمر للناس عن إحضار الدواة دلالة غير أنه خاف من أن يكون واضحا للجميع ليسهل عليهم بعد ذلك مزاولة التلبيس.

وقد عرف ذلك برزية يوم الخميس كما يقول ابن عباس، لقد قال لهم الرسول (ص):

" إئتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا. فقال عمر بن الخطاب: إن الرسول يهجر " ، و قال (حسبنا كتاب الله) [٣٤] .

لقد أفشل عمر بن الخطاب ذلك التدبير، وسكت الرسول (ص) بعد أن تبين له عدم جدوى كتابة العهد الأخير.

ولنبقى الآن في إطار حديثنا عن السياق الذي تحرك فيه تيار الاغتصاب، وكيف أن النفاق كان على ضربين، أحدهما مثله تيار الاغتصاب والآخر مثله التيار الأموي.

---

[٣٣] السيرة الحلبية (٢٣١/٣) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥٢/٤) و كنز العمال (٢٧١/١٣)

[٣٤] البداية و النهاية (٢٢٧/٥) وطبقات أبن سعد (٢٤٢/٢) و تذكرة السبط (٩٦٥) و مسند أحمد (٢٢٢/١و٣٢٥و٣٥٥) وصحيح البخاري (١١٤/٥٤/١) و مسلم (١٦٣٢/٤٥٥/٤٥٤/٣-١٦٣٤) و شرح النهج (٥٤/٢و٥٥) و تاريخ الطبري (١٩٢/٣و١٩٣) و الملل و النحل (٦) و الكامل(٣٢٠/٢) .

وعندما انتقلت روحه الشريفة، وعلي (ع) منهمك في تغسيله.. لم يكن آنئذ أبو بكر في المقام.

لقد ذهب إلى السنح، في حين قام عمر بن الخطاب على عادته ببلبلة الناس. وأظهر نوعا من الجنون ليدخل الناس في موضوع جانبي، ويثير الغوغاء حتى لا يعطي للناس فرصة في الالتفات إلى من يخلف رسول الله.. ولكم قيل له إن الرسول (ص) قد مات، ولكم قرأت عليه الآية التي قرأها عليه أبو بكر، فما زاده ذلك إلا إصرارا على تظاهره بالجنون وعدم الوعي حتى إذا جاء أبو بكر وذكره بما سبق أن ذكره به الآخرون، استكان بشكل يثير الشك في أمرهما.

أخذ عمر يهدد بالقتل كل من قال إن محمدا قد مات. ويقول: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي. وأن رسول الله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل مات، والله ليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجل من يزعمون أن رسول الله مات.

وعندها قرأ عليه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم في المسجد:

﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من تبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم. ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين** ﴾.

ولم يكن ذلك ليرد بن الخطاب عن تشويشه للمسلمين. وقد خرج العباس فيما يرويه بن سعد في طبقاته وكذا أنساب البلاذري، خاطبا في الناس معلنا موته.

وكان عمر بن الخطاب كما ذكروا في حالة من الهوس والهذيان: " فما زال عمر يتكلم حتى أزبد شدقاه ".

فلما أقبل أبو بكر جلس عمر بن الخطاب وسكت عندما كان أبو بكر يتلوا الآية التي تليت عليه فما ردته عن تهديده للناس. فقال عندها:

" أيقنت بوفاته الآن، وكأني لم أسمع هذه الآية " [35].

ولا يغيب على حاذق مثل هذه الفبركات. إذ لو أن شدقيه أزبدا لجنة أصابته لفراق النبي (ص) أو مس لحقه حسرة على رحيل الرسول (ص) لما سكت عند قدوم صاحبه أبي بكر. ولما هرع إلى السقيفة لكي لا تفوته الخلافة ولكان أجدر بمن أصابته تلك الجنة ولحقه ذلك المس، أن يحضر جنازة الرسول (ص) وذكر صاحب كنز العمال " وأن أبا بكر وعمر لم يشهدا دفن النبي (ص) ".

وفي حديث عائشة كما نقله بن هشام وابن كثير وأحمد بن حنبل: " ما علمنا بدفن الرسول حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل ليلة الأربعاء ".

لقد احتفظ كل من أبي بكر وعمر بوجودهما في المدينة. ولم يعطوا اهتماما لوفاة الرسول (ص) كما تقدم. بل كان همهما أن يجادلا الأنصار على الخلافة ويطرحا نفسيهما أوصياء على الأمة في غيبة أهل الرأي ورغما عن رغبة كبار الصحابة.

---

[35] الملل و النحل (٧) وشرح النهج (١٧٩/١) و البداية و النهاية (٢٤٢/٥) و طبقات أبن سعد (٢٦٦/٢) و مسند أحمد (١١٨/٣)

نتيجة المدخل

نستخلص من هذه المقدمة السريعة أن النفاق ظل موجودا في المجتمع الإسلامي إلى ما بعد وفاة الرسول الأعظم (ص) ويشكل بؤرة المعاناة اليومية للمسلمين. كما نستخلص أن حركة النفاق في المجتمع الإسلامي لم تكن واحدة. بل كانت عبارة عن فصائل وتيارات تختلف أهواءها ومقاصدها. فهناك من قد دخل الإسلام ليركب متن الصراع. وليكون له الأمر من بعد الرسول (ص) وهذا المنطق كان موجودا يومها في الجزيرة العربية. فعندما عرض النبي (ص) نفسه على بني عامر بن صعصعة فيما ينقله ابن هشام في السيرة، قال: قال له رجل:

" أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك. قال: الأمر لله يضعه حيث يشاء. فقالوا له: أفتهدي نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه ".

لقد أدرك الكثير من العرب، إن دعوة الرسول الأعظم (ص) لها شأن عظيم في المستقبل وإنها لا أقل تبقى صفقة مربحة ما دام يمثلها أعظم شخصية هاشمية. لقد عبر عن ذلك رجل من بني عامر بن صعصعة: " والله لو إنني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب " [٣٦] وهذا إغراء كاف لأولئك الذين افتقروا للرفعة والمجد في الجزيرة العربية. فتلك إذن، فرصة لهم لطلب المجد وركوب

---

[٣٦] سيرة ابن هشام ص ٧٣ ج ٢

صهوة الدعوة الإسلامية من أجل تحقيق هاتيك المآرب. وإذا كان بنو عامر بن صعصعة ممن قد عبر عنها بتلقائية وأسلوب صريح. فإن هناك من هم أقل شأنا منهم، وأكثر مكرا ليندسوا في الحركة النبوية لينتظروا ما وعدهم به الرسول الأعظم (ص) من فتح قصور كسرى وقيصر.

لقد حارب أبو سفيان رسولي الله (ص) ردحا طويلا من الزمن وكان الكثير من العرب يفضلون انتشار الرسول (ص) ليس انتصارا للحق الذي جاء به. وإنما انتصارا لقضيتهم.

فمحمد (ص) أولى لهم من أبي سفيان الذي أذلهم ولهذا لم يكن في المصلحة القبلية أبو بكر ولا عمر. أن ينتصر أبو سفيان الذي ينتمي إلى " قصي " سادة قريش، وهما من تيم بن مرة، وعدي وهما أذل حي في قريش.

وهناك حادثة ينقلها بن هشام في السيرة تعكس ذلك الوجه من الحقيقة.. فقد ذكر أن العباس ركب. بغلة النبي ليلة فتح مكة.. وخرج يبحث عن رسول يوفده إلى قريش فيخبرهم بقدوم النبي (ص) ليأتوا إليه فيستأمنوه. فرأى أبا سفيان فقال له: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك. ثم أردفه وأخذه ليستأمن له من النبي (ص) وكلما مر على نار من نيران المسلمين قالوا عم رسول الله (ص) على بغلته حتى مر عمر بن الخطاب. فلما رأى أبا سفيان على عجر الدابة، قال: أبو سفيان! عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله (ص) فركض العباس بالبغلة وسبقته، قال العباس: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله (ص) فركض العباس بالبغلة وسبقه، قال العباس: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله (ص) ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد. فدعني فلأضرب عنقه، قال: فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله، فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل. فلما أكثر عمر بن الخطاب في شأنه، قلت: مهلا يا عمر فوالله إن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت إنه من رجال بني عبد مناف ".

إن الإسلام كما فهمه نفر كبير منهم، هو أن يرفع الله به أقواما ويحط به آخرين. فالقبلية كانت هي الأساس الذي يقوم عليه شأنهم ويتشكل منه وجدانهم. ويذكر المسعودي إن أبا بكر قد بلغه في أيام حكمه عن أبي سفيان، أمر، فأحضره وأقبل يصيح عليه، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر، فقال لقائده: على من يصيح ابني؟ فقال له: على أبي سفيان، فدنا من أبي بكر وقال له: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق؟ وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية. لقد تعديت طورك وجزت مقدارك، فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار، وقال له: يا أبت، إن الله قد رفع بالإسلام قوما وأذل به آخرين.

وذكر بن عساكر في تهذيبه، إن عمر بن الخطاب قدم مكة، فقالوا له: إن أبا سفيان ابتنى دارا، فألقى الحجارة فحمل علينا السيل، فانطلق معهم عمر، وحمل الحجارة على كتف أبي سفيان، فرفع عمر يده وقال: الحمد لله الذي آمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعني.

أما موقف هؤلاء من بني هاشم الذين كانوا حطب النار في كل صراعات المجد. فقد كرهوا لها الخلافة فيما بعد: حق لا يجتمع لها فضل النبوة والخلافة. فعندما قال البعض لعمر: " فما يمنعك منه؟ قال: أكره أن أتحملها حيا وميتا "[٣٧]، وفي رواية لا أجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة " [٣٨].

ولقد أدرك بعضهم خلفية تيار الاغتصاب، وواجههم بنفس المنطق. فهذا سعد بن عبادة الخزرجي يرفض بيعة أبي بكر، وتحصل بينه وعمر مشادات كلامية، ويقول له: " لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع ".

وأما أبو سفيان الذي أدرك أن أبا بكر وعمر بن الخطاب ما فعلا ذلك إلا طلبا للرفعة: " ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش، والله لئن شئت لأملأنها خيلا ورجالا " [٣٩].

---

[٣٧] الإمامة و السياسة (٤١/١)

[٣٨] شرح النهج (١٨٩/١)

[٣٩] تاريخ الطبري (٤٤٩/٢)

حتى أن أبا سفيان، هذا، الذي كان حريصا كأشد ما يكون الحرص على هدم الإسلام. وبذل وسعه في إقصاء بني هاشم. هاهو اليوم يربكه الموقف، ويعز عليه أن يتأمر عليه أهل حي إنما هو أحط حي في قريش. ولإمارة بني هاشم يومها أحب إليه ألف مرة من إمارة بني تيم بن مرة وعدي بن كعب. لقد قالها يومئذ: " أما والله لئن بقيت لأرفعن من أعقابهما "[٤٠].

وقد طلب البيعة من علي (ع) ورفض هذا الأخير بيعته لما يدركه منه من نوايا خبيثة.

فهو ما أراد ذلك إلا ليحارب بنعرة قبلية جاهلية. وهي النعرة التي يتجنب علي (ع) القتال بها. وهو من سمع أخاه رسول الله (ص) " يقول ليس منا من دعى إلى عصبية "!.

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي (ع) لمعاوية: " فأبوك كان أعلم بحقي منك، وأن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك "[٤١].

وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه معاوية، إذ كثيرا ما رام الحط من الشيخين بطرق مختلفة، ومثال ذلك ما رواه الحمدي في الجمع بين الصحيحين، قال: " قال عبد الله بن عمر: دخلت على حفصة ونسواتها تنظف، قلت: قد كان من أمر الناس ما تبين، فلم يحصل لي من الأمر شئ، فقالت: الحق لهم، فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية فقال: " من أراد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق منه ومن أبيه ".

هذا غيض من فيض مما رزح به التاريخ من أدلة قارعة، تكشف عن الواقع القبلي المتدني لتيار الاغتصاب، وكيف كان موقف الرافضين له. ومما يؤكد على عدم التفاني العقيدي لهذا التيار إنه كان جد حذر من الهزيمة، ومستعد لكل الطوارئ في مختلف المعارك الكبرى للإسلام. فكتب التاريخ والسيرة تعطينا فكرة

---

[٤٠] العقد الفريد (٢٥٧/٤)

[٤١] العقد الفريد (٣٣٦/٤)

عن موقف أبي بكر في غزوة بدر.

ففي الوقت الذي تقدم فيه كل من علي (ع) وحمزة وعبيدة بن الحرث، يبارزون صناديد الكفر، كان أبو بكر خلفهم قرب الرسول (ص) في العريش الذي أقيم له، يتفرج عليهم.

ويا لها من فرجة! وكان أبو بكر وحده مع الرسول (ص) بالعريش! [٤٢].

أما في غزوة أحد، فإن الأمر أشد وأنكر. فلقد انهزم الكثير من المسلمين.

وكان أبو بكر وعمر وعثمان ممن فر في هذه الغزوة. ذكر السدي: لما أصيب النبي (ص) بأحد قال عثمان: لألحقن بالشام، فإن لي به صديقا من اليهود، فلآخذن منه أمانا، فإني أخاف أن يدال علينا اليهود، وقال طلحة بن عبيد الله: لأخرجن إلى الشام، فإن لي به صديقا من النصارى، فلآخذن منه أمانا، فإني أخاف أن يدال علينا النصارى.

وذكر السدي: " فأراد أحدهما أن يتهود، والآخر أن يتنصر. قال: فأقبل طلحة إلى النبي (ص) وعنده علي، فاستأذنه طلحة في المسير إلى الشام، وقال: إن لي بها مالا آخذه ثم انصرف، فقال النبي (ص): عن مثلها من حال، تخذلنا وتخرج وتدعنا، فأكثر على النبي (ص) من الاستئذان، فغضب علي وقال: يا رسول الله، إئذن لابن الحضرمية، فوالله لأعز من نصره، ولأذل من خذله، فكف طلحة عن الاستئذان عند ذلك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ **ويقول الذين آمنوا: أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم، حبطت أعمالهم** ﴾ [٤٣] يعني أولئك يقول: إنه يحلف لكم إنه مؤمن معكم فقد حبط عمله بما دخل فيه من أمر الإسلام حتى نافق فيه " [٤٤].

يقول بن خلدون في تاريخه: " وغفر الله للمنهزمين من المسلمين ونزل: ﴿**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم**﴾[٤٥] " وكان منهم عثمان

---

[٤٢] تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٤١٦.

[٤٣] المائدة / ٥٣.

[٤٤] تفسير الخازن ج ١ ص ٥٠٣ وتفسير ابن كثير ص ٦٢ ج ٢

[٤٥] سورة آل عمران (آية ١٥٥)

بن عفان بن أبي عقبة الأنصاري ".

ويوم الخندق لما سكت كل منهم ولم يجب طلب عمرو بن عبد ود العامري، وكانت ستكون هزيمة نكراء لو لم ينهض إليه علي بن أبي طالب (ع) حتى قال الرسول (ص):

(برز الإيمان كله إلى الشرك كله) [٤٦].

وقال ايضاً : (لمبارزة علي بن ابي طالب لعمر بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي الى يوم القيامة) [٤٧].

وقال (قتل علي لعمر بن عبد ود افضل من عبادة الثقلين)[٤٨] .

وعندما أراد الرسول (ص) فتح خيبر، أعطى أبا بكر الراية فلم يفتح ورجع منهزما، وأعطاها بعد ذلك عمرا فرجع منهزما يجبن أصحابه ويجبنونه حف أعطاها في الثالثة عليا (ع) ففتحت على يده وقال (ص): " لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله له [٤٩]".

فهذا إن دل فإنما يدل على مدى حرص هذا التيار على الحياة، والابتعاد عن أي موقف يهدد حياتهم. فهم لا يطلبون الشهادة بقدر ما كانوا يطلبون امتيازات المستقبل، وهو ما يفسر فرارهم يوم الزحف.

هذا ما انكشف من سلوك تيار الاغتصاب.

---

[٤٦] شرح النهج (٦١/١٩)

[٤٧] تاريخ بغداد (١٩/١٣) والمستدرك (٣٢/٣) و فرائد السمطين (٢٥٦/١) مقتل الحسين (٤٥/١) و شواهد التنزيل (٩/٢) و مناقب الخوارزمي (١٠٧) و تاريخ دمشق (١٦٩/١) و تفسير الرازي (٣١/٣٢) .

[٤٨] السيرة الحلبية (٦٤٢/٢-٦٤٣)

[٤٩] سنن أبن ماجة (٥٢٠/١ح ١٦٢٧) و البخاري (١٥٤٢/٤ ح ٣٩٧٢ وح ٣٩٧٣) و صحيح مسلم (٢٤/٥و٢٥) و حلية الأولياء (٦٢/١) و أسد الغابة (٤٨/٤) و تاريخ السيوطي (١٦٨) و مناقب الخوارزمي (١٦٨) و كفاية الطالب (١٠٢/٩٨) و المصنف (٤٩٧/٧ و ٥٠٠) و كتاب السنة (٥٩٤) و المستدرك (١٠٩/٣) وفرائد السمطين (٢٦٤/١)

وعليه فإن هذا التيار كان يهدف إلى السلطة، وكان يشكل تيارا مستقلا، لأن همومه، وأهدافه وسلوكه. كانت تختلف كثيرا عن باقي التيارات التي تشكل منها خط النفاق في المجتمع الإسلامي. لذلك السبب رأينا كيف عمل الرسول (ص) الوسع في إبعادهم عن المدينة يوم جاءه الأجل، وكيف عملوا على إفشال ذلك التدبير.

أما التيار الثاني فهو تيار مستقل له شوكته ومقدراته له أهدافه ومقاصده يميزه عن التيار الأول، إنه كان يمثل الامتداد السري لحركة الشرك في الجزيرة العربية.

وكان هذا التيار متمثلا في بني أمية، وعلى رأسهم أبو سفيان وبنيه!.

وحسبنا من ذلك شهادات تاريخية تثبت بقاء أبي سفيان وابنه معاوية على الشرك.

فقد روى ابن الزبير قال: " كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لا أقاتل، فلما اقتتل الناس نظرت إلى ناس على تل لا يقاتلون، فركبت وذهبت إليهم وإذا أبو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح، فرأوني حدثا، فلم يتقوني، قال:

فجعلوا والله إذا مالت المسلمون وركبتهم الروم يقولون: " إيه بني الأصفر " فلما هزم الله الروم أخبرت أبي، فضحك، فقال " قاتلهم الله أبوا إلا ضغنا، لنحن خير لهم من الروم " [50].

وفي أيام عثمان جاء أبو سفيان إليه وجماعة من أقاربه وقال:

يا معشر بني أمية! إن الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها، وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف الصبي الكرة: فوالله ما من جنة ولا نار " [51].

وذكر صاحب شرح النهج، " إن أبا سفيان مر بقبر حمزة، وضربه برجله وقال: " يا أبا عمارة! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلماننا اليوم يتلعبون به ".

---

[50] / أسد الغابة ص ١٤٩ ج ٥ - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

[51] الأغاني / أبي الفرج الأصفهاني ج ٦ ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

وذكروا أيضا، إن رسول الله رأى يوما معاوية وعمرو بن العاص يسيران في غزاة تبوك فقال لأصحابه:

" إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما، فإنهما لايجتمعان على خير أبدا " [٥٢].

وفي رواية أحمد بن حنبل في المسند، رفع الرسول (ص) يديه فقال " اللهم اركسهما في الفتنة ركسا، ودعهما إلى النار دعا ".

وحسبك ما فاضت به كتب الأخبار من أيامهم، يوم حولوها إلى ملك عضوض، وملؤوها ظلما وفجورا. وحسبك أيضا ما مر علينا من قول حفيدهم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، لما امتثلها صريحة:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل [٥٣].

---

[٥٢] العقد الفريد (٣٤٦/٤).

[٥٣] مسند أحمد (ج ٤ ص ٤٢١).

النفاق والنهاية المفتعلة!

هناك لفتة عجيبة في التاريخ الإسلامي. جديرة بأن تثير عقول الباحثين. وهي تلك التي تتصل بواقع حركة النفاق في مجتمع الرسول (ص)، وعن تلك النهاية المزعومة، والمفتعلة للنفاق بشكل يدفع إلى طرح السؤال حول ما إذا كانت هناك نهاية فعليه للنفاق أم أن هناك تأسيس جديد لهذه الحركة.

إن النفاق ظل موجودا في حياة الرسول (ص) ويشكل الحدث البارز بعد الفتح الإسلامي، غير أنه سرعان ما اختفى الحديث عن النفاق والمنافقين بعد استتباب الحكم لتيار الاغتصاب.

لم يعد هناك حديث يتناول مشكلة النفاق ولا أنباء تتعرض لأعمال المنافقين.

فهل هذا يعني إن موت الرسول (ص) سينهي تلقائيا حركة النفاق؟!.

أم أن تيار الاغتصاب كان من مصلحته تغييب هذا الاهتمام وبأن يتواضع على توازنات معينة مع باقي الفصائل المنافقة؟!.

إن هذا السكوت المفاجئ عن ظاهرة النفاق وتحويل الأنظار إلى بني هاشم لا دلالة له غير ما حدث من اتصال واتفاق بين فصائل تيار الاغتصاب ومآرب باقي الشرائح المنافقة. فهل يعقل أن المنافقين لم تكن حكمة الرسول الأعظم ونبله وعصمته بالذي يزكي ويربي هؤلاء المنافقين على الإسلام. حتى يأتي أبو بكر وعمر وعثمان فيحسن إسلامهم آنذاك. في حين نجد القرآن ينبئ الرسول (ص) حتى

آخر عهده بكثرة المنافقين وعن دسائسهم المنكرة.

﴿ **والأعراب أشد كفرا ونفاقا** ﴾ [٥٤]

﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة** ﴾ [٥٥].

﴿ **ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم**﴾ [٥٦].

فالنبأ القرآني يخبر عن ظاهرة خطيرة ومنتشرة في المجتمع. كيف تمحى بسرعة فور رحيل النبي (ص) ولأن طبيعة النفاق دائما من التكتم بحيث لا تمكن من ضبط حقيقتها.

أشار القرآن إلى مظاهرها وسلوك أصحابها، وعمل على فضحهم، تمشيا مع أدب الرسالة النبوية التي تحكم على الظاهر وتحتفظ بالعلم في أمور الباطن. لقد عرفهم بسيماهم في لحن القول، والتخلف عن الجهاد، ونشر البلبلة والإشاعة، وموالات المشركين. هذه الصفات لو طبقناها على كثير منهم، لاستطعنا اكتشافهم عن آخرهم وبسهولة يقل لها نظير، فكثير ممن سموا بعدها صحابة، كانوا متخلفين عن الجهاد، وموالين للمشركين ويلحنون في القول.
ومبغضين لعلي بن أبي طالب (ع) الذي قال فيه الرسول (ص) كما تقدم " لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق "!.

---

[٥٤] ٩٧ – التوبة.

[٥٥] ١٠١ – التوبة.

[٥٦] ١٠١ التوبة.

الشيخان ومشكلة النفاق

كثيرا ما افتقد المحققون الجرأة في تناول هذا الموضوع رغم ما يقفون عليه من وثائق دامغة تثير الشك في الأذهان.

هل كان هناك ما يجمع بين بني أمية والخلفاء أو الشيخين بشكل خاص؟.

هذا السؤال حيرني كثيرا. وكنت أعتقد بأني برعا في هذه الحيرة المملة. لكن فاجأني أن عثرت عمن يشاركني هذه الحيرة، من دون أن يغمس فيها كل دلاءه.

كان ذلك هو الأستاذ المحترم محمود أبو رية، عندما تسأل فئ طيبة خاطر، وحسن نية، في كتابه " أبو هريرة " عن طبيعة هذه العلاقة وسوف أذكر نصه هنا:

" مما يدعو إلى الملاحظة هنا إننا لم نجد عمر رضي الله عنه إنه قد اتبع هذه السنة مع معاوية بن أبي سفيان، فقد أبقاه عاملا على دمشق سنين طويلة ولم يزعجه بالعزل كغيره - وكان ذلك مما أعان معاوية على طغيانه، وإن يحكم حكما قيصريا طوال أيامه، وبخاصة بعد أن استولى على الشام كله في عهد عثمان، ثم امتد هذا الطغيان الأموي إلى ما بعد معاوية حتى تسلم العباسيون الحكم. وأمر آخر يستوجب الملاحظة، ذلك أن عمر لم يكن هو الذي ولى معاوية على دمشق وإنما الذي ولاه هو أخوه يزيد بن أبي سفيان.

ذلك أنه لما فتحت دمشق في عهد عمر أمر عليها يزيد بن أبي سفيان. ولما احتضر يزيد، استعمل أخاه معاوية مكانه من غير أن يستشير عمر على ذلك ".

ثم ينهي قوله: ″ فهل جعل عمر دمشق من نصيب بني أمية فأمر عليها في أول الأمر يزيد بن أبي سفيان ثم رضي بأن يعهد يزيد هذا بالإمارة إلى أخيه معاوية بغير أن يرفع في ذلك إليه؟ وهل فعل عمر ذلك ليتألف بني أمية وليتقي كيدهم ومكرهم، وهم قوم أهل شر ومكر وكيد؟ أم أن هناك أسبابا أخرى دعت إلى ذلك!.

هذا ما لا علم لنا به! وإنما الذي يعلمه هو علام الغيوب ″ [٥٧].

وليس فيما أحدسه من موقف الأستاذ الجليل، سوى تخوفا من الخوض في مثل هذه الموضوعات إذ يصعب على أستاذنا الجليل موضعة عمر بن الخطاب والبحث في أحواله. فهو أحد العمالقة الذين جعل منهم تاريخ العامة، الذات المتعالية التي تند عن التحليل والنقد.

ولقد سبق أن أكدنا في كتاب ″ الإنتقال ″ على ذلك لإظهار ما في الأمر من تناسب. لقد ذكرنا ما قام به عمر بن الخطاب من تأمير بني أمية على أصقاع واسعة، واعتبرت ذلك بمثابة حالة من السطحية السياسية ″ لأن بني أمية لم يكونوا مكتوفي الأيادي بعد أن كانوا طويلبيها في زمن البعثة. وليس بنو أمية عناصر ساذجة، وإنما هم جهاز وحالة قابلة للنشوء في كل لحظة، فتأميرهم لا يعني سوى صب مزيد من النفوذ في جعبتهم، ولقد قووا في زمن عمر بن الخطاب ″ [٥٨].

ولكني أحببت استدراك ما كنت ذكرته هناك، لأن المسألة ظهر لي فيها مزيدا من الوضوح.

لقد قلت بأن عمر ″ كان يحاسب الأمويين حسابا عسيرا، لكنه في نفس الوقت يؤمرهم على أصقاع وسيعة ″ والواقع، إنه لم يكن يحاسبهم حسابا عسيرا على الإمارة وإنما كان يفعل ذلك معهم في قضايا صغيرة مثل ذلك الذي تقدم. يقول الزمخشري في ربيع الأبرار: ″ وكانت إمارة معاوية عشرين سنة ولاه عمر بن الخطاب الشام، وحاسب عماله إلا معاوية ″.

---

[٥٧] أبو هريرة / محمود أبو رية ص ٨٧

[٥٨] الإنتقال الصعب / ص ١٦٣ / المؤلف.

وهذا رد على ما سبق مني، لأنني حتى تلك اللحظة، كان لا يزال يخامرني ما خامر الأستاذ أبا رية من قبل من تردد بهذا الشأن. وهو في نفس الوقت رد عليه، لما ادعاه من أن عمر بن الخطاب لم يولي معاوية مباشرة على الشام كما سنوضحه. والآن وقد حصحص الحق، وانكشف الستار. كيف كانت العلاقة وما هي خلفياتها الحقيقية؟.

لقد واجه تيار الاغتصاب بعد أن تقلد زمام الأمور كتلتين:

الأولى: كتلة بني هاشم.

والثانية: كتلة التيار الأموي.

فما أن غاب الرسول (ص) حتى نهض بن الخطاب إلى السقيفة يطرح رفيقه على رؤوس الصحابة.

وبعدها عمل على إكراه من كان معتصما ببيت فاطمة بنت الرسول (ص) بعد أن هم بحرق بيتها. وما كان أيضا من أمره في منع فاطمة إرث أبيها حتى ماتت وهي غاضبة عليه وعلى رفيقه أبي بكر. إلى ما هناك من أمثلة سوف نتطرق إليها فيما بعد.

إن هذه العداوة كانت تشكل خطرا على عمر. وهو لا يزال وزيرا لأبي بكر.

كيف يكون له الأمر بعد أن استتب لهما الأمر في السقيفة، على نحو فلتة قال عنها عمر نفسه:

" وقانا الله شرها ".

ومن جانب آخر، تبين بأن التيار الأموي الذي يمثل امتدادا للشرك في الجزيرة العربية كان هو أيضا له نفوذ داخل المجتمع، وحضور قوي.

وأدرك الشيخان أن دخولهما في صراع مع التيار الأموي سوف يثير عليهما مشاكل خطيرة. وهما من يعلم مدى نفوذ هذا الفصيل في المجتمع، وقد سمعا أبا سفيان يقول بعدها: ا أما لو شئت لأملأنها خيلا ورجالا " [٥٩] وقال: " أما والله

---

[٥٩] تاريخ الطبري (٤٤٩/٢)

لئن بقيت لأرفعن من أعقابهما " [٦٠].

ومما يدل على قوة الفصيل الهاشمي والفصيل الأموي. واهتمام الشيخان بهما كعدوين لخلافتهما. ما ذكره البلاذري في الأنساب، قال أبو قحافة عندما بلغه نبأ وفاة الرسول (ص) وهو بمكة: " فمن ولي أمر الناس بعده، قالوا له:

ابنك، فقال أرضي بذلك بنو هاشم وبنو عبد شمس وبنو المغيرة؟.

قالوا: نعم، قال: فإنه لا مانع لما أعطى الله ".

ولقد أحس الشيخان بخطورة هذا الفصيل، وخشيا أن يتم تضامن بين الفصيلين بنو هاشم وبنو أمية للعمومة التي بينهما. خصوصا بعد أن سمعوا من أبي سفيان ما سمعوه من بيعته لعلي وتحريضه لبني هاشم، واستئذانهم في نصرتهم. وإنه في هذه الفترة لم يكن يقل أبو سفيان عن نفسه وعشيرته بني أمية، وإنما كان يقول " إنما هي بني عبد مناف ".

ليستدرج بذلك بني هاشم إلى القاعدة العشائرية، أنا وابن عمي على الغريب!.

ذكر بن عبد ربه " توفي رسول الله (ص) وأبو سفيان غائب في مسعاه، أخرجه فيها رسول الله (ص) فلما انصرف لقي رجلا في بعض طريقه مقبلا من المدينة.

فقال له: مات محمد؟.

قال: نعم.

قال: فمن قام مقامه.

قال: أبو بكر.

قال أبو سفيان: فماذا فعل المستضعفان علي والعباس.

قال: جالسين.

قال: أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن من أعقابهما، ثم قال:

---

[٦٠] العقد الفريد (٢٥٧/٤)

إني أرى غبرة لا يطفيها إلا دم " [61].

ومن هنا، وخوفا من أن يتم اللقاء والتحالف بين الفصيلين على مواجهة الشيخين، حاول عمر اللعب بكل الأوراق وأن يبادر هو إلى التحالف مع بني أمية من أجل محاصرة بني هاشم. فلذلك عمل فورا على تفويت الإمارة إليهم. ويذكر الطبري في تاريخه، إنه لما استخلف أبو بكر، قال أبو سفيان ما لنا ولأبي فصيل، إنما هي بنو عبد مناف، فقيل له إنه قد ولي ابنك قال: وصلته رحم.

وجاء في تاريخ بن خلدون:

" ثم جاء عمر فرمى بهم الروم، وأرغب قريشا في النفير إلى الشام، فكان معظمهم هنالك، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة، فولى مكانه أخاه معاوية وأمره عثمان من بعد عمر، فاتصلت رياستهم على قريش في الإسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا ينسى عهدها أيام شغل بني هاشم بأمر النبوة " [62].

كما ذكر المسعودي: " ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مشيع له " [63].

لقد امتدت جسور الخلفاء مع شريحة النفاق... تداخل يوضح مدى تناغم المؤامرة في منعرجاتها كلها بشكل يثير الشك ويوقع في الاستفهام.

وبذلك أسدل الستار على المنافقين، وانتهى الحديث عنهم. وتلك أهم خدمة قدمها الخلفاء لبني أمية الذين كانوا يضيقون ضرعا ويجدون ضغنا لما يروجه المسلمون فيما بينهم من أمر المنافقين! كانوا يتوخون العمل في السر. والعمل على استغفال المسلمين.

من هنا بدأت عملية مد الجسور مع مختلف المنافقين، من أجل دعم مكاسبهم. وفي مقابل ذلك السكوت عن إثارة قضيتهم في المجتمع.

---

[61] العقد الفريد (٢٥٧/٤) وتاريخ الطبري (٢٠٩/٣) و شرح النهج (٤٤/٢)

[62] تاريخ بن خلدون ص ٤ ج ٣.

[63] مروج الذهب ٣٠٩ ج ٢

لقد غضب الرسول (ص) وهو على فراش الموت، وكان الحزن يعتصر قلبه الشريف طيلة الأيام التي سبقت وفاته (ص) فهو مرة قد يرى رؤية يكتشف منها محنة أهل البيت (ع) واغتصاب الخلافة من أهلها، لقد رأى (ص) بني الحكم يوما ينزلون على منبره فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات وأنزل الله في ذلك: ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**﴾ [٦٤] .

لقد أدرك المسلمون منذ البداية، أهمية العداوة بين الإسلام وبني أمية، وكانوا أشد حذرا منهم. ولكن الخلفاء ما فتؤوا يسخون عليهم بالإمارات. ولعمري، إن معاوية لم يكن له من الشأن في بلاد الشام، ولا تلك الشوكة لولا ما مكن له فيه عمر بن الخطاب.

إن معاوية الذي كان مطعونا في دينه - حسب بن أبي الحديد - والذي لم يسلم إلا بعد الفتح خوفا من القتل. يؤمره عمر على الشام، ولم يزحزحه عنها منذ ذلك الوقت.

فهل كان ذلك تأليفا من عمر بن الخطاب لقلوب المنافقين. حتى نعود إلى طرح نفس السؤال السابق؟ إذن، كان أحرى وأجدر أن يؤلف بن الخطاب قلب فاطمة (حاشاها) في حق أبيها.. ويؤلف قلوب الصحابة الكبار بنفس السخاء. ولكان أولى له فأولى أن يؤلف قلب سعد بن عبادة الخزرجي (رض) بدل التآمر على قتله!.

بالإضافة إلى هذين الفصيلين. هناك فصيل غير منظم. مثلته عناصر متفرقة، تحكمها النزعة الفردية، والروح الانتهازية. هؤلاء لم يكن لهم تأثير كبير على المشروع النبوي. نظرا لكونهم غير استراتيجيين. وهم عموم الطلقاء من غير بني أمية أولئك الذين ارتبطوا بمعاوية وغيره طمعا في المناصب والأموال، كعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وسمرة بن جندب.

وعليه سوف نسمي هؤلاء الأصناف كالتالي:

تيار النفاق، وهو التيار الذي يجمع كل الفصائل التي حاربت التوحيد، أو

[٦٤] القرطبي للتفسير / ج ١٥ ص ١٨٦.

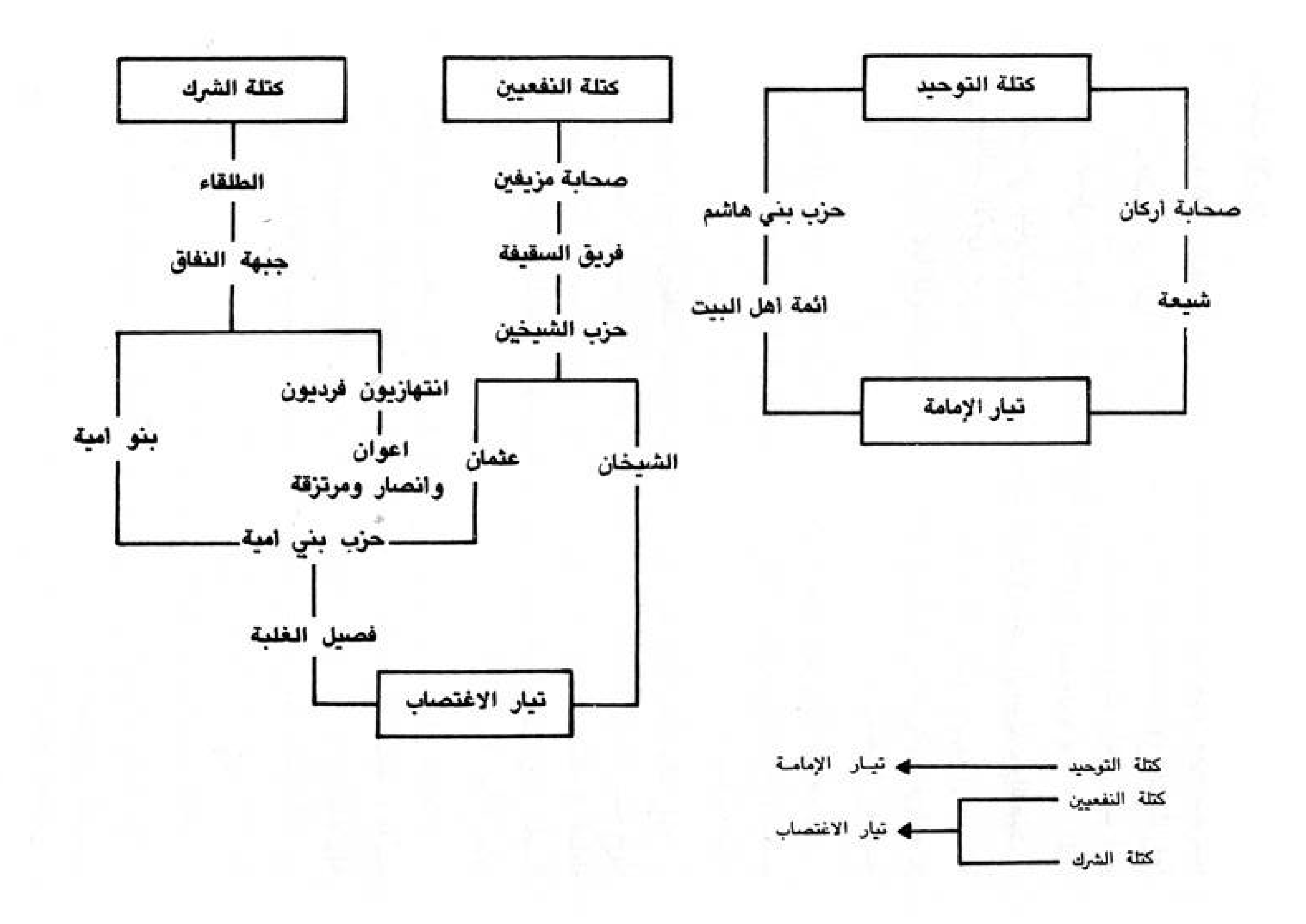
دخلت الإسلام بحثا عن أهداف غير التوحيد. وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - فرقة السقيفة.

٢ - فصيل بني أمية.

٣ - فصيل الانتهازيين، ومنهم أعوان الخلفاء.

تلك هي التيارات التي تشكلت منها حركة النفاق في عصر الرسول. وانقضت على مقاليد الأمور من بعده.


كتلة التوحيد
صحابة أركان
شيعة
حزب بني هاشم
ائمة أهل البيت
تيار الإمامة
كتلة النفعيين
صحابة مزيفين
فريق السقيفة
حزب الشيخين
الشيخان
عثمان
كتلة الشرك
الطلقاء
جبهة النفاق
انتهازيون فرديون
اعوان
وانصار ومرتزقة
بنو امية
حزب بني امية
فصيل الغلبة
تيار الاغتصاب
كتلة التوحيد
تيار الإمامة
كتلة النفعيين
كتلة الشرك
تيار الاغتصاب

٥٢

الباب الأول

الخلفاء الراشدون ...
حبكة مفتعلة!

الفصل الأول

الاصطلاح والمفهوم

تنطوي عبارة الخلفاء الراشدون على معنيين اثنين. أحدهما لغوي، والثاني، اصطلاحي.

أما لغويا، فإن عبارة: " الخلفاء الراشدون ": إذا فككنا تركيبها، ونظرنا لغويا في المفردتين المكونتين لها، نجد ما يلي:

خلفاء، خليفة من الخلافة.. وهي لغة تعني النيابة.. وخليفة الرجل، من يقوم مقامه.. وفي القرآن. ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء** ﴾[٦٥].

﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب** ﴾[٦٦].

﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾[٦٧].

﴿ **ثم جعلناكم خلائق في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** ﴾[٦٨].

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[٦٩].

---

[٦٥] ١٣٣ الأنعام.

[٦٦] ١٦٩ الأعراف.

[٦٧] ٦٩ الأعراف.

[٦٨] ١٤ يونس.

[٦٩] ٣٠ البقرة.

﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ [٧٠].

أما لفظة " الراشدون " جمع راشد. صفة للنضج والحلم والعقل.

أما في المصطلح فإن الخلفاء جمع خليفة مشتقة عن مصدر خلافة.. وهي النيابة، والقيام مقام الرسول (ص) بعد وفاته، وتمثل كل مهماته كحمل الناس على الطاعات وتنفيذ حكم الشريعة.

والخلفاء الراشدون هم جماعة تلي الأمر بعد الرسول (ص) ويكون هديها من صميم هدي الرسول (ص).

في الاصطلاح الذي تواضع عليه العامة فيما بعد، أصبحت كلمة " الخلفاء الراشدون " تطلق على أشخاص معينين. هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وقد طال الأمد على العامة إلى أن قسى قلبها وتحجر على هذا الاصطلاح، رغم ما يعتريه من تعسف على الواقع التاريخي، ومفاد النص، اللذين تتأكد من خلالهما الخلفية السياسية لهذا الاصطلاح.

فتاريخيا لم يكن اسم خليفة متداولا في عصر الرسول (ص) بمعناه الاصطلاحي إلا في شخص علي (ع) وذلك للأدلة التي ذكرناها آنفا، كحديث يوم الدار[٧١].

وكان أبو بكر قد سمى نفسه " خليفة رسول الله وكتب بذلك إلى الأطراف " [٧٢].

فكان يكتب من خليفة رسول الله، وكان عمر يكتب: " من خليفة خليفة رسول الله ".

وكان قبل ذلك يقال له: " خليفة خليفة رسول الله، فعدلوا عن تلك العبارة لطولها " [٧٣].

وكان أبو بكر في البداية يتحرج من الجهر بها، ويضطرب من أمرها. فقد جاء

---

[٧٠] ٢٤ سورة البقرة.

[٧١] تفسير الطبري / ج ١٩ ص ٧٤.

[٧٢] الصواعق المحرقة / ص ٩٠

[٧٣] تاريخ السيوطي ١٣٧

في لسان العرب عن ابن الأثير إن أعرابيا جاء أبا بكر وقال له: أنت خليفة رسول الله؟.

فقال: لا.

فقال: فما أنت؟.

قال: أنا الخالفة بعده.

قال ابن الأثير، الخالفة: الذي لا غناء ولا خير فيه. وإنما قال ذلك تواضعا.

ولست أدري على أي وجه اعتبرها ابن الأثير كذلك. وهل من التواضع أن يصف الإنسان نفسه بالحمق والنفاق وهو في مقام الخلافة. وذلك هو ما ذهب إليه العسكري في الأوائل من معنى " خالف " إذ يقول: " وأما الخلافة بالفتح فالحمق وقلة الخير، رجل خالف، وفي القرآن الكريم: ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين**﴾ [٧٤].

قال أبو زيد: " يعني من لا خير فيه من المنافقين [٧٥] ".

وكان المفهوم اللغوي لكلمة خلافة هو الجاري به العمل أيام الشيخين، لما تقدم من تسمية عمر لنفسه خليفة خليفة رسول الله، وتركها لاستثقالهم طولها.

ولو أنها كانت تعني المفهوم الاصطلاحي، لكان سمي أبو بكر إماما، وأميرا للمؤمنين نظرا لتداخل معاني هذه الكلمات في الاعتبار الشرعي والاصطلاحي. فكلمة إمام وأمير المؤمنين لم تكن متداولة اصطلاحيا إلا في شخص علي (ع) سواء في زمن الرسول (ص) أو بعده كما تقدم ويعزز ذلك ما أكده المؤرخون من أن أول من سمى، نفسه أمير المؤمنين من الخلفاء بعد وفاة الرسول (ص) هو عمر بن الخطاب. وكان عدي بن حاتم أول من سماه بها حسب المسعودي، وأول من سلم عليه بها، المغيرة بن شعبة. وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر، أبو موسى الأشعري. فلما قرأها على عمر قال: " إني لعبد الله وإني لعمر وإني لأمير

---

[٧٤] ٨٣ / سورة التوبة.

[٧٥] الأوائل : ١٠٠

المؤمنين، والحمد لله رب العالمين [٧٦] ″.

وذكر العسكري في أوائله: ″ إن أبا بكر كان يكتب من خليفة رسول الله حتى كتب عمر إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين يسألهما عن العراق وأهله، فبعث لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم، فقدما المدينة ودخلا المسجد، فوجدا عمرو بن العاص فقالا: أستأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال: أنتما والله أصبتما اسمه فدخل على عمر، فقال.

السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال: ما بدا لكم في هذا لتخرجن مما دخلت فيه فأخبره، وقال: أنت الأمير ونحن المؤمنون، فجرى الكتاب بذلك من يومئذ في كلام هذا معناه ″.

وكان من الصعب جدا على فريق السقيفة أن يفوز بهذا اللقب من دون أن يجد حرجا كبيرا.

إذ سبق أن قر في وجدان المسلمين إن الخلافة أمر يقرره النص، لأنها ملازمة للإمارة التي سبق أن أوضحنا رأي الرسول (ص) فيها منذ البداية عندما عرض نفسه على بني عامر بن صعصعة قائلا: الأمر لله يجعله حيث يشاء. ولأن الخلافة ظلت من اختصاص الإمام علي (ع) لما استحقها بمؤازرته. فهي اصطلاحا كانت من اختصاصه منذ واقعة الانذار بيوم الدار. ولغن سرعان ما قست قلوب الذين لا يعلمون، فأصبحوا يستسيغونه. وكثيرا ما كان المتزلفون والمنافقون من أعوان المغتصبين، يساهمون في إطلاق هذه الألقاب مجانا على تيار الاغتصاب، وذلك من أجل تفويت ذلك الامتياز على أهله الحقيقيين.

هذا فيما يرتبط بكلمة خلافة لغويا واصطلاحيا من وجهة نظر التاريخ.

وجاء في أحاديث العامة ما يؤسس لادعاء جديد في أمر الخلفاء الأربعة بعد الرسول (ص) وهو ما أسماه الحديث ″ الخلفاء الراشدون ″ معتبرين لفظة ″ الراشدين ″ بمثابة ضميمة تخصص الأربعة، وتضعهم في المرتبة التشريعية. وذلك وفق ما جاء في الحديث:

---

[٧٦] مروج الذهب (٣١٦/٢)

" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد "[٧٧].

واعتاد أهل السنة والجماعة أن يعينوا الخلفاء الأربعة، كتخصيص لهذا الحديث، وهو ما ذكره صاحب الموافقات عن النبي (ص) " إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعلي ":

وقبل الشروع في الرد على هذا الادعاء. أرى من الأولى إثارة نقطة حساسة في هذا المقام. فما ثبت عن الرسول (ص) من طريق آخر، إنه حدد معنى الخلفاء من بعده، وجعل صفتهم رواية الحديث والسنة. قال " اللهم ارحم خلفائي.

اللهم ارحم خلفائي. اللهم ارحم خلفائي. قيل له: يا رسول الله، من خلفاءك؟.

قال: " الذين يأتون بعدي يروون حديثي وسنتي ".

فهذا التحديد يعرف بصفة خلفاء الرسول (ص) الذين يعملون على نشر سنته. ويستفاد من ذلك أن سنتهم واحدة بهذا الاعتبار الذي تحدده وحدة المصدر، ووحدة الاتجاه في سنتهم جميعا، باعتبارها واقعة في خط سنة الرسول (ص) فلننظر كيف كان موقف الخلفاء ما عدا علي (ع) من السنة والحديث.

جاء في تذكرة الحفاظ، إنه بعد وفاة النبي (ص) جمع أبو بكر الناس، وخطب فيهم قائلا:

" إنكم تحدثون عن رسول الله (ص) أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدثوا عن رسول الله (ص) شيئا، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه ".

وكان هذا الإجراء تعسفيا لمنع الرواية ومحاصرة السنة. والإبقاء على القرآن، لكونه حمال ذو وجوه، يسهل عليهم التلبيس والتضليل. ولا عليك من دفاع أهل

---

[٧٧] سنن بن ماجة ص ١٦ ج ١

التبرير من خوف أبي بكر على كتاب الله. وهو الذي منع فاطمة من إرث أبيها لحديث انفرد به.

وهو " لا نورث ما تركنا " وقد احتجت عليه فاطمة بالقرآن. وأبى عليها ذلك، عندما قالت له: ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ [٧٨] وإني ﴿ **خفت الموالي من ورائي، وكانت امرأتي عاقرا، فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث آل يعقوب** ﴾ [٧٩].

فلو كان كما قال: قولوا بيننا كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه، لما رفض نصا قرآنيا، وتمسك لحديث انفرد به يخالف صريح القرآن.

ومن سيرتهم أيضا في تطويق السنة النبوية، ما ذكر ابن ماجة في السنن، إن قرظة بن كعب قال:

" بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة وشيعنا فمشى معنا إلى موضع صرار.

فقال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا لحق صحبة رسول الله، ولحق الأنصار. قال: لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لممشاي معكم. أنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل. فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا:

أصحاب محمد! فأقلوا الرواية عن رسول الله (ص) ثم أنا شريككم ".

وبلغ من الخوف الشديد من رواية الحديث، أن بعضهم انقطع تماما عن الرواية لما ذكره السائب بن يزيد قال: " صحبت سور بن مالك من المدينة إلى مكة، فما سمعته يحدث عن النبي (ص) بحديث واحد " [٨٠].

وبلغ أيضا بهم أن منعوا كبار الصحابة عن رواية الحديث خوفا من أن تشيع بعض حقائقه، فجمع عمر الرواة وأقامهم عنده حتى يتمكن من الرد عليهم.

كيف لا وهو الذي ألف الرد على الرسول (ص) لقد ذكر عبد الرحمن بن عوف

---

[٧٨] ١٦ / سورة النمل.

[٧٩] ٩ / سورة مريم.

[٨٠] سنن بن ماجة / ج ١ ص ١٢.

قائلا: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق عبد الله بن حذيفة وأبا الدرداء وأبا ذر وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق.

قالوا: تنهانا؟.

قال: لا، أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشت " [٨١].

أما في عهد عثمان فالأمر أشد وأنكر.. إذ قال على المنبر:

" لا يحل لأحد يروي حديثا لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر ".

كان ذلك باختصار هو موقفهم من الحديث والسنة.. فأين حالهم من حال حديث رسول الله (ص) عن خلفائه الراشدين الراوين لأحاديثه الناشرين لسنته، فتأمل يرحمك الله!.

وهناك قرينة أخرى تصرف هذا العنوان عن الخلفاء الأربعة بهذا الترتيب. وهو ما نقله أهل الصحاح من أن الخلفاء الذين أوصى بهم الرسول (ص) باقتفاء آثارهم.. والذين ربط خير الأمة بإمامتهم. كانوا أكثر من أربعة. لقد ذكر عليه الصلاة والسلام، اثنا عشر منهم بعدد نقباء بني إسرائيل. وتواتر ذلك على النحو التالي:

قال رسول الله (ص) " لا يزال أمر الناس ماضيا، ما وليهم أثنا عشر خليفة، كلهم من قريش [٨٢].

وقال (ص) " لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم اثنا عشر خليفة، كلهم من تريش " [٨٣] ويتبين من خلال هذه الأحاديث أن عدد الخلفاء اثنا عشر. بينما مدعى الجمهور هو أربعة. ولعل هذا التناقض هو ما دعى جمعا من العلماء إلى تأويله بشكل يجعل الحديث ينطبق على أكثر من الخلفاء الأربعة

---

[٨١] كنز العمال حديث (٢٣٩/٥ح٤٨٦٦٥).

[٨٢] ينابيع المودة (٣٠٧و٣٠٨). فرائد السمطين (١٤٨/٢).

[٨٣] صحيح مسلم (١٠٠/٤ح١٨٢١) و (١٨٢٢/١٠١) . و الصواعق المحرقة (١٨٩) و البخاري (٢٦٤٠/٦ ح ٦٧٩٦) .

وذلك ما رامه بن كثير وابن حجر الهيثمي. إذ اعتبروا الخلفاء الثلاثة وعلي ومعاوية ويزيد ثم عبد الملك وأولاده الأربعة وسليمان، فيزيد، فهشام. والوليد بن يزيد بن عبد الملك. وهذا لعمري هو التكلف. إذ، هب إننا صدقنا قولهم وادعاءهم. فهل يزيد بن معاوية هو ممن صلح أمر المسلمين في عهده. هل قتل الحسين (ع) كما جرى في زمن خلافته، هو من صلاح أمور المسلمين. أم معاوية الذي جعل المنابر تنشغل بلعن علي (ع) أم الوليد الذي سكر حتى راح يمزق كتاب الله ويرشقه بالنبل قائلا: أتهددني بجبار عنيد، فها أنذا جبار عنيد.

أفيستقيم هذا التأويل الفاسد مع ما وصف به الرسول (ص) خلفاؤه الاثنا عشر.

وقد حاول البعض أن يدس بعض الأسماء. كالذي وضعته البكرية. كما جاء في الصواعق المحرقة بإخراج البغوي، بسند حسن، عن عبد الله بن عمر قال:

سمعت رسول الله (ص) يقول: " يكون خلفي اثنا عشر خليفة، أبو بكر لا يلبث إلا قليلا " قال بن حجر في الصواعق، قال الأئمة: صدر هذا الحديث مجمع على صحته. ويكفي في هذا المقام شهادة الناصبي من أن حديث " الاثنا عشر "، مجمع على صحته، وإن كان الاجماع فقط على صدره الأول. أي أن الكلام عن أبي بكر هو من وضع الوضاعين.

ثم إن الحديث - حديث الخلفاء الراشدين - ربط خير الأمة بهم. وهذا مناقض لواقع الخلفاء. فوفاة الرسول (ص) أعقبتها أحداث خطيرة ضد المسلمين وتعاليم الإسلام.

وقد علمنا ما جرى في سقيفة بني ساعدة من مشادات كلامية وما رافقها من تجرؤات على مفاهيم الإسلام ومقدساته من قبل الشيخين كالعزم على قتل علي (ع) وحرق دار فاطمة الزهراء (ع) ومنع تدوين السنة، وحرق المصاحف وما رافقها من أحداث في صفوف القراء. وما شهده عصر عثمان من مفاسد بسبب سوء تدبيره ومخالفته لمبادئ الإسلام مما أدى إلى اضطرابات خطيرة انتهت بمقتله على يد ثوار من الصحابة.

كل هذا يناقض ادعاء الحديث الذي يربط بين خير الأمة وصلاح الحكم ورشد

خلفائه.

ومن جانب آخر، ذكر الحديث أن خلفاءه مهديين. ومفاده أن خلفاءه بلغوا من التمسك بالسنة خدا باتوا فيه مهديين جميعا. وواقع الخلفاء يثبت عكس ذلك. فليس من الهدي أن يغتصب أبو بكر الخلافة ويستضعف الصحابة كما سبق ذكره. ولو كان مهديا في سلوكه هو وفاروقه، لما اعترف هذا الأخير قائلا: أنها فلتة وقانا الله شرها.

فلو كان كلهم مهديا لما طعن بعضهم في بعض.

إن مقتضى حديث الرسول (مر) إن صح هي مطابقة سنة الراشدين لسنته (ص) مطابقة لا تخالف الشرع في شئ. ولو أن الخلفاء أو من فهم ذلك من أمرهم أدركوا إنهم مهديين جميعا وأن سنة واحدهم كثانيهم فثالثهم. إذا لما جعلوها شرطا لعلي (ع) عند استخلاف عمر بن الخطاب للستة من أصحابه، عندما عرضوا عليه الخلافة على أساس شرط اتباع سنة الرسول (ص) وسيرة الشيخين. فأبى إلا سنة الرسول (ص). وقد رفضوا على الإمام علي (ع) تمسكه بسنة الرسول (ص) وحدها. فهذا إن دل فإنما يدل على أن سنة الشيخين كانت تعني شيئا زائدا على سنة رسول الله. يؤكد ذلك شهادة الإمام علي (ع) وهي شهادة راشدي معاصر لهم.

وقد كان عمر بن الخطاب قد خلف وراءه ستة. منهم طلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد. وكان من المحتمل أن يكون أحدهم هو الرابع دون علي أو عثمان. وكان من المحتمل أن لا يكون علي أو عثمان. ويكون طلحة أو سعيد.

فهل هذا بداء في اعتبار الخلفاء الراشدين هم الأربعة المذكورين أم ماذا؟! ولو كان عمر بن الخطاب يعرف أن الراشدين هم هؤلاء الأربعة، إذن لما أزبد شدقاه يوم السقيفة في خبط الناس وإجبارهم على البيعة، ولما ترك الأمر بين الستة، وأخلى الأمر إلى العدد وترتيب حديث الراشدين؟!.

ومما يدل على فقر هذه الرواية في اعتبار المدعى منها، إنها لم تكن على ذات الانتشار والقوة في عهد الرسول (ص) إذ لو أنها كانت كذلك، لما لجأ عمر بن الخطاب إلى غيرها من الشعارات المقوية لجناحه في تنصيب أبي بكر خلفا

للرسول (ص). ولو كانت على نفس الوضوح لما حدث صراع بين المسلمين ولا بين الخلفاء الراشدين أنفسهم.

لقد رفض علي (ع) بيعة أبي بكر وعمر وعثمان. ولو كان يعرف أن ذلك الحديث منصرف فهمه إلى ذلك، لما خالفه " ولما كان عمر اعتبر خلافة أبي بكر فلتة توجب القتل.

إن هذه القرائن جميعها تدل بما لا يدع مجالا للشك، بأن المروجين لهذه الادعاءات كانوا على اتصال باللعبة السياسية للخلفاء. وجاءوا بعد انتهاء العهد الراشدي بكثير.

وعليه فإن مدعى العامة في ذلك مردود لكون المغزى من ذلك مشروط بخير الأمة وعدم تصارعها وعدم تضارب سنتهم لما كان البناء العقلائي يستبعد تضارب سنة الراشدين. ولأن هذه الخلافة كما تقدم متعلقة بأهل البيت، وأنها اثنا عشر.

وبعد أن تبيين لنا الاضطراب الشديد الذي لف ما ادعوه من أن الراشدية تنطبق على الأربعة. وبأن ذلك تعسف ثقيل على مغزى الحديث ومدعى أضيق من معناه. يجدر بنا التعرف على المغزى الحقيقي له بما ينطبق مع واقع الخلافة.

في البدء، لا بد من الاتفاق على أن الخلافة أمر خاضع للجعل الشرعي.

وخارج عن نطاق الاختيار. وعلى هذا الأساس، فإن الخلافة تبقى خارج نطاق العصبية والغلبة. وإلا أصبح معيار الإمامة هو الغلبة والعصبية. كما فهمها الكثير من السلف.

وهو حال ابن عمر. فقد روى عنه " أنه كان في زمن الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله " [٨٤].

وذكر صاحب الطبقات أيضا عن سيف المازني " كان ابن عمر يقول: لا أقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غلب " [٨٥].

---

[٨٤] طبقات بن سعد ٤ / ١٤٩.

[٨٥] طبقات بن سعد ٤ / ١٤٩.

إن الخلافة كالإمامة شأن ديني، نابع من صميم الفرد وإمكانياته الذاتية، سواء أمارس الخلافة وتحققت له الغلبة أم لا. إنها شأن يقاس بالنبوة في معنى الاختصاص، من حيث أن النبوة ما دامت إنها اختيار مولوي لا شأن للبشر فيه، فهي تثبت مع الغلبة ودونها. فالنبي (ص) لا يلغي نبوته افتقاره للعصبية والغلبة فهو نبي سواء احتضنه قومه أو رفضوه. والإمامة على ذلك النحو أمر لا يلغيه افتقاد العصبة.

وهذا ما يفهم من روح الشريعة، ومن كلام الرسول (ص) في شأن الحسنين (ع):

(الحسن والحسين إمامان ح قاما أو قعدا)

إن الذي جعل بعض علماء العامة يحاولون المستحيل في تأويل حديث الراشدين. لجعله منسجما مع واقع الخلفاء الفعليين. كان بسبب اعتقادهم بالمعيار ″ العصباني ″ حسب تعبير بن خلدون.

وعليه، فإن معنى الراشدية ينصرف إلى أوصياء أهل البيت (ع) لما اشتملت عليه سيرتهم من قرائن تعزز المدعى. ولما ثبت لدينا من توافق سيرتهم مع مواصفات الخلفاء الراشدين المقصودين في معنى الحديث السابق.

والسؤال: على أي الأئمة ينصرف معنى حديث الراشدية؟.

هناك أكثر من قرينة تجعل - كما أسلفنا - المعنى ينصرف إلى أئمة أهل البيت الموصى بهم.

وأهم تلك القرائن: العلم، الهداية، العدد.

وسوف نعمل على توضيح هذه القرائن بمزيد من التفصيل والوضوح ليتبين للقارئ العزيز إن كل تلك القرائن دالة على انصراف معنى الحديث إليهم. وأن جل تلك القرائن لا يتوفر عليها تيار الاغتصاب. الذي لم يكن في مستوى مضمون الحديث بل المعنى الذي تعارفت عليه العامة فيما بعد العصر الأموي كان إسقاطا متعسفا وطرحا مفتعلا.

١ - العلم:

العلم شرط من شروط الإمامة. لأن القيادة تتوقف على معرفة الحكم الشرعي وعلى عمق المعرفة العلمية التي تمكن من تيسير أحوال الرعية والبت فيها. ولم ينفصل العلم كشرط ضروري عن الإمامة إلا عندما تحولت هذه الأخيرة إلى خلافة دنيوية تقوم على العصبة وتقررها الغلبة.

وقد رأينا وسوف نرى أيضا. إن ميزة العلم لم تكن من نصيب تيار الاغتصاب.

وربط الرسول (ص) العلم هنا برواية السنة وبث الحديث. وليس المقصود من ذلك أن الالمام بالحديث وروايته يأخذ ذلك المفهوم الجامد الذي تعقل فيه الأحاديث عقل رواية لا عقل دراية.

بل المقصود هذا الأخير. أي حفظ السنة ورواية الحديث بما تتضمنه العملية من تفعيل لهذه الأحاديث وإخراجها من التكلس عبر التأويل الشرعي، الذي تعرض فيه هذه السنة على النص القرآني لينظر فيها. وينسخ متشابهها بتوضيح معناها، أي القدرة على تحريك النص وفهمه فهما ديناميكيا. وهذا ما لا يعلمه إلا الراسخون في العلم من الأئمة ومن ورث علمهم. وعلى هذا الأساس كانت رواية الحديث المذكورة مقرونة بمعرفة القرآن. ذلك أن الرسول (ص) ذكر أن الكذابة ستكثر من بعده. فمن وجد حديثا يناقض كتاب الله، فليضرب به عرض الحائط. وهذا يقتضي معرفة عرض الحديث على القرآن. أي أن ثمة تداخل بين سنة الرسول (ص) ونص القرآن الكريم.

ولهذا ذكر الرسول (ص) أن عليا (ع) سوف يقاتل على التأويل مثلما قاتل الرسول (ص) على التنزيل. وسبق أن عرفنا أن أبا بكر وعمر وعثمان لم يكونوا على علم بالقرآن، وكانوا من المحاربين لانتشار سنة الرسول (ص).

فمعروف عن أبي بكر أنه لم يعرف كيف يعرض حديثه المزعوم " الأنبياء لا يورثون " على نص القرآن:

﴿**وورث سليمان داوود**﴾ ليتبين له فيما لو كان هذا النص منسجم مع القرآن أم لا.

ويمكننا فهم تلك الملابسات فيما جرى بين علي وأبي بكر، حسب ما أخرجه ابن

سعد في الطبقات [٨٦]. جاءت فاطمة إلى أبي بكر تطلب ميراثها، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه، وجاء معهما علي، فقال أبو بكر: قال رسول الله (ص) لا نورث، ما تركناه صدقة، وما كان النبي يعول فعلي، فقال علي: ورث سليمان داود، وقال زكريا، يرثني ويرث من آل يعقوب؟ قال أبو بكر: هو هكذا، وأنت والله تعلم مثل ما أعلم، فقال علي:

" هذا كتاب الله ينطق " الحديث.

واشتهر عنه جهله للقرآن كقوله في الكلالة: " أقول فيها برأي فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني "[٨٧] وكجهله ميراث الجدة، إذ ثبت عنه أنه قال لجدة سألته عن إرثها لا أجد لك شيئا في كتاب الله وسنة نبيه (ص) فأخبره المغيرة ومحمد بن سلمه بأن الرسول (ص) أعطاها السدس وقالوا اطعموا الجدات السدس وقطع يسار السارق [٨٨].

أما عمر بن الخطاب فحدث ولا حرج.. فقد بلغ من جهله بالأحكام حدا يستنكره الصبيان، كيف وهو القائل بنفسه، كل الناس أفقه منك يا عمر. حتى ربات الحجال.

لقد سبق أن ذكرنا موقفه من موت الرسول (ص) وأنه شهد على نفسه أنه لم يسمع آية من القرآن ولا يعلم أن الموت حق وأن كل نفس ذائقة الموت. حتى قرأت عليه الآية ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ وحسبك من ذلك جهله آيات من القرآن فقد سألوه عن قوله تعالى: " فاكهة وأبا " فقال: نهينا عن التعمق والتكلف [٨٩] ".

وأنه أمر برجم حامل، وكذا مجنونة [٩٠].

وقد اشتهر بتلونه في الأحكام. وقيل " إنه كان يتلون في الأحكام حتى رووا أنه

---

[٨٦] طبقات بن سعد ٢ / ٣١٥.

[٨٧] شرح النهج لابن أبي الحديد - السيوطي ص ٧١.

[٨٨] شرح النهج /ج ص ٢١ / ٢٥.

[٨٩] مستدرك الحاكم ٢ ص ٥١٤ - الشاطبي / الموافقات ج ا ص ٢١ / ٢٥.

[٩٠] مستدرك ص ٥٩ ج ٢.

قضى في الجدة بسبعين قضية [91]".

أما عثمان، فإنه أضاف إلى جهله بالأحكام، استهزاءه بالشريعة، وعدم التزامه بقوانينها.

وقد ثبت أن عليا (ع) يومها هو الوحيد الذي كان يحكم بالجزم، ويقول: اسألوني قبل أن تفقدوني [92]".

وكان أعلم بكتاب الله، لا يرد من سأله ولا ينهر من قصد استفساره.. وهو القائل:

" سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل نزلت أم في جبل " [93].

ولم يثبت في التاريخ أن عليا (ع) أو أحدا من الأئمة رجع إلى رجل آخر لأخذ العلم عنه. بل كانوا هم منارات الهدى. والمورد الذي ينهل منه الناس العلم في مختلف الأزمنة التي عاصروها.

ونحن سبق أن عرفنا الشرط الذي جعله الرسول (ص) صفة وقرينة على خلفاءه، وهو العلم المتجلي في روايتهم الحديث ونشرهم السنة وهداية الناس. فرواية الحديث بذاك اللحاظ، والإلمام بالقرآن وتأويله. كان علما مختصا بالأئمة. ودعنا هنا نسرد بعضا من تلكم الأدلة التي تثبت أعلمية الإمام علي (ع) وأئمة أهل البيت (ع) عموما من خلال النص وشهادة الواقع للوقوف عند قيمتهم في ميزان خالقهم وفي حساب رسول الإنسانية.

---

[91] كنز العمال (٥٨/١١) و السنن الكبرى (٢٤٥/٦) و شرح النهج (١٨١/١)

[92] ينابيع المودة (٦٥/١) و تهذيب التهذيب (٣٣٨) و فتح الباري (٤٨٥/٨) و تذكرة السبط (٢٥) و فرائد السمطين (٣٤١/١) و مناقب الخوارزمي (٩١) .

[93] ينابيع المودة (٦٨) .

أهل البيت والأعلمية !

١ – قال رسول الله: ″ أنا مدينة العلم وعلي بابها ″ [٩٤].

٢ – ″ يا علي أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي ″ [٩٥].

٣ – ″ علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ″ [٩٦].

٤ – ″ من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه.، وإلى نوح في فهمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في هيبته، وإلى عيسى في زهده، فلينظر إلى علي بن أبي طالب ″ [٩٧].

٥ – ″ أقضاكم علي ″ [٩٨].

وقال عن نفسه: ″ سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله عز وجل، فما من آية إلا وأعلم حيث نزلت بحضيض جبل أو سهل أرض، سلوني عن

---

[٩٤] مستدرك (١٢٤/٣) .و (٢٢/٤) و الصواعق المحرقة (٧٣) و تهذيب التهذيب (٢٢٠٣/٦).

[٩٥] المستدرك (١٢٢/٣).

[٩٦] المستدرك (١٢٤/٣) و ينابيع المودة (١٠٣/١) و مناقب الخوارزمي (١٠٧) و كفاية الطالب (٢٥٣) و تاريخ الخلفاء للسيوطي (١٧٣) و مجمع الزوائد (١٣٧/٣).

[٩٧] المستدرك (١٢٤/٣) و ينابيع المودة (٨٨) .

[٩٨] الصواعق المحرقة (١٢٣).

الفتن، فما فتنة إلا وقد علمت كبشها، ومن يقتل فيها " [99].

وقال: " علمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم، في كل باب ألف باب " [100]

واشتهر عنه رجوع الصحابة إليه وكذلك الخلفاء فيما عجزوا عن إدراكه من أمر الشريعة. ولهم في ذلك شهادات، كما قال عمر بن الخطاب: " لولا علي لهلك عمر " [101].

وذكر أحمد بن حنبل في مسنده: " لم يكن أحد من أصحاب النبي يقول: سلوني إلا علي بن أبي طالب " [102].

وكذلك حال الأئمة من أهل البيت (ع) كانوا على تلك الدرجة من النبوغ. شهد لهم بذلك أشد خصومهم. وقد ثبت في شأنهم من النصوص ما يعزز أعلميتهم. وحسبك أن الرسول (ص) جعلهم إلى جنب القرآن. في حديث الثقلين، إذ قال (ص):

" إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " [103].

وبقوا منارات مشعة وقلل شامخة.

لقد ذكر بعض أعلام العامة ما جاء في حق الأئمة من بعد علي (ع) مثل الذي ذكره صاحب الصواعق المحرقة: قال رسول الله (ص) لجابر: " أنت تدرك ولدي محمد الباقر، إنه يبقر العلم بقرا، فإذا رأيته، فاقرأه عني السلام " [104].

وذلك كلام منسوب إلى الإمام الباقر (ع) وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي (ع) الإمام الخامس سمي الباقر، لبقره العلم كما تقدم.

---

[99] شرح النهج (٢٣٥/٢)

[100] فرائد السمطين (١٠١/١) . و ينابيع المودة (٨٣/١)

[101] مناقب الخوارزمي (٤٨) . و الأربعين للرازي (٤٦٦)

[102] الصواقع المحرقة (٤٨) . و الرياض النضرة (١٩٨/٢)

[103] مسلم (١٢٢/٥) . و مسند أحمد (١٧/٣) و الترمذي (٣٢٨/٥)

[104] الصواعق المحرقة (ص ٢٠١)

أما الإمام الصادق (ع) فهو ممن اشتهر اسمه رغما عن أنف أعداءه من النواصب والخلفاء وذكره الجميع بفضائل يقل لها نظير. وامتدحه جمع غفير من العلماء الذين اختلفوا إليه طلبا للعلم. لقد قال فيه مالك: " جعفر بن محمد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال، إما مصل، وإما صائم وإما يقرأ القرآن، وما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علما وعبادة وورعا "[١٠٥].

وقال عنه الجاحظ: " جعفر بن محمد، الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب "[١٠٦].

وقال عنه بن حجر في الصواعق: " جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك والسفيانين وأبو حنيفة وشعبة وأيوب السجستاني ".

وذكره بن خلكان في وفياته على هذا الشكل: " أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين أحد الأئمة الاثنا عشر على مذهب الإمامية وكان من سادات آل البيت، ولقب بالصادق لصدقه وفضله أشهر من أن يذكر ".

هذا وكثير منه مما فاضت به كتب العامة وقد تبين أنهم لا يذكرون في هذا المقام إلا بما يشير إلى أعلميتهم. فإذا كان دؤوبهم على العلم مما اشتهر في التاريخ وأن جهل الخلفاء بأبسط الأحكام مما اعترف به أتباعهم. فعلام يتم هذا التفضيل وهذا الأخيار المتعسف.

هذه باختصار أولى القرائن التي تصرف معنى حديث الراشدية عن الخلفاء. وتثبت انسجامه مع أئمة أهل البيت (ع) وتقويض ذلك الطرح المفتعل، الذي يجعل الخلافة فيمن لم يرو الحديث ولا يعلم الكتاب إلا أماني!.

[١٠٥] التوسل والوسيلة ٥٢. تهذيب التهذيب ص ١٠٤ ج ٢.

[١٠٦] رسائل الجاحظ – السندوبي ص ١٠٦.

ولمزيد من الإيضاح يجدر بنا الإشارة إلى مدى ارتباط سنة الأئمة من أهل البيت (ع) بسنة الرسول (ص) وبصريح القرآن وذلك بتزكية من شهادة الرسول (ص) في حديث الثقلين المتقدم وما دام إنهم كذلك، فدعنا نرى وجهة نظرهم في قضية الأحكام.

" سأل رجل أبا عبد الله الإمام الصادق عن مسألة فأجابه فيها فقال الرجل: أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له: صه، ما أجبتك فيه من شئ فهو عن رسول الله لسنا من (أرأيت) في شئ "[١٠٧].

وقال (ع): بينة من ربنا بينها لنبيه (ص) فبينها نبيه لنا فلولا ذلك كنا كهؤلاء الناس[١٠٨].

وقال أيضا: " إنا لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين ولكنها آثار من رسول الله أصل علم نتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز الناس ذهبهم وفضتهم[١٠٩] ".

أقول: أين ذلك من تجرء الخلفاء على أحكام الله فهذا أبو بكر يأمر بحرق الفجاءة، ولا يقود خالد بن الوليد بمالك بن نويرة، ويمنع إرث فاطمة (ع) وذاك فاروقه، الرسول (ص) يقر بشرعية التمتع في الحج والزواج، و الفاروق يخالفه، ويأتي بما تشتهيه ذائقته من أحكام تخالف سنة الرسول (ص) ونص القرآن وهكذا يتبين أي الفريقين أقرب إلى سنة الرسول (ص)، وألصق بكتابه. وإذا كان الاختلاف بين الراشدين الأربعة المزعومين، كاختلاف اليهود عن النصارى فإن الانسجام في سنة أئمة أهل البيت الاثني عشر كان مما أخرس السنة النواصب وحير دهاقنتهم ولا يحصل الانسجام إلا مع سنة موحدة المصدر ومعينة النبع وتلك شهادة من رسول الله (ص) يوم أوصى بالتمسك بالثقلين وهو ما شهد به واقعهم.

٢- الهداية

[١٠٧] الكافي (١١٢/١).

[١٠٨] بصائر الدرجات(٢٨٥).

[١٠٩] بصائر الدرجات(٢٨٤).

جاءت الهداية كقرينة على الخلفاء الراشدين الذين قيل في حقهم: " المهديين من بعدي ".

والواقع التاريخي للخلفاء المزعومين يخالف منطوق الحديث، بل ويناقضه من أساسه.

فالملاك من جعل الإمامة ضرورة، ولطفا. هو من هذه الحيثية أي توفير الهداية اللازمة التي يترتب عليها إقامة الحجة على الخلائق. والحجة لا تقوم على هداية ناقصة، أو على هداية محتملة. والخلفاء المفتعلون لم يكونوا في حجم ذاك الملاك. ليكونوا أئمة حقيقيين.

لقد كانوا في أكثر من حال يضلون الأمة ويبعدونها عن العلم الحقيقي بل ويهددون ويجلدون الناس إذا أتوهم مستفسرين عما يفيدهم في معرفة أحكام الله. وضبط تكاليفهم الشرعية.

فهناك غياب كامل لعنصر الهداية من سلوك وتوجيهات الخلفاء المزعومين، لأنهم كما تقدم - لم يكونوا علماء - فالهداية تقوم على العلم. فأعلم الناس كانوا هم أئمة أهل البيت (ع) وهم تبعا لذلك أهدى عباد الله.

والهداية كما يظهر منها. لها أساس تقوم عليه، وغاية توصى إليها. فأما، الأساس فهو العلم كما سبق القول. إذ أن الهداية للإرشاد إلى الحق. ولن ينال الإنسان رشده إلى الحق، حتى يكتشفه. والكشف عن الحق هو العلم فلا هدي بلا علم وفاقد العلم لا يهدي. ﴿**أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى ما لكم كيف تحكمون**﴾.

أما الغاية من ذلك فهو إقامة الحجة على الخلائق بما يشد ظهر المكلف ومعلوم حسب مباني الأصول، أن الحجة يترتب عليها المنجزية والمعذرية.

فإذا لم يكن الهدى مما يترتب عليه عذر المكلف، وتكليفه لن يكون ذلك الهدي حجة. وغاية القول أن المكلف بالمعذرية له الحق في أن يحتج على المشرع، في كونه نقد ما أمر به. فلا يحاسب على تركه، ولا على ما سكت عنه لما في الأمر من قبح عقلي لوقوعه في مسألة قبح العقاب بلا بيان كما يترتب عليه الحساب

والعقاب في حالة رفضه أو عدم خضوعه لذلك التكليف. وعليه، فإن غير الأئمة (ع) لم يكونوا مشرعين ولا هداة بل كانوا مكلفين فقط. وذاك هو حال من بايعهم. فهناك من الصحابة من كان يخالف الخلفاء، ولا يعتبر كلامهم حجة كما هو الشأن في زواج المتعة، عندما قبلوا الشهادة ورفضوا التحريم. وإذا قال القائل فعلوا مثل ذلك مع الأئمة قلنا إنهم أيضا فعلوه مع الرسول (ص) ووجه المفارقة هناك إن فعله مع الرسول (ص) والأئمة (ع) موجب للعقاب لمكان المنجزية ومقام التكليف.

فسعد بن عبادة لم يرتكب ذنبا بخروجه عن أبي بكر. بل إنه مثاب إذا ثبت أنه توخى منها صرف الإمامة إلى أهلها غير أن ابن عمر مثلا هو ممن خالف التكليف بخروجه عن علي (ع) والحسين (ع). فأساس الحجة هو إثبات المنجزية والمعذرية.

وعليها لم يكن أحد يرسل الكلام على الوجه المنجز غير الأئمة من أهل البيت (ع).

وحسبك من صرف معنى الراشدية عن الخلفاء المغتصبين، أفهم كانوا يرجعون في مشكلاتهم إلى الأئمة (ع) والحاجة هنا تنفي عنهم الهداية لأنهم فاقدين لها فمن ذلك أن يقول أبو بكر عن نفسه (أنا الخالفة) - كما تقدم - وهو ما لا يفيد الهداية وقوله:

" إن لي شيطان يعتريني، فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني [110] ".

وهو هنا يقر حاجته إلى هداية الآخرين فكيف تقوم الحجة على الناس بإمام فاقد للهداية وأي ضمان أن يكون قوله واقعا في اللحظة التي يعتريه فيها شيطانه.

وقوله أقيلوني فلست بخيركم [111].

وقول عمر عنه " كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقى الله المسلمين شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه " [112].

---

[110] الصواعق المحرقة ص ٧ / الإمامة والسياسة، / ج ١ ص ٢ / شرح النهج ج ٢ ص ٨

[111] الإمامة والسياسة، (١ / ١٤) و شرح النهج (٥٨/١) و الأنساب (٥٩٠/١و٥٩١).

[112] الصواعق المحرقة (١٠) و الملل و النحل (٧) و تاريخ الطبري (٢٠٥/٣) و الكامل (٣٢٧/٢) و شرح النهج (٢٣/٢) و البداية و النهاية (٢٤٥/٥) و النهاية لأبن الأثير (٤٦٧/٣) و تاج العروس (٥٦٨/١) و الانساب (٥٨٤و٥٩١) و قد قال أبوبكر عن بيعته أنها فلته كما في الأنساب (٥٩٠/١)

فكل هذه تدل على أن الحجة ليست من شأن الخلفاء وفرقة السقيفة.

في مقابل ذلك يبقى أئمة أهل البيت (ع) هم المنارات الوحيدة للهداية فإذا كان أبو بكر وعمر وعثمان يصرفون المسائل عن التكاليف الشرعية ويصدونه أو يضلونه في الحكم فإن عليا (ع) كان يقول: اسألوني قبل أن تفقدوني وحتى قال عمر: لولا علي لهلك عمر.

وإليكم الآن ما يدل على صفة الهداية في أشخاص أهل البيت (ع) تاركين للقارئ فرصة الاستقراء الحر:

١ - روى أحمد بن موسى بن مردويه، عن عائشة: أن رسول الله (ص) قال ″ الحق مع علي وعلي مع الحق لن يفترقا حتى يردا علي الحوض [١١٣] ″.

٢ - قال الرسول (ص) ″ رحم الله عليا، اللهم أدر الحق معه حيث دار [١١٤] ″.

٣ - يا عمار، إن طاعة علي من طاعتي وطاعتي من طاعة الله تعالى ″ [١١٥].

٤ - عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله (ص) ″ إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي:

الثقلين، وأحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض [١١٦] ″.

---

[١١٣] تاريخ البغداد (٣٢١/١٤) و الإمامة والسياسة (٧٨/١) وفرائد السمطين (١٧٧/١) فريب منه . و مناقب ابن المغازلي (١١٧و٢٤٤) و المستدرك (١١٩/٣و١٢٤)

[١١٤] الترمذي (٦٣٣/٥)

[١١٥] اسد الغابة (٢٨٧/٥) و ينابيع المودة (١٢٨)

[١١٦] مناقب الخوارزمي (١٥٤) و المستدرك (١٠٩/٣و١٤٨) و ينابيع المودة (٣٢/١) و مجمع الزوائد (١٦٥/٩) و مسلم (٢٦/٥و٢٧) و مسند أحمد (١٧/٣و٢٦و٥٩و١٦٧١٤) و كفاية الطالب (٢٥٩) و مصابيح السنة (١٨٥/٤و١٨٩) و الصواعق (١٢٦ و ١٥٠)

٥ - روى الزمخشري عن الرسول ص: " فاطمة مهجة قلبي وابناها ثمرة فؤادي وبعلها نور بصري والأئمة من ولدها أمناء ربي، وحبل ممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى [١١٧] ".

٦ - قال (ص) " من أراد أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة [١١٨] ".

٧ - قوله (ص): " فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم " [١١٩] ".

٨ - قوله (ص): " مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " [١٢٠] ".

٩ - قوله (ص): " في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين " [١٢١] .

١٠- قوله (ص): " أنا المنذر وعلي الهاد وبك يا علي يهتدي المهتدون من بعدي" [١٢٢] .

١١ - قوله (ص): " أنا وهذا - يعني عليا - حجة على أمتي يوم القيامة" [١٢٣] .

---

[١١٧] فرائد السمطين (٦٦/٢) و مقتل الحسين (٥٩/١)

[١١٨] كنز العمال (٦١١/١١)

[١١٩] الصواعق المحرقة (١٥٠)

[١٢٠] الصواعق المحرقة (١٨٦) و فرائد السبطين (٢٤٢/٢) و الخصائص الكبري للسيوطي (٤٦٦/٢) و المستدرك (٣٤٣/٢) و ينابيع المودة (٣٠/١) و مناقب المغازلي (١٣٢) و كفاية الطالب (٣٧٩) و عيون الأخبار (٢١١/١) وحلية الأولياء (٣٠٦/٤) و ميزان الأعتدال (٤٨٢/١)

[١٢١] الصواعق المحرقة (١٥٠)

[١٢٢] تفسير الرازي (١٤/١٩) و لسان الميزان (١٩٩/٢) و كفاية الطالب (٢٣٣) و شواهد التنزيل (٢٩٣/١-٣٠٣) و فرائد السمطين (١٤٨/١)

[١٢٣] مناقب ابن المغازلي (٤٥و١٩٧) و تاريخ بغداد (٨٨/٢) و ذخائر العقبي (٧٧) و كنز العمال (٦٢٠/١١)

هذا غيض من فيض مما رزحت به أسفار العامة على ما فعلوه من منع الرواية عن أئمة أهل البيت (ع) ناهيك عما وضح في مرويات أهل البيت وأتباعهم كلها تثبت بصريح العبارة حجية أهل البيت (ع) على الناس مما يثبت لهم صفة الهداية وهي من لوازم الراشدية التي نحن بصدد الحديث عن مفهومها فأين الخلفاء المزعومين من هذا العبق المنعش وأين هم من هذه الرياض النضرة وأي صهوة بقيت لركوب مجدهم فلا يدعي ذلك بعد أئمة البيت الهاشمي إلا كاذب. دعهم في غيهم يعمهون!.

٣ - العدد

ذكرنا آنفا، أن منطوق حديث الراشدين أوسع من المدعى فالخلفاء المفتعلون لا ينسجمون عددا مع عدد الخلفاء المذكورين في أحاديث الرسول (ص) الذين هم اثنا عشر من قريش.

ولم يدع ذلك إلا الأئمة من أهل البيت (ع).

وإذا تبين سابقا أن الأئمة والخلفاء هم اثنا عشر دعنا نرى هل ذلك ينطبق على الاثني عشر من أهل البيت المتعارف عليهم عند شيعتهم؟.

إن مجرد ادعاء الاثني عشرية في غياب أي مدع لها، دليل على أن مقصود الرواية منصرف إلى المدعي. وأن مجرد ادعاء أهل البيت (ع) لها كاف للاعتراف بها لأنه ليس ثمة حي هو أشرف وأنبل في قريش منها. إن إطلاق قريش في الحديث لا وجه يعضده، إذ في قريش من هو من صناديد الشرك. وفيهم من غير طهارة المولد. ولا أحد يشك في أن بني هاشم هي من أشرف بطون قريش وأشهرها في خدمة الدين. وقد عززهم القرآن بقوله تعالى: ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ فإذا اجتمعت طهارة المولد ورفعة الشرف مع صفة العلم والهداية. كان من العقل ترجيح الأفضل على المفضول، ولا ينعكس ذلك لما فيه من مناقضة لمباني العقلاء وصريح النصوص.

هذا فيما لو ثبت أن الرسول (ص) قد أطلق لفظة قريش وإلا فإن بعض الطرق التي روي بها حديث الاثني عشر يشتم منها عنصر التدليس والتلبيس. إذ هناك من لمح ببني هاشم والرواية في صحيح البخاري من طريق جابر بن سمرة هي قوله:

سمعت رسول الله (ص) يقول: يكونوا اثنا عشر أميرا، فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي: كلهم من قريش فالكلمة التي لم يسمعها هي على طريقة والثالثة لم أسمعها. وهي مما اعتاد عليه المحدثون والرواة في التلبيس.

يقول صاحب ينابيع المودة: " قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (ص) اثنا عشر، قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرح الزمان، وتعرف الكون والمكان، علم أن مراد رسول الله (ص) من حديثه هذا: الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه، لقلتهم عن اثني عشر (وهم أربعة) ولا يمكن أن يحمله على ملوك الأموية، لزيادتهم على اثني عشر (وهو ثلاثة عشر)، ولظلمهم الفاحش، إلا عمر بن عبد العزيز ولكونهم غير بني هاشم، لأن النبي (ص) قال " كلهم من بي هاشم " في رواية عن عبد الملك [١٢٤] ".

ونجد في نهج البلاغة شرحا مبينا لمعنى الأئمة من قريش، يقول الإمام علي (ع):

" إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم ولا يصلح الولاة من غيرهم ".

وروى الحمويني الشافعي في فرائد السمطين، عن بن عباس قال رسول الله:

" أنا سيد النبيين وعلي بن أبي طالب سيد الوصيين وأن أوصيائي بعدي اثنا عشر، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المهدي ".

وهكذا تدل القرائن على أن إطلاق حديث الخلفاء الراشدين على الأربعة لا وجه له وأن أهل البيت هم المرشحون لهذا الوصف لما دلت عليه آثارهم والنصوص المستفيضة من حولهم فيحق لنا بعدها اعتبار الخلفاء الراشدين المزعومين مجرد ادعاء مفتعل لا دليل عليه من النصوص ولا من التاريخ ولا من العقل.

---

[١٢٤] ينابيع المودة. (١٠٥/٣)

الخلفاء ما داموا مارسوا الخلافة

في عرضنا ودراستنا الخلفية التاريخية لتيار الاغتصاب وفرقة السقيفة على وجه الخصوص، تبين لنا ذلك التعسف المهول الذي سار عليه العامة والتشوه الكبير الذي لف نظرية الإمامة عندهم وما دام قد مارس هذا التيار الخلافة بمنظور الغلبة وما دام أنه من جانب آخر ينتمي إلى فرقة الصحابة لمعاصرتهم الرسالة فإنه واجب علينا في هذه الرحلة الدراساتية أن نتعرض لواقع الخلافة كما مارسها هذا التيار فنجعل ذلك شقا أوليا للبحث ثم نثني بشق آخر يتعلق بموقع هذا التيار من الصحبة مع التطرق إلى هذا الموضوع بمزيد من الايضاح.

تيار الاغتصاب والخلافة

من الأمور التي تعارف عليها بعض أهل السنة كون الخلافة خاضعة لمفهوم الشورى وإنها ما دامت شأنا دنيويا فإنها تبقى حقا للناس يتواضعونه فيما بينهم على الخليفة الجديد الذي يجتمع عليه اختيارهم ولأن واقع حال الخلافة كما مارسها هذا التيار كانت خاضعة لأكثر من معيار إذ تارة تثبت بالوصية وطورا بما يشبه الاستخلاف كان هناك اضطراب كبير يلف نظرية الخلافة عندهم.

إن الواقع التاريخي أوضح بأن الشورى في مقام الخلافة أول ما كانت في عهد عمر بن الخطاب. إذ زعم أنه تارك الأمر في حدود الستة الذين تستشير الأمة في شأنهم. ولم تكن قضية الشورى تقليدا متعارفا عليه في العهد الأول للخلافة.

وذلك ما يبدو من ظاهر نصوص الخلفاء أنفسهم واعترافهم بذلك الاضطراب.

وحتى لا نخرج عن إطار السقيفة، لا بد أن نلقي نظرة عن الأسلوب الذي تم فيه الاختيار.

إن ما نتج من صراعات ومشادات عنيفة في السقيفة، كان دليلا كافيا على أن الخلافة اتخذت مجرى معاكسا لقضية الشورى، ذلك بأن جمعا غفيرا من الصحابة امتنعوا عن البيعة. فمنهم من بقي على تلك الحالة حتى قتل. كسعد بن عبادة الخزرجي (رض) ومنهم من تأخر حتى أجبر عليها بالسيف وقيد إليها بالعنف. وتبين بعد ذلك كيف أن فترة خلافة أبي بكر التي لم تتجاوز مدتها سنتين. كيف عرفت قلائل كثيرة واهتزازات عنيفة كان أهمها وأخطرها تمرد القبائل العربية وامتناع الكثير عن إعطاء الزكاة تعبيرا منها عن رفض خلافة أبي بكر. وذلك فيما أسموه بحرب الردة.

لقد انطلق أبو بكر وعمر على حين غفلة ممن كانوا في انشغال بتجهيز رسول الله (ص) وانطلقوا إلى السقيفة ليواجهوا باقي التيارات الأخرى. فمنطق الشورى يقتضي وجود سلطة عليا سابقة، ليتحاكم إليها الجميع في الأمر. أما أن يفرض تيار معين نفسه مسؤولا عن تنظيم الشورى، فهذا أمر يناقض أساسيات الشورى، وعلى ذلك المبنى يتبين مدى " الدور " الذي سقط فيه الأمر، إذ لا بد من جهة عليا تتحدد سلفا عن طريق النص.

ويذكر براء بن عازب [١٢٥] " لم أزل لبني هاشم محبا، فلما قبض رسول الله (ص) خفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العجول مع ما في نفسي من الحزن، لوفاة رسول الله (ص) فكنت أتردد إلى بني هاشم، وهم عند النبي (ص) في الحجرة، وأتفقد وجوه قريش فإني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر وإذا قائل يقول القوم في سقيفة بني ساعدة.

وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر، فلم ألبث وإذا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالازر

---

[١٢٥] شرح النهج ص ٧٣.

الصنعانية لا يمرون بأحد إلا خبطوه وقدموه فمدوا يده، فمسحوها على يد أبي بكر، يبايعه شاء ذلك أو أبى.

فهل رأيت عزيزي القارئ كيف أن البيعة اتجهت صوب الغلبة وأن جمعا لم يروا أبا بكر وعمر حتى رجعوا إليهم بالقرار النهائي لا ليطرحوا الأمر أمامهم ليتشاوروا فيه ويأخذوا رأي من منعه الاهتمام بتجهيز رسول الله من حضور السقيفة بل جاءوا بالأمر محمولا على السيوف " لا يمرون بأحد إلا خبطوه وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر ".

إمعانا منهم في كسب البيعة بالإجبار ليتم الأمر ويبايع بالعنف " شاء ذلك أو أبى "[١٢٦].

وهذا هو ما دفع عمر نفسه إلى القول بأن بيعة أبي بكر فلتة وقاهم الله شرها، وهي إن دلت على شئ فإنما تدل على عدم شرعية هذه البيعة.

ولا بد هنا من تقويض ما ذهب إليه الذاهبون في شأن ما كان شورى بين المسلمين. لنعرض رأي أحد كبار المعارضين لخلافة أبي بكر والذي بايع كرها.

وهو الإمام علي (ع)، لنتعرف على وجهة نظره عليه السلام فيما ادعوه من أمر الشورى:

فعندما بويع أبو بكر في السقيفة وجددت له البيعة يوم الثلاثاء خرج علي فقال:

" أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع لنا حقا ".

فقال أبو بكر: بلى ولكنني خشيت الفتنة[١٢٧].

وجاء في نهج البلاغة كلام للإمام علي (ع) فيه رد على مزعومة الشورى بمنطق واضح وجلي.

لما انتهت إلى أمير المؤمنين أنباء السقيفة بعد وفاة الرسول (ص) قال:

---

[١٢٦] نفس المصدر.

[١٢٧] مروج الذهب (٣٠٧/٢)

ما قالت الأنصار؟.

قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير.

قال: فهلا احتججتم عليهم بوصية الرسول (ص) بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟.

قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟.

فقال: بلى لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم!.

ثم قال: فماذا قالت قريش؟.

قالوا: قالت نحن شجرة الرسول (ص).

قال: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة[١٢٨] .

ثم قال:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم   فكيف هذا والمشيرون غيب

وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم   فغيرك أولى بالنبي وأقرب

وجاء في نهج البلاغة أيضا قوله:

" أرى تراثي نهبا حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده، ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها   ويوم حيان أخي جابر

فيا عجبا! بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطرا ضرعيها ".

لقد تبين أن الخلافة في السقيفة وما بعدها كانت تقوم على منطق الاجبار، لا منطق الشورى. وعلى أساس الاغتصاب لا على أساس الشرعية. تجلى ذلك العنف في البداية في إجبار الإمام علي (ع) والذين معه على البيعة، وفي السقيفة تجلى في موقفهم من بعض الأنصار. ولهذا كانت هناك جماعة من الصحابة الكبار الذين نالهم التهديد والضرب لرفضهم البيعة. وكانوا ضحايا لها.

---

[١٢٨] شرح النهج (٣/٦) .

السقيفة والمعارضة

بعد إتمام دفن الرسول (ص) اعتزل قوم من الصحابة ورفضوا بيعة أبي بكر وطرحوا عليا (ع) خليفة فتحصنوا ببيت فاطمة الزهراء (ع) وبقوا على ذلك الحال حتى اقتحم عليهم جمع كبير بقيادة عمر الدار. وعزموا على حرقها. فأجبروهم على البيعة.

يقول اليعقوبي: " وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب وأبي بن كعب. فأرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، والمغيرة ابن شعبة، فقال: ما الرأي؟ ".

وذكر البلاذري إن أبا بكر بعث عمر بن الخطاب إلى علي (ع) حين قعد عن بيعته وقال: إئتني به بأعنف العنف فلما أتاه جرى بينهما كلام فقال: " إحلب حلبا لك شطره والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غدا [١٢٩] ".

وذكر بن عبد ربه " أقبل عمر بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيتهم فاطمة فقالت يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم أو تدخلوا

[١٢٩] الأنساب(١ / ٥٨٧). شرح النهج (١١/٦) .

فيما دخلت فيه الأمة ″[١٣٠].

ولا يهمنا هنا ما دار من كلام بين فاطمة (ع) وابن الخطاب. ولا بين المتحصنين ومقتحمي الدار. ما نريد التأكيد عليه هنا، هو أسماء المعارضين الكبار للسقيفة، ورأيهم في الخلافة. والآن إليك ما جاء في كلام المعارضة:

١ - الإمام علي (ع)

″ أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير، فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا وطفقت ارتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طغية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهبا حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب

بعده ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها   ويوم حيان أخي جابر

فيا عجبا بينا يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته. لشد ما تشطرا ضرعيها ″ [١٣١].

٢- العباس بن عبد المطلب (رض)

إن الله بعث محمدا كما وصفت نبيا وللمؤمنين فمن الله به على أمته حتى اختار له ما عنده فخلى على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين الحق لا مائلين بزيغ الهوى فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت وإن كنت بالمؤمنين أخذت فنحن منهم. فما تقدمنا في أمرك فرطا، ولا حللنا وسطا، ولا برحنا سخطا، وإن كان هذا الأمر وجب لك بالمؤمنين، فما وجب إذ كنا كارهين. ما أبعد قولك من أنهم طعنوا عليك من قولك أنهم اختاروك ومالوا إليك، وما

---

[١٣٠] العقد الفريد (٢٥٩/٤-٢٦٠) و شرح النهج (٤٨/٦) و غيرها من الواضع و الأنساب (٥٨٦/١)

[١٣١] شرح النهج (١٦٢/١)

أبعد تسميتك خليفة رسول الله من قولك خلى على الناس أمورهم ليختاروك. فأما ما قلت، إنك تجعله لي، فإن كان حقا للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض وعلى رسلك، فإن رسول الله من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها [١٣٢] ".

٣ – الفضل بن العباس (رض)

" يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم " [١٣٣].

٤ – خالد بن سعد (رض)

" إنكم – أي بني هاشم – لطوال الشجر طيبوا الثمر نحن تبع لكم " [١٣٤].

هلم أبايعك – يقصد عليا – فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك " [١٣٥].

٥ – المقداد بن الأسود الكندي (رض)

" واعجبا لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم وفيهم أول المؤمنين " [١٣٦].

٦ – سلمان الفارسي (رض)

" أصبتم الخيرة وأخطأتم المعدن " [١٣٧].

" كرداد وناكرداد أي عملتم وما عملتم، لو بايعوا عليا لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم " [١٣٨].

٧ – أبو ذر الغفاري (رض)

---

[١٣٢] شرح النهج (٢٢١/١) و الإمامة و السياسة (٣٣/١)

[١٣٣] اليعقوبي (١٢٤/٢)

[١٣٤] شرح النهج (٥٩/٢) و اسد الغابة (٨٤/٢)

[١٣٥] شرح النهج (٣٢/٦) و اليعقوبي (١٢٦/٢)

[١٣٦] اليعقوبي (١٦٣/٢)

[١٣٧] شرح النهج (٤٩/٢)

[١٣٨] شرح النهج (٤٣/٦) و أنساب الأشراف (٥٩١/١)

" أصبتم قناعة وتركتم قرابة لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم اثنان " [139] .

" أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لو قدمتم من قدم الله وأخرتم من أخر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال ولي الله ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم على ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[140] ".

٨ - عتبة بن أبي لهب

ما كنت أحسب هذا الأمر منصرفا	عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
عن أول الناس إيمانا وسابقة	وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهدا بالنبي ومن	جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه مافيهم لايعترون به	وليس في القوم ما فيه من الحسن [141]

هذا إضافة إلى مواقف كثير من المعارضين، الذين لم يتحصنوا ببيت فاطمة (ع) والذين حصلت بينهم وأبي بكر وعمر مشادات انتهت إما بإجبارهم على البيعة وإما قتلهم كما هو حال سعد بن عبادة كما سنرى وأسماءهم حسب إجماع المؤرخين كالتالي:

* علي (ع).
* فاطمة (ع).
* العباس بن عبد المطلب.
* الفضل بن العباس.
* الزبير بن العوام.

---

[139] شرح النهج (١٣/٦)

[140] تاريخ اليعقوبي (١٧١/٢)

[141] تاريخ اليعقوبي (١٢٤/٢)

❋ طلحة بن عبيد الله.

❋ سعد بن أبي وقاص.

❋ المقداد بن الأسود.

❋ سلمان الفارسي.

❋ أبو ذر الغفاري.

❋ عمار بن ياسر.

❋ البراء بن عازب.

❋ أبان بن سعيد.

❋ أبي بن كعب.

❋ سعد بن عبادة.

❋ الحباب بن المنذر.

هذه الأسماء وردت في مصادر التاريخ الكبرى كتاريخ الأسر والملوك لجعفر الطبري، والكامل لابن الأثير وتاريخ اليعقوبي، وأسد الغابة، وتاريخ بن كثير وسيرة بن هشام.

والمطلع على سيرة هذا الفريق من الصحابة، يدرك أهمية المعارضة.

الخلفاء ما داموا صحابة

وما دام ممثلو هذا التيار قد عرفوا بالصحابة، وحتى لا تمسي هذه الميزة عائقا في فهم طبيعة الاغتصاب، ولا تتحول " الصحبة " إلى أمر يضبب الرؤية في خلفيات التحريف. كان لا بد من الوقوف عند هذا الموضوع لتبيان حقيقته، وهدم ما علق به من تداعيات أسطورية تعيق أي محاولة لفهم حقيقة وملابسات الواقعة.

لم يكن للصحبة مفهوم على عهد رسول الله (ص) بالمعنى الاصطلاحي للكلمة وكل ما في الأمر إنها تعبير لغوي عن مجموعة من الناس تختلف أهواءهم وتتنوع نزعاتهم اجتمعوا حول رسول الله (ص) وصاحبوه في رحلته كل وفق هواه ولم تكن الصحبة تعني صك غفران يعوض امتناع الصحابي عن العمل الصالح، أو تعصمه عن الارتداد.

ولعل ما يجعل الحديث عن الصحبة صعب مستصعب، لا يستحمله إلا ذووا الألباب النيرة وأصحاب الحكم المتعالية.. إن اقترن وصف الصحابة بضروب من المواقف والوقائع شكلت في ذهن الجمهور قرينة على عصمتهم. وأهم تلك القرائن إنهم حضروا بيعة الرضوان التي ذكرها القرآن ومدح أهلها، وبعضهم ذهب بعيدا حين ذكر عشرة منهم من المبشرين بالجنة، وآخرون ذكروا أن أهل بدر مغفور لهم ما تقدم وما تأخر من ذنوبهم لحديث حاطب بن أبي بلتعة، وهلم جرا.

لقد اختلف مفهوم الصحابي من جيل إلى جيل، ومن مبنى إلى آخر، ففي جيل الصحابة الأوائل لم تكن للصحبة كما ذكرنا غير ذلك المفهوم اللغوي، بينما

بدأ هذا المفهوم يتبلور في صور اصطلاحية في عصر التدوين، وفي ضوء علم الحديث الذي بدأت قضية الجرح والتعديل فيه تقف عند رواة الأخبار. وهو عصر متأخر عن جيل الصحابة. وكانت له دوافع معينة اقتضتها عمليات الجرح والتعديل. وهي تنزيه الصحابة عن كل تجريح والأخذ بعد التهم مطلقا. وسبق الأخذ بعدالتهم، كلام عن تعريفهم، بشكل يبرر مذهب المحدثين، ويضفي عليهم مسحة اصطلاحية معينة. فالصحبة كمصطلح شرعي هو من وضع المتأخرين من رجال الحديث.

كما أن مفهوم الصحبة يختلف معه مبنى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة الصحابة، ومبنى المحدثين المتأخرين. ولتوضيح ذلك، نرى من الأجدر التطرق إلى مفهوم الصحابي من هذه الزوايا المتفرقة.

تعريف الصحابي وعدالته عند المتأخرين، والرد عليهم

عرف المتأخرون الصحابي تعريفا مناقضا لروح الشريعة الإسلامية، ومنافيا للبناء العقلائي. فهم من جهة اعتبروا الصحابي هو كل من رأى الرسول (ص)، سواء أكان كبيرا أم طفلا صغيرا. بل حتى من لم يره من العمي لتعذر الرؤية عليهم. بل ويعد صحابيا من رآه الرسول (ص) ولو عن بعد، سواء جالسه أم لم يجالسه، غزا معه أو لم يغز. وعلى ذلك استقر رأي الجمهور.

يقول في ذلك بن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة:

" الصحابي من لقي النبي (ص) مؤمنا به، ومات على الإسلام فيدخل في من لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز. ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى ".

ويتبين من خلال هذا التعريف، انحراف بالمفهوم من إطاره اللغوي الظاهر إلى دائرة الاصطلاح، وهذا ما جعل بن حجر العسقلاني يقول: " إن اسم صحبة النبي (ص) مستحق لمن صحبه أقل ما يطلق على اسم صحبة لغة وإن كان العرف يخص ذلك ببعض الملازمة "[١٤٢].

---

[١٤٢] الأصابة في تمييز الصحابة

وطبيعي، إن هذا التحديد يخالفه العقلاء من حيث كونه متجاوزا للغة والعرف، ومتقوما بتواضع المتأخرين واصطلاحهم من دون قرينة تنهض بما يخالف اللغة والعرف.

وحكموا بعد إطلاق تعريفهم على عدالتهم جميعا، واعتبروا أغلاطهم غير منافيه لعدالتهم.

وبهذا انتهى بالبعض إلى اعتبار الصحبة أقوى من الإيمان وفي ذلك خروج صريح عن منطق الإسلام الذي لا يعطي صكوكا بقدر ما يحكم على الأعمال الصالحة.

ذكر صاحب الإصابة: " اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف ذلك إلا شذوذ من المبتدعة [١٤٣] ".

وذكر النووي في التقريب: " الصحابة كلهم عدول، من لابس الفتنة وغيرهم ".

ويبدو من خلال ما اتفقوا عليه، أن العدالة شئ ملازم للصحبة. بينما العدالة شأن اصطلاحي يختلف عن الصحبة. فالعدالة لها ضوابط محددة، وشرائط مسطرة. فلا لزوم بينها والصحبة. إلا من جهة التعسف الذي جرد عليه المزورون والمتحجرون. لأن تلك الملازمة لم يكن متعارف عليها في زمن الصحابة أنفسهم، وفيما أدركوه من القرآن وسنة رسول الله (ص).

فالصحابة عاشوا فترة طويلة من الصراع بعد وفاة الرسول (ص) عملوا فيها السيف على رقاب بعضهم البعض. وبيتوا لبعضهم البعض. وتقاتلوا فرقا فرقا. ولو كان للصحبة مفهوم غير لغوي أو أن العدالة كانت من لوازمها. إذن لكان هذا الرهط أولى بالالتزام بهذا الأمر. وإذا كان التجريح لا يطال، الصحابة. فكان أولى بهؤلاء أن لا يجرحوا بعضهم بعضا. ترى فهل كانت الصحبة عاصمة للصحابة من النار كما أدرك ذلك الصحابي نفسه، وهل أن الصحبة ملازمة للعدالة في رأي الصحابي نفسه؟.

---

[١٤٣] الإصابة / ١ / ٢٢١٧.

روى البخاري عن زيد بن ثابت: " لما خرج النبي (ص) إلى أحد رجع ناس من أصحابه فقالت فرقة منهم: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، نزلت الآية الكريمة: ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا** ﴾[١٤٤] .

وحكم كل من عمار وبن مسعود بالكفر على عثمان وثاروا ضده مع جمع من الصحابة " وقالت عائشة اقتلوا نعثلا - تعني عثمان - فقد كفر [١٤٥] ".

وفي ذلك قال لها ابن أم كلاب:

وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا أنه قد كفر [١٤٦]

ويوم السقيفة عندما قال أناس: إتقوا سعدا، لا تطؤوه: قال عمر: اقتلوه، قتله الله.

وإذا تبين أن الصحابة لم يكونوا يفهمون الصحبة بذاك المعنى الذي اصطلح عليه أهل الحديث المتأخرين. أدركنا إذ ذاك أنهم رجال كباقي الرجال مرهونون هم أيضا بذنوبهم، ومطالبون بالعمل الصالح، وموعودون بنار جهنم. فإذا كان هذا هو موقف الصحابي من أخيه الصحابي، ترى أي موقف كان للرسول (ص) منهم؟.

كان رسول الله (ص) يسكت عمن حوله، ويسمي كل من حوله صاحب.

وكان ذلك تساهلا منه وتأدبا. وكانت كلمة صحابي تقال في مواقع مختلفة. فتارة يذكرها في السفر وأخرى في الحضر، مرة يعني بها من صاحبه في الطريق. وأحيانا يقولها عمن صاحبه في قضيته. وأخرى لمن أحاط به وسمع كلامه. ولهذا سمى الذين هموا بقتله بـ" أصحابي "، يوم تبوك كما تقدم.

إن كلمة صحابي في عهد رسول الله (ص) كانت تأخذ طابعا أدبيا يشترك فيها البر والفاجر، المؤمن والمنافق. ولم تكن العدالة منحة رخيصة عند الصحابي في

---

[١٤٤] سورة النساء (آية ٨٨)

[١٤٥] تاريخ الطبري (٤٥٩/٤) و الكامل (٢٠٦/٣) و النهاية لابن الأثير (٨٠/٥) و تذكرة الخواص (٦٤و٦٦) و الفتوح (٢٤٩/٢و٢٥٥)

[١٤٦] تاريخ الطبري (٤٥٩/٤) و الكامل (٢٠٦/٣) و الفتوح (٢٤٩/٢)

عهد رسول الله (ص) بل هي أمر له صلة بعمل الإنسان، لذا قال لهم مرة:

" ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحثه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله "[١٤٧].

والقرآن يتحدث عن الصحابة بكل واقعية، ويستخدم عبارات تدل على أن الصحبة ليست ميزة في ذاتها، بقدر ما هي مرهونة بما يقدمه الصحابي من عمل صالح، يقول تعالى:

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوي على سوقه يعجب الزّرّع ليغظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾"[١٤٨].

فكلمة " منهم " تعبير عن اختصاص فئة معينة بالمغفرة والأجر العظيم. ليس ذلك لقاء تمحورهم وصحبتهم للرسول (ص) وإنما لقاء إيمانهم وعملهم الصالح.

وبمقتفى المفهوم بالمخالفة، يبقى منهم من ليسوا من أهل الإيمان ولا من أصحاب العمل الصالح. وعلى ذلك الأساس يحرمون المغفرة والأجر العظيم.

وكان هذا هو شأن أهل بيعة الرضوان الذين قال فيهم تعالى:

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾[١٤٩].

فإن تخصيص فئة منهم بالثواب أمرا اقتضاه الواقع من حالهم. إذ هناك من حضر بيعة الرضوان وهو ليس من ذاك المقام. بل هناك من عرف بالنفاق. وقد

---

[١٤٧] البخاري (١٧٣/٤)

[١٤٨] سورة الفتح (آية ٢٩)

[١٤٩] سورة الفتح (آية ١٨)

حضر بيعة الرضوان فيمن حضرها عبد الله بن أبي رأس النفاق، وأوس بن خولي. فكونهم من أهل بيعة الرضوان يستبطن مغزى عميقا، لا بد من البحث عنه وراء منطوق الآية الكريمة. فالبيعة وحدها لا تكفي للحكم على أصحابها. فعنصر الزمن الذي يعكس مدى صدق هذه البيعة من خلال استمرارية أصحابها عليها أم تراجعهم عنها. فقيمة البيعة هي في مدى الالتزام بشروطها كلها، وتنحل تلك القيمة مع خروج أصحابها عليها. وكثير ممن حضر بيعة الرضوان لم يلتزم بتلك الشروط كما سنرى.

وكان ذلك متوقفا على مدى صبره واستمرارهم عليه. وقد سمعوا ذلك من الرسول (ص) إذ قال لهم: " إني فرطكم على الحوض من مر علي شرب وشرب لم يظمأ أبدا، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم فأقول أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا لمن غير بعدي " [١٥٠].

وفي هذا النص الصحيح معنى صريح، على أن ما ذهب إليه المتأخرون من تعريف للصحابي أو عدالته، محض أوهام، - فهم هنا - (ص) يقول: يعرفونني.. ومع هذا لم يشفع لهم ذلك في النجاة من النار.

وعن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: لقيت البراء بن عازب (رض) فقلت " طوبى لك صحبت النبي (ص) وبايعته تحت الشجرة، فقال: يا ابن أخي إنك لا تدري ما أحدثنا بعده ".

وروى الحميدي في الجمع بين الصحيحين في مسند حذيفة، أنه قال: " قال النبي (ص) في أصحابي اثنا عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وأربعة لا أحفظ ما قال فيهم ".

قال (ص): " أترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " [١٥١].

---

[١٥٠] البخاري (٢٤٠٦/٥ح٦٢١٢) و مسلم (٤٧٢/٤ ج ٢٢٩١ و ٤٧٣ ح ٢٢٩٥ و ٤٧٤ ح ٢٢٩٧ و ٤٧٨ ح ٢٣٠٤)

[١٥١] البخاري (٦ح٢٥٩٣-٢٥٩٤)

هذه وأمثالها وكثير من النصوص القرآنية التي جاءت بعتاب الصحابة ولعن المنافقين منهم. وتحذير المذبذبين وتخويف المؤمنين من خطر الارتداد.

وهكذا يكون مفهوم الصحابي ليس له معنى أكثر مما يفيده لغويا وإن الصحابة مثل باقي المسلمين معرضين للارتداد وقد جاء في السيرة، إن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد أسلم وهاجر إلى المدينة وكتب الوحي للرسول (ص) وارتد في النهاية مشركا [١٥٢] .

وجاء في كتاب الله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد..**﴾ [١٥٣].

فالخطاب هنا موجه لجيل الصحابة، لأنهم أول المعنيين به.

---

[١٥٢] الاستيعاب (٩١٨) و الأصابة (١٠٩/٤)

[١٥٣] سورة المائدة (آية ٥٤)

الفصل الثاني

الخلفاء والواقع التاريخي

موقف الإمام علي (ع) مثالا

أدرك الإمام علي (ع) بعد كل ما وقع أنه قد وقع في مأزق وداخل شراك خطير فالعرب تظاهرت عليه واستضعفته وتيار الاغتصاب لم يركب الخلافة فحسب وإنما طوق بيت الإمام (ع)، وحاصره بعد أن مد جسور التعاون مع المنافقين وأدرك بعدها الإمام إنه أمام خيارين اثنين لا ثالث لهما:

- أن يجهز عليهم، فلا يبقى من تيار الاغتصاب رجلا يذكر.
- أو أن يصبر وينتظر حالما تعود الأمور إلى نصابها.

أما الخيار الأول فهو يسير على علي (ع) وهو من أرعب بسيفه العرب واهتز لشجاعته الأبطال. وتيار الاغتصاب كان مدركا لكل ذلك. غير أنهم أدركوا أن أبا الحسن لا يقاتل في أمر لا مصلحة للشرع فيه. أدركوا ذلك على مدى سنوات من الجهاد الذي كان يتزعمه علي (ع). ولذلك تجاسروا عليه وأبدوا بطولاتهم المزيفة. كان الإمام علي (ع) على علم تام بحقيقة هؤلاء الجبناء الذين ما ثبتوا في معركة، ولا نصروا الإسلام. ولكنه اختار البقاء منتظرا.

والإمام علي (ع! وهو ينتظر، لم يكن مكتوف اليدين، لم يكن انتظاره سلبيا كما يبدو للكثير.

كان علي (ع) نشيطا يعمل حسب ما تسمح به الظروف متحركا خلف الحصار المفروض عليه.

إن الذين التفوا حوله لم يكونوا على نفس الدرجة من الإخلاص. لقد كانوا على جانب من الذعر الذي أخافهم وثبة العرب عليهم. وكان علي (ع) يومها مستعدا لقلب الأوضاع بعد أن رأى الأمر في يد تيار الاغتصاب.

ويذكر اليعقوبي إنه اجتمع جماعة إلى علي بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة، فقال لهم: " اغدوا علي محلقين الرؤوس فلم يغد إلا ثلاثة نفر [١٥٤] ".

وقال علي (ع) في بداية الأمر: " لو وجدت أربعين ذووا عزم لناهضتهم ".

ولما لم يجد من هم كذلك، فضل الصبر " فرأيت الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى "[١٥٥] .

علي (ع) إمام شرعي، وأمامه عصابة من المغتصبين لشرع الله. والمفروض إذ ذاك هو النهوض بالوضع بشكل يطيح بهؤلاء مع مراعاة مصلحة الإسلام. والتقية كما يقول بعد ذلك الإمام الصادق (ع):

التقية ديني ودين آبائي. فعلي (ع) أولى بالتقية وهو يعاصر مرحلة خطيرة عليه وعلى الإسلام.

وبالمقابل فإن تيار الاغتصاب راح يعضد بعضه بعضا. ويؤسس له حلفا متماسكا. يتداولونها قهرا وغلبة. فأبو بكر عهد إلى عمر من دون مشورة وهذا الأخير عهد إلى عثمان من خلال فبركة ملتوية. وكلهم وقفوا من علي (ع) موقفا صارما.

ولا بد من أن نشير إلى أن موقفهم من الإمام لم يكن في شأن جدارته، بل كان ذلك فيما يتعلق بالجانب السياسي.

بالإضافة إلى أن كثيرا من الوقائع تشهد على ما كان من صراع حقيقي بين الثلاثة والإمام علي (ع) فالكل يحرص على إزاحة علي (ع) وهذا الأخير يعمل أيضا ما في وسعه لإقصائهم، لترتاح منهم الأمة. ويعود الأمر كما بدأ لأهله الذين يستحقونه.

---

[١٥٤] اليعقوبي (١٢٦/٢)

[١٥٥] شرح النهج (١٥١/١)

لقد اعتزل الإمام علي (ع) الخلفاء، ولم يشاركهم في المعارك. بعد أن كان هو قائدها على عهد رسول الله (ص) وذلك كله إعرابا عن موقفه الرافض لشرعيتهم. وكان لا يتدخل إلا فيما أشكل على الناس من قضايا، يرمي من خلالها إلى الحفاظ على الحد الأدنى من الشريعة، كما يرمي من خلالها إلى إقامة الحجة على الناس وإظهار عدم أعلمية الخلفاء.

وكان (ع) لا يألوا جهدا إلا وصرفه في طريق الهدم لواقع الاغتصاب، وعند ما، يستشيره أحدهم في أمر لا علاقة له بالأحكام في أمور الرعية، كان يشير عليه بما يؤدي إلى الموت والهلاك. ففي معركة القادسية أشار على عمر بن الخطاب عندما استشاره هذا الأخير، بالمشاركة مع الجيش فنصحوه بعدم فعل ذلك خوفا عليه من الموت.

ذكر المسعودي لما قتل أبو عبيدة الثقفي بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق، وعسكر عمر وهو يريد الشخوص. وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله وعلى ميمنته الزبير بن العوام وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف. ودعا الناس فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير، ثم قال لعلي: ما ترى يا أبا الحسن:
أسير أم أبعث؟.

قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده فدعا العباس في جلة من مشيخة قريش وشاورهم فقالوا: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فاستشاره فقال: إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبدا قال: أشر علي من أبعث؟ قال قلت: سعد بن أبي وقاص، قال عمر: أعلم أن سعدا رجل شجاع ولكني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب ثم خرج فدخل عثمان عليه فقال له: يا أبا عبد الله أشر علي أسير أم أقيم؟ فقال عثمان أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش فإنه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض وابعث رجلا له تجربة بالحرب

قال عمر: ومن هو؟ قال: علي بن أبي طالب قال: فالقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعا إليه أو لا، فخرج عثمان فلقي عليا فذاكره ذلك فأبى علي ذلك وكرهه [١٥٦]".

تحمل هذه الرواية عدة دلالات على مدى اعتزال الإمام علي (ع) عن الخلفاء، فهو يأبى ويكره أن يسير في جيوشهم، فلو كانوا على جانب من الشرعية لكان علي (ع) أولى بكسب ذلك الثواب في الجهاد وفتح البلدان، وأنه أشار على عمر بن الخطاب بالمسير خلافا لباقي الرجال، رغم إن في بعث عمر خطر على حياته.

إن هذه الواقعة تثبت مدى حرص الإمام علي (ع) على عدم الاحتفال بمشاريع ذلك التيار وعدم تزكية أي خطوة من خطواتهم، وذلك عن طريق الامتناع عن تلبية طلباتهم وعدم نصرتهم. والإشارة عليه - إذا استشير - بما يهدد أركان الاغتصاب ويسهل عودة الخلافة إلى وضعها الشرعي. وهذا الخذلان من جانب الإمام علي (ع) هو الذي دعى بنو أمية للتحامل عليه في أمر عثمان. وكان عمر بن الخطاب متوقعا لأي محاولة من محاولات القتل من قبل علي (ع) وذلك ما رأيناه في مقتل عمر بن الخطاب، عندما التبس عليه الأمر، فطلب بي هاشم، ليحقق معهم في الأمر.

ذكر بن قتيبة وغيره:

لما طعن عمر قال لابن عباس، أخرج فناد في الناس أعن ملأ ورضى منهم كان هذا؟ فخرج فنادى فقالوا: معاذ الله ما علمنا ولا اطلعنا فقال: يا علي أعن ملأ منكم ورضى كان هذا؟ فقال علي (ع) ما كان عن ملأ منا ولا رضى [١٥٧]".

كان لعلي (ع) أصحاب موالون، وهو من أهل السابقة. وكلهم كان رافضا لبيعة أبي بكر في السقيفة. وقد جاء ذكرهم آنفا، وعلى رأسهم: سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، عمار بن ياسر، ابن عباس، مالك الأشتر.

هؤلاء كانوا قد تفرقوا في البلدان وأصبحوا يدعون سرا لولاية الإمام علي [١٥٨]

---

[١٥٦] مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٨.

[١٥٧] الإمامة والسياسة ص ٢٢.

[١٥٨] أقول، إن الدعوة إلى قتل عثمان كانت ترافقها بالتوازي الدعوة إلى ولاية علي (ع) وسوف نرى ذلك في حديثنا عن المقتل في تاريخ ابن خلدون!.

فهذا سلمان كان بالمدائن وهي التي عرفت بعد ذلك بالتشيع الشديد لأهل البيت وذاك عمار بن ياسر بمصر أيام عثمان كان يدعو إلى ولاية الإمام علي (ع).

يقول بن خلدون: وكان – أي عمار – يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر لأهل البيت، ويقول: " إن محمدا يرجع كما يرجع عيسى[١٥٩] ".

وبقوا على ذلك حتى ورد عثمان حيث كان الظرف مناسبا لإثارة الناس عليه بكل وضوح وحيث إن فترة عثمان عرفت نوعا من التهور بحيث تمكن أنصار علي (ع) من تأليب الأمصار عليه. وإنه ليس غريبا أن تتوحد مواقف هؤلاء الأنصار وأن تكون كل حركاتهم بأمر من الإمام علي (ع) كيف ذلك وهم يعترفون له بالإمامة ولا يقومون بشئ دون مشورته.

ولذلك رأينا كيف أن شيعته بالكوفة والبصرة ومصر هم الذين جاؤوا بالوفود فكان مالك الأشتر على رأس الوفد الكوفي بينما حكيم بن جبلة كان على رأس الوفد البصري، في حين تزعم الوفد المصري محمد بن أبي بكر وهؤلاء هم أيضا من اقتحم الدار على عثمان ونفذ فيه عملية القتل. ورأينا أن عليا هو الذي كان يتوسط وبيده أمور الصلح وهو الذي رد الوفود بكلمة قالها. وهو الذي سكت حين رجعوا، فنفذوا حكم القتل في عثمان. ولا عليك من قصة بعث الإمام لابنيه لحراسة عثمان. كيف يبعث ابنيه لصد ثورة عارمة تقف خلفها جماهير جرارة. وهل الحسن والحسين إلى تلك الدرجة من الصغار حتى يأتي أبوهما فيصفعهما لما قتل عثمان. فهل يعقل من أمير المؤمنين وإمام الأمة أن يؤاخذ سيدا شباب أهل الجنة وأئمة المستقبل، على عدم رد ما لا طاقة لهما به، ولو كان كما صوروه رافضا لقتل عثمان، إذن لكان أحرى أن يأتي إلى باب الدار وهو يعرف أن لا منقذ لعثمان من هؤلاء سوى كلمة قد تصدر عنه، ولما رفض الرجوع إلى عثمان وعدم الاستجابة لنجدته في نهاية المطاف. فكيف يلطم ابنيه وهو يعلم أن هؤلاء من كان ينازع أبا بكر وعمر في عهدهما أمام الناس ويستنزلون من قدرهم. فكان أحرى أن يضربهم على ما فعلوه في الشيخين من قبل. وقد كانوا أصغر من سنهم ذاك. فقد

---

[١٥٩] تاريخ ابن خلدون (٥٢١/٢)

جاء الحسن [١٦٠] مرة إلى أبي بكر وهو على منبر رسول الله (ص) فقال: انـزل عـن مجلس أبي وفعلها الحسين مع عمر [١٦١] .

وهل كان من المعقول أن يرفض زعماء الوفود توسط علي (ع) فيما لو أراد عليه السلام ذلك. وهم من كانوا لا يخطون خطوة إلا بإذنه. وبعد مشورته كما يتبين من الوقائع والقرائن المستفيضة. وهم كانوا من خلص شيعته. وكان أحرى به عليه السلام أن يلطم هؤلاء الذين قتلوه أو تزعموا قتله. بدل الثناء عليهم والاهتمام بهم. ودعنا أولا وقبل كل شئ أن نرى كيف كان حال هؤلاء الأنصار، وهل في سيرتهم ما يؤكد على أنهم كانوا متمردين بلا ولاء ولا خلفيات.

كان زعماء الوفود وطلائع التمرد هم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة بمصر ومالك الأشتر في طليعة الوفد الكوفي وحكيم بن جبلة العبدي كان على رأس الوفد البصري [١٦٢] .

على أي شئ قاتل هؤلاء وعلى أي مأرب خاضوا كل هذه الثورات.

فأما عمار الذي ثار على عثمان وساهم في قتله، ظل حليفا وفيا للبيت النبوي، ومن أنصار الإمام علي (ع) والذين شاركوا في كل حروبه حتى استشهد في صفين. وكان موقفه على جانب من الحجية.

ذكر المسعودي: [١٦٣] وقد كان عمار حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية فقال أبو سفيان: أفيكم أحد من غيركم؟.

وقد كان عمي فقالوا: لا، قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة، فانتهره عثمان، وساءه ما قال، ونمى هذا القول إلى المهاجرين والأنصار.

---

[١٦٠] كفاية الطالب (٤٢٤) ، و الرياض النضرة (٢٠٣/١) ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي

[١٦١] تاريخ الخلفاء للسيوطي (١٤٣) . و الأصابة (٣٣٣/١) و تاريخ بغداد (١٤١/١)

[١٦٢] الكامل (١٦١/٣) و العقد الفريد (٢٩٢/٤) و تاريخ أبن عساكر (٣١٥) و شرح النهج (٢٧/٣)

[١٦٣] مروج الذهب ج ٢، ص ٣٥١ - ٣٥٢.

(وغير ذلك الكلام) فقام عمار في المسجد فقال: يا معشر قريش، أما إذ صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة فما أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله.

" أما المقداد الذي جاء اسمه في لائحة المعارضين للسقيفة. فإنه كان من الناقمين أيضا، على عثمان. وكان ذلك على أساس إيمانه بحق الإمام علي (ع) وأهل بيته ". فقال:

" ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم، فقال له عبد الرحمن بن عوف:

وما أنت وذاك يا مقداد فقال: إني والله لأحبهم لحب رسول الله (ص) إياهم، وإن الحق معهم وفيهم، يا عبد الرحمن أعجب من قريش وإنما تطولهم على الناس بفضل أهل هذا البيت - قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله (ص) بعده من أيديهم أما وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصارا لقاتلتهم كقتالي إياهم مع النبي (ص) يوم بدر، وجرى بينهم من الكلام خطب طويل " [١٦٤].

إن منطق الاصلاح كان هو الذي يوجه هؤلاء جميعا. وكان برنامجهم موحد. لقد أعطيت لهم الدنيا ودنت منهم أكثر من مرة، ولكنهم رفضوها. فهم لا يقاتلون على مآرب رخيصة. كان سهم منذ السقيفة أن يدمروا بنيان الخلافة الزائف وإقامة صرح الإمامة الشرعية.

ولنعد إلى مجريات الأمور لنتبين كيف أن هؤلاء كانوا قد نفذوا الحكم الثوري على عثمان انطلاقا من مشورة حقيقية للإمام علي (ع).

لقد كان ثمة صراع حقيقي بين علي وعثمان. وبلغ بالإمام أنه بدأ يبدي اعتراضه الصريح على عثمان ولا يأبه بأي تهديد منه، كيف يسكت علي (ع) وهو لم يسكت قبلها إذ سكت إلا مراعاة لحرمة الإسلام وحواريي الرسول (ص). أما وقد بدأ عثمان يختلف في الدين ويستهزئ بشريعته، وينزل من مقام حواريي الرسول (ص) ويرفع من شأن الطلقاء، فلما يكون السكوت أحجا. وليكن ما يكون.

---

[١٦٤] مروج الذهب (ج ٢ ص ٣٥٢)

فعلي (ع) كان يريد أن يعيد الأمر بشكل جذري، غير أن الظروف اقتضت أن يستثمر ما توفر لديه من رجال مخلصين، بايعوه على الموت. ومن تلك الأمثلة التي واجه فيها علي (ع) عثمان، ما ذكره المسعودي في مروج الذهب، عندما اجتذب الإمام علي (ع) الوليد وضرب به الأرض وعلاه بالسوط ليقيم عليه الحد عند شرب الخمر، ورفض عثمان لذلك وخوف الناس منه، فقال عثمان:

ليس لك أن تفعل به هذا.. قال: بل وشرا من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه.

وذكر - أيضا - إنه عندما أزمع عثمان على تسيير أبي ذر الغفاري (رض) إلى الربذة، ومنع الناس أن يسيروا معه، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه علي بن أبي طالب ومعه ابناه وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر، فاعترض مروان فقال: يا علي إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره ويشيعوه. فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط وضرب بين أذني راحلته، وقال: تنح نحاك الله إلى النار. ومضى مع أبي ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف، فلما أراد علي الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمكم الله أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله (ص) فشكا مروان إلى عثمان ما فعل علي بن أبي طالب، فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من علي؟ رد رسولي عما وجهته له، وفعل كذا، والله لنعطينه حقه فلما رجع علي استقبله الناس، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال، غضب الخيل على اللجم.

هذه الواقعة تثبت أهمية الصراع الدائر بين علي وشيعته وعثمان وبطانته ووصلت تلك الحدة درجة من الخطورة أصبحت فيها الأمور أوضح من الشمس في رائعة النهار.

ذكر المسعودي ما جرى بين علي وعثمان في ذلك الشأن وأظهر ما جرى بينهما من مشادات كلامية تعبر عن حدة ذاك الصراع، يقول: [١٦٥]

---

[١٦٥] مروج الذهب (ج ٢ ص ٣٥١)

قال عثمان: ما حملك على ما صنعت بمروان ولم اجترأت علي ورددت رسولي وأمري؟!

قال: أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم أرده، قال عثمان: ألم يبلغك إني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه؟ فقال علي: أو كل ما أمرتنا به من شئ نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل، قال عثمان: أقد مروان، قال: ومم أقيده؟ قال: ضربت بين أذني راحلته وشتمته، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك، قال علي: أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقا. قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه؟! فغضب علي بن أبي طالب وقال:

ألي تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه نبلي قد نثلتها، وهلم فانثل بنبلك، فغضب عثمان واحمر وجهه، فقام ودخل داره.

لقد كان البرنامج، والملف المطلبي للوفود المتمردة برنامجا رساليا وملفا مطلبيا منسجما مع متطلبات الشريعة الإسلامية وكان علي (ع) معززا ومزكيا لهم في ذلك.

وعندما جاءت الوفود هرع عثمان إلى علي (ع) ليتوسط له مع القوم ويردهم عنه.

وفي ذلك دلالة على مدى الولاء الذي كان يجمع بين علي وهؤلاء الثوار فقال له علي (ع) على أي شئ أردهم عنك؟ قال: على أن يصير إلى ما أشرت إليه ورأيته لي [١٦٦].

لقد كان الشرط الوحيد لعلي (ع) هو أن ينال الطاعة من عثمان فقال له (ع) إني قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك لخرج وتقول ثم ترجع

---

[١٦٦] ابن الأثير (١٦٢/٣).

عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني قال عثمان: " فأنا أعصيهم وأطيعك [١٦٧] ".

غير أن عثمان وبطانته كانوا قد خانوا العهد فرجعت الوفود جميعها. تطالب بقتل عثمان وجماعته وكانت آخر كلمة لعلي (ع) قالها لعثمان: " ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك [١٦٨] ".

وبقي كذلك، ولم يجب طلب عثمان، وهو يعلم أن ذلك يؤدي به إلى الموت حتما.

والذين قتلوا عثمان، كانوا هم من بايع عليا (ع) وأصبحوا ساعده الأيمن. ولم يقل فيهم شيئا. ولأعاتبهم على شئ من ذلك البتة، بل قد دافع عنهم، وكان بينه وبين معاوية أن يسلم له قتلة عثمان، لكن الإمام قاتل بهؤلاء بقايا الأمويين. واشتدت عرى ولائهم له.

وكان محمد بن أبي بكر الذي طعن عثمان ومالك الأشتر هم عماله الثقات على الأمصار، وهم الذين زكى الإمام علي (ع) ثورتهم بأن جعل ثقته فيهم في إقامة الذين ومتابعة الاصلاح. فعندما أراد أن يبعث محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة.

قال لهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا وانهضوا إلينا، فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخوانا [١٦٩].

لقد كان موقف علي وشيعته الأوائل واضحا لأعداءه. ولهذا سرعان ما اهتزت عائشة، التي كانت بالأمس تقول: يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته، فقال عثمان: " رب اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم [١٧٠] ".

---

[١٦٧] ابن الأثير (١٦٢/٣)

[١٦٨] ابن الأثير (١٦٦/٣)

[١٦٩] اين الأثير (٢٢٦/٣)

[١٧٠] اليعوقي (١٧٥/٢)

تقول اليوم: يا أيها الناس إن عثمان قتل مظلوما والله لأطلبن بدمه وكانت تقول: " يا معشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله علي بن أبي طالب، والله لأنملة أو قالت لليلة من عثمان خير من علي الدهر كله [171] ".

إنهم رأوا كيف أن عليا (ع) كان على اتصال بالثوار وأن قيادات الثورة وطلائعها كانوا من خلص أصحابه، والساعد الأيمن له بعد بيعته وأنه حريص على تبرئتهم والدفاع عنهم وكان علي (ع) قد دخل على نافلة بنت الفرافصة زوجة عثمان قال لها: من قتله وأنت كنت معه؟ قالت: دخل إليه رجلان وقصت خبر محمد بن أبي بكر، فلم ينكر ما قالت، وقال:

والله لقد دخلت عليه وإني أريد قتله، فلما خاطبني بما قال خرجت، ولا أعلم بتخلف الرجلين عني، والله ما كان لي في قتله سبب ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله [172] .

نعم.. هذا هو منطق الإمام علي (ع) منطق الثورية وأسلوب التقية فهو قتله ولم يقتله. قتله لما ذكر استحقاقه للموت والهم بقتله ولكنه ما كان له سبب في قتله تلك الليلة ولا علم بقتل عثمان وكيفية ذلك. إنها عين التقية التي مارسها الأنبياء. وأشبه ما تكون بموقف إبراهيم (ع) في رد المشركين إلى كبير الأصنام. وعدم اعترافه بهدمها. إنها تقية واجبه في هذا المقام. على أنبياء الله كما على أولياءه. بيد أن الإمام علي (ع) لم يستطع أن يتقي كل من حوله ممن رأى خلفية الثورة، وهؤلاء بلا شك كانوا أصحاب أطماع وأهواء أخرى، حاولوا تحقيقها من خلال طلب الثأر لعثمان. غير أن الشعار كان حقيقيا، إذ كثيرا ما أريد بكلمة الحق باطلا. فعلي (ع) هو قاتل عثمان. لما كان هذا الأخير مغتصبا. وكان الواجب يفرض على علي (ع) إزاحة الباطل. فمن أهدى من علي (ع) ومن أحرص منه على إزاحة الباطل!.

وللإمام علي (ع) خطبة حول المقتل يحسن بالمتدبر في ثناياها أن يعي حقائقها.

---

[171] الفتوح (٢٤٨/٢)

[172] مروج الذهب (٣٥٤/٢)

قال (ع): " لو أمرت به لكنت قاتلا، أو نهيت عنه لكنت ناصرا. غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير مني: وأنا جامع لكم أمره، استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع [١٧٣] ".

فموقف الإمام واضح من خلال ما ينطق به النص إنه لم يأمر ولم ينه. ونحن دائما نصرف ذلك للتقية. نظرا لما بين أيدينا من قرائن، كتلك التي تتعلق بالظروف التي عاشها. ونظرا لموقفه الجذري من اغتصاب الخلافة. وقد كان الإمام كما سبق القول على جانب من القدرة في رد المعتدين. فسكوته هنا كسكوته على الخلافة من قبل. فهي مدارات يتقي بها ارتداد الناس وحمية الجاهلية. وقد سألوه يوما: أرضيت بقتله؟ فقال: لم أرض، فقيل له: أسخطت قتله؟ فقال:

لم أسخط [١٧٤] فإذا لم يكن راض يعني أنه ساخط. ولكن الإمام يريد أن يقول لهم. إن قتله لا يرضيه، ما دام إن الأمور لم تحل من جذورها. ولكن هذا لا يعني أنه يسخط بقتله.

وذكر بن أبي الحديد من أقواله المختلفة والكثيرة، قوله تارة، الله قتله وأنا معه. وقوله أخرى، كنت رجلا من المسلمين أوردت إذ أوردوا، وأصدرت إذا أصدروا. (الشرح ٤٣/٢) .

لقد ذكر الرسول (ص) في حديث له: إن عليا سيقاتل على التأويل. وكان عثمان أشد الخلفاء محاربة للتأويل وذلك بتتبعه القراء ومعاقبتهم كابن مسعود وحرقه القرائين وتأويلها. وتجدر الإشارة إلى تلك المصادفة العجيبة التي تزامنت مع الثورة على عثمان ومبايعة علي (ع).

إذ جرى ذلك يوم الثامن عشر من ذي الحجة. وهي الذكرى السادسة والعشرين لواقعة الغدير الذي فيه خطب الرسول (ص) في المسلمين معلنا ولاية علي (ع) استجابة للنداء القرآني ﴿**بلغ ما أنزل إليك من ربك، فإن لم تفعل فما**

---

[١٧٣] شرح النهج (١٢٦/٢)

[١٧٤] شرح النهج (١٢٨/٢)

بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾[175] .

ترى هل كانت تلك محض مصادفة أم إنها تدبير إلهي خفي لجعل ذكرى يوم التنصيب، ذكرى لإقصاء المغتصب وتنصيب علي (ع) أقول، إنه لو لم تكن ثورة شيعة علي (ع) هي التي جاءت بعلي (ع) وفرضت ولايته لما رآها بنو هاشم البتة. ولكان عثمان عهد بها إلى أحد من بطانته أو لفعل مثل ما فعله شيخاه. إن في الأمر من التوافق ما يثير الانتباه. فسبحان من له في خلقه شؤون!.

---

[175] سورة المائدة (آية ٦٧)

الباب الثاني

أزمة التاريخ

أم أزمة مؤرخين؟

نموذج ابن خلدون



التاريخ لماذا؟

كثيرا ما كانت الطريقة التي سلكها المؤرخون في بحث أحوال الماضي من هذه الأمة موغلة في التواطؤ تارة وفي الغباء طورا فالأحداث كما تقع في الماضي تختلف كلها عما يكتب على أديم التاريخ. وذلك كله راجع إلى أسباب معينة، قصية بأن تكون مقدمة لهذا الباب، ومدخلا لفهم صراحته وجرأته في تناول الحقائق التاريخية في صورتها الجلية.

إن تراثنا تشكل من خلال لعبة تاريخية. وقفت من ورائها سلطة الخلفاء التي كانت تنهج نهجا تحريفيا في كل المؤسسات الاجتماعية والثقافية. من أجل خلق واقع منسجم. تتطابق فيه البنى السياسية بالاجتماعية والثقافية. ولأن القطاع الثقافي والتعليمي يشكل ركيزة المجتمع الحضاري. وأساسا للدولة العقائدية.

فإن المؤسسة السلطانية لعبت دورا كبيرا في إعادة ترتيب محتوياتها الداخلية. من أجل سلب العناصر النقيضة لتلك المؤسسة.

وتفريغ كل ذلك المحتوى من كل ما من شأنه أن يكون قنبلة موقوتة تهدد بقاء تلك المؤسسة.

وليس عجيبا أن يذكر التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك. تعكس حرص المؤسسة السلطانية على التصرف في الجهاز المعرفي والثقافي للأمة. ونزوع حالة من الشمولية تجعل الفكر محكوما برقابة شديدة وتحت رحمة الرغبة الخلفائية.

ومن هنا تبين كيف أن التحريف لم يخدم فقط الواجهة السياسية. بل انعكس ذلك أيضا على فلسفة التاريخ وعلى مناهج التاريخ وشخصية المؤرخ. فبعض المؤرخين تألق نجمهم وتلألأ في سماء التراث الإسلامي. على الرغم من صغر حجمهم. ونبوغ غيرهم، ذلك بأن المؤرخ كان نفسه يعاني أخطر محنة في الماضي وأن مهنة التاريخ كانت أخطر مهنة يمكن تصورها ساعتئذ. ومن هنا كانت الشهرة والألمعية من شأن المؤرخين المتزلفين للبلاط والمدافعين عن نهج الخلفاء. تعطى لهم الامتيازات بسخاء، وتقدم لهم المناصب على أطباق من ذهب. في حين انطفأ فيه نجم النابغين الذين أفنوا حياتهم في العلم وبرعوا في هذه الصناعة. وترفعوا عن الاختلاف إلى أبواب الخلفاء.

فكل ذلك كان بسبب ما تقتضيه السياسة من تحريف الحقائق وتزوير الأحداث بما يتفق مع نهجها السياسي أو هواها السلطاني. وما تلزمه تلك العملية من تقريب المتزلفين وتهميش العلماء المستقلين.

وعلى الرغم من كل ذلك يبقى التاريخ ضرورة لا غناء عنها فالنظر في أحوال الماضي ضرورة علمية لا مناص من مزاولتها. لأنها وحدها كفيلة بأن تطلعنا على حقيقة ما جرى في الماضي لفهم ما يجري في الحاضر. وفيما يتعلق بالتراث الإسلامي، لا بد من تركيز الاهتمام بالتاريخ ومناهجه وكيفية ضبط الوثائق ونقدها وتحليل حفرياته. لسببين بسيطين:

الأول: لأن الرواية - وهي شأن تاريخي تعتبر أساسا لكل ما له علاقة بالإسلام.

من فقه وأصول وكلام وتفسير ولغة و...

فالقرآن وهو أهم مصدر في الثقافة الإسلامية لم يكن يهم الأجيال فيما لو كانت الرواية التاريخية لا أهمية لها على المستوى العلمي. فالقرآن وصل عبر الرواية والمصاحف المعمول بها اليوم تعتمد على رواة تاريخيين. هذا بالإضافة إلى السنة المدونة التي ابتدأت بالرواية ولا زالت فالتاريخ نافذة ضرورية لا مهرب من أحكامها.

الثاني: لأن الإسلام كان دائما يوجه إلى فتح نافذة التاريخ للوقوف عند تجارب

الأمم، واستخلاص العبرة منها بما يصلح لإفادة الحاضر والمستقبل.

والقرآن يتسع لفيض من تلكم الآيات التي تحث على تدبر الماضي وقراءته قراءة تاريخية منتجة، ويستخدم كلمتين في شد الناس إلى التاريخ ويركز كثيرا على أحداهما.

والكلمتان هما: الماضي. والماقبل.

ففيما يتصل بالماضي، يذكر القرآن آيتان:

﴿ **فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين** ﴾ [١٧٦].

﴿ **وأن يعودوا فقد مضت سنة الأولين** ﴾ [١٧٧].

وربط كلمة ماضي بالأولين، في حين استخدم عبارة (ما قبل، من قبل.) كثيرا. إنه لا يعتبر الماضي أمرا غابرا، خصوصا في مقام الحديث عما يفهم منه حديث عن السنن الاجتماعية. فإنه يستخدم عبارة ما قبل، أو من قبل. ليبين بأن المسألة لها صلة بكل أطوار التاريخ. وبأن الحدث الواقع في الماضي هذا له امتداداته المنطقية على الحاضر والمستقبل. ومن هنا، يبين بأن النظر إلى الماضي وهو نظر في الحاضر والمستقبل. نظرة من الخلف. وذلك هو أرقى مبدأ في فلسفة التاريخ. وأهم قاعدة في منهجه.

يقول تعالى: ﴿ **سنة الله في الذين من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا** ﴾ [١٧٨]

﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ [١٧٩].

﴿ **وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما** ﴾ [١٨٠].

﴿ **ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل** ﴾ [١٨١].

---

[١٧٦] الزخرف / آية ٨

[١٧٧] الأنفال / آية ٣.

[١٧٨] الأحزاب / ٣٨.

[١٧٩] الأحزاب / آية ٦٢.

[١٨٠] الفتح / ١٦.

[١٨١] الحديد / ١٦.

﴿ **فإن كذبوك قد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات** ﴾ [١٨٢] .

بعد هذا كله لم يعد ما يحجب الإنسان الباحث حقيقة النظر في تاريخ الأمم لفهم طبيعة ما يجري في الحاضر. إذ ليس الحاضر إلا امتداد لذلك الماضي مأسور بحباله مثقل بأوزار.

لقد أحدث الإسلام في بداية الدعوة قطيعة تاريخية بكل ما سبق من جهالات ولكننا لم نفز نحن بكتاب يحدث بيننا وبين ما رزح به تاريخنا، قطيعة تجعلنا نرتبط مباشرة بالإسلام المحمدي مباشرة وندخل في أجواء النص بدون عوائق.

---

[١٨٢] آل عمران / آية ١٨٤.

لماذا بن خلدون؟

انتقينا من بين المؤرخين، بن خلدون، كنموذج لدراساتنا عن أزمة التاريخ والمؤرخين الذين تعاطوا بشكل سلبي مع كثير من الوقائع التاريخية وابن خلدون هو مؤرخ له ميزاته المعروفة.

فهر رائد العقلانية التاريخية ورائد فلسفة التاريخ الإسلامي. ولأنه يشكل نموذجا للمؤرخ المغربي الذي تميز بموقفه من الإمامة والأئمة. ولعل الأستاذ حسن حيدر صاحب الكتاب النفيس " جعفر الصادق والمذاهب الأربعة " هو الكاتب المشرقي الوحيد الذي انتبه إلى بعض من تلك الفلتات الناصبية.

وعلى أساسها قام بكتابة مؤلفه العملاق حول الإمام الصادق.

إن ابن خلدون، من المؤرخين الذين لا يحتفل بهم في أمور التاريخ الإسلامي الموثوق، ذلك أنه بالإضافة إلى اعتباره ناقلا عن المؤخرين. فإن هموما فلسفية كثيرة كانت توجه بن خلدون في تأويل وقائعه. وأهدافا إيديولوجية أخرى كانت تفرض عليه ضروبا من القراءات المتهافتة في وقائع الماضي. ولأنه مؤرخ بعيد عن اهتمام المشارقة. وكان قد عاش في أحضان سلاطنة المغرب. وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يكن سوى ناقلا للأحداث. معتمدا على مؤرخين سابقين له أمثال ابن جرير الطبري، واليعقوبي، والمسعودي، إلا أنه حاول التصرف في تلك الأحداث المنقولة والاختصار فيها بشكل يسئ إلى حقيقتها. وكل ذلك استجابة لرغبات مذهبية جامحة كانت تتحكم في ذهنية بن خلدون وأسلوبه في التأريخ.

تقوم ميزة التاريخ الخلدوني على أساس إبداعه في مجال تطور العمران ونشوء الدول، وما إليها من أمور كان بن خلدون فيها صاحب قصب السبق من بين جموع من المؤرخين وعلماء الاجتماع. وبذلك كان مكتشفا لقوانين تاريخية واجتماعية واقتصادية، كانت أساسا في نشوء مذاهب وتيارات في العصور التي جاءت بعده. إن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد ونظرية المادية التاريخية. كلها من اكتشافاته الأولى. وهذا ما يجعل ابن خلدون متميزا عن باقي من سبقه أو عاصره في هذه الصناعة.

وما يهمنا هنا هو الجانب التاريخي من اختصاصه. حتى نقف عند أقواله في شأن الإمامة وتاريخ الصراع حول الخلافة ومجموعة وقائع أخرى. لنكتشف عناصر المناصبة فيها. ولنتبين مدى فرادته في هذا المجال. ولنوقف مصداقيته العلمية هذه المرة في محك التاريخ.

ابن خلدون، المؤرخ!

إذا أخذنا ابن خلدون كمؤرخ بعيدا عن ابن خلدون الاجتماعي أو عالم الاقتصاد سنكتشف أنفسنا أمام شخصية أخرى جديدة إنه ابن خلدون الذي لا يختلف عمن سبقه من مؤرخي الخلفاء والمبررين للخلافة. شأنه في ذلك كمن احتضنهم البلاط ووسع عليهم في العطاء.

والذين درسوا ابن خلدون من هذه الزاوية، اكتشفوا ذلك الانفصام في شخصيته، واكتشفوا الأسلوب الآخر الذي كان يعتمده في الكتابة التاريخية، وهو أسلوب موغل جدا في الجمود واللاعقلانية.

يعتقد هاملتون جيب، وهو من دارسي ابن خلدون الكبار أن هذا الأخير ليس إلا مثالا لمن سبقه من الفقهاء المتزمتين. فابن خلدون في نظره " مجرد فقيه مالكي، كان يهدف إلى تبرير واقع الخلافة كما فعل قبله الماوردي والباقلاني والغزالي ".

ويعود ليوقف ابن خلدون في مستواه الحقيقي، ردا عمن رام المبالغة في تصوير استقلاله الفكري. " وإن شئت أن أوضح هذا النقص الذي أشير إليه توضيحا عاما قلت إنه يكمن في الميل إلى المبالغة في تصوير استقلال فكر ابن خلدون، وأصالته وهو ميل ناشئ عن سوء فهم لنظرته وخاصة من حيث علاقتها بالمسائل الدينية [١٨٣] ".

---

[١٨٣] راجع النظم و الفلسفة و الدين في الأسلام ، فصل الأصواح الأسلامية في نظرية ابن خلدون السياسية / هاملتون جيب .

وقد بالغ بن خلدون في تبرير واقع الخلافة حتى صوره أ. ف. غويتيه بكونه شخصية وقحة، لا تعرف سوى حقوق القوة، أو الوقيعة، وعاجزة عن أن تدرك غير الطغيان[١٨٤] .

ليس المقصود من التوقف عند بن خلدون أن نقدم للقارئ تحليلا عن حياته وكتاباته. وأنما نريد هنا التطرق مباشرة لطريقته في تناول الأحداث المتصلة بقضية الإمامة وأهل البيت وتاريخ الخلاف.

كانت اهتمامات ابن خلدون الأولى منصبة على الفلسفة بالدرجة الأولى والفقه واللغة. من جهة أخرى.

وكان العصر الذي عاش فيه يتميز باضطراب شديد، خصوصا في منطقة المغرب والأندلس. فسقوط دول وقيام أخرى. يغير ويبدل من أحوال البلاد ويعيد الأمور صوب وجهة جديدة. فالأنصار اليوم هم الأعداء غدا. والأعداء اليوم يتحولون بفعل التحول والانقلاب في الدول إلى أنصار ووزراء. وكان هو ضحية لأعمال السياسة الفاشلة. إذ أنه قضى جل حياته متقلبا بين السجون والبلاط. وعلى امتداد المغرب الإسلامي، كان بن خلدون إما متآمرا أو متزلفا. إلى أن تحول إلى مسالم يعتزل السياسة ويميل إلى العلم. والعلم الذي استهواه في نهاية رحلته، كان هو التاريخ. من أجل تضمينه بتجربته والإفاضة عليه بما اكتسبه من خبرات. ومن هنا جاء مؤلفه الشهير " العبر ". والمتتبع لتاريخ بن خلدون يدرك الأسباب التي جعلت ضحية النزعة الجبرية والتشاؤمية أحيانا. واهتمامه بالدول والعمران نشؤهما وزوالهما، كل هذا كان انعكاسا لتجربته الطويلة والمرة.

وسوف نطلع على نص لابن خلدون، يؤاخذ فيه مناهج المؤرخين الذين جاء على أثرهم. ويعتبر نفسه صاحب الفضل في اكتشاف ما يصلح للأخبار عن الماضي، لكي نحاسبه على ضوء عقلانيته في مقام تناولنا لمسألة الإمامة والخلافة في تاريخه. يقول:

" ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على

---

[١٨٤] ابن خلدون، ايف لاكوست – ترجمة ميشال سليمان.

ذلك المنوال ويحتذي منه المثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال، فيحلبون الأخبار عن الدول، وحكايات الوقائع في العصور الأول صورا قد تجردت من موادها، يكررون في موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها اتباعا لمن عني من المتقدمين بشأنها، ويغفلون أمر الناشئة في ديوانها، ثم إذا عرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا محافظين على نقلها وهما أو صدقا، لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعا إلى اقتفاء أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها، باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها [١٨٥] ".

وكان مما وقع فيه ابن خلدون من مآزق إنه كان يصطنع للسلاطين الذين تزلف لهم، قصصا لا رصيد لها من الواقع. كأن ينسب زعماء الدولة الحفصية إلى عمر بن الخطاب. كما جاء في قصيدته للخليفة أبي العباس (١٣٧٠ – ١٣٩٤ م)، جاء فيها:

قوم، أبو حفص أب لهم وما   أدراك والفاروق جد أول

وكان الحفصيون، قوما من البربر من قبيلة هنتاتة وهي جبال مصمودة ببلاد المغرب الأقصى. هذا وكثير مثله من أمثلة التزوير والتزييف التي كان يقوم بها ابن خلدون. وسكوته عن الكثير من الوقائع التاريخية حفاظا على سمعة السلطان. وتأويله لكثير من الأحداث. كما سنرى في مثال تأريخه لوقائع العهد الأول وعصر الفتنة ومسألة الخلافة.

[١٨٥] المقدمة / ابن خلدون ص ٥.

ابن خلدون ووفاة الرسول (ص)

وبدء الخلافة!

للسقيفة علاقة وثيقة بما جرى في حجة الوداع من تأمير علي (ع) على المسلمين، والإعلان عن خلافته للناس ولا يمكننا فهم الوقائع التي جرت داخل السقيفة وخلفية اللعبة التي تمثلها حزب الشيخين هناك، إلا باستيعاب ما جرى قبل ذلك في الوصايا التي خلفها رسول الله (ص) ونبذها حزب الشيخين وتيار الاغتصاب من وراءه.

وحديث الغدير الذي يلخص حادثة التأمير بعد حجة الوداع، أشهر لدى المؤرخين ورواة الحديث، من نار على علم. فهو بلغ حدا من التواتر بات من الصعب على المحدثين تكذيبه بل كل ما في الأمر إن عمد بعض نواصبهم إلى التحايل على ألفاظه، وتأويله بشكل يسئ إلى متنه، ويتعسف على مضمونه. من أمثال ابن حجر في الصواعق المحرقة.

ودعنا الآن نتعرف على ما جرى في هذه الفترة. وأهم ما وقع فيها.

ذكر جماعة من المؤرخين والمحدثين إنه لما انتهى الرسول (ص) من حجة الوداع وصل إلى مكان اسمه " غدير خم " يقع على مقربة من الجحفة بناحية رابغ - بين مكة والمدينة - قام خطيبا فقال: " ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا بلى، قال، فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والي من والاه وعادي من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله "[١٨٦] .

[١٨٦] مسند أحمد (١٩٥/٢ و ٢٠٠ و٢٠١) و مستدرك الحاكم (١٠٩/٣ و ١١٠) و تهذيب التهذيب (٣٣٧/٧) و البداية و النهاية (٢٠٩/٣-٢١٤) و الصواعق المحرقة (٤٢) مجمع الزوائد (١٠٨/٩ و ١١٠) و المصنف (٤٩٦/٧ و ٤٩٩) و أسعاف الراغبين (١٦٦) و غيرها من المصادر .

وعلى إثر ذلك نهض عمر وهو يقول لعلي (ع) " بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة "[187].

لقد تواتر هذا الخبر ولم يتجاوز هذه الواقعة أحد من المحدثين أو المؤرخين حتى أولئك الذين عرفوا بنصبهم وكتبوا حوله الأسفار إلا ابن خلدون فقد حاول القفز عليه وعدم الإشارة إليه على الرغم من أنه ذكر كل ما حدث في حجة الوداع، وعلى الرغم من اطلاعه ونقله عن السابقين الذين ذكروه قبله. وذلك لا أحسبه إلا ضغينة منه، وتكلفا جليا في نبذ ما يعزز استحقاق أهل البيت (ع) وكل ذلك البتر والتصرف في الوقائع التاريخية كان أيضا بقصد خلق نوع من الانسجام بين نظريته حول الإمامة والتاريخ. فإذا أورد حديث الغدير، فإن ذلك يناقض نظريته حول الإمامة التي يرى فيها أمرا دنيويا يقوم على مصالح الناس، ولا مدخلية للنص فيها ".

---

[187] مسند أحمد (٢٨١/٤) و تاريخ بغداد (٢٩٠/٨) و كنز العمال (١٣٤/١٣ ح ٣٦٤٢٠) و ذخائر العقبى (٦٨) و المصنف (٥٠٣/٧) و تذكرة الخواص (٦٤/٣٦) و البداية و النهاية (٢١٠/٣) و فرائد السمطين (٦٥/١ و ٧١و٧٧) و شواهد التنزيل (١٥٧/١) و مناقب الخوارزمي (١٥٦) و مناقب ابن المغازلي (١٩) و ينابيع المودة (٣١/١) .

في مسألة تجهيز جيش أسامة

سبق أن ذكرنا خبر تجهيز جيش أسامة واعتراض بعض الصحابة عن الذهاب مع أسامة ولم يكن أحد من المعترضين على أسامة من غير أولئك الصحابة الذين رأوا فيه شابا صغير السن وهم شيوخ كبار وكان عمر متمسكا كما ذكرنا بعزل أسامة، وبقي على تلك الحال حتى عهد أبي بكر، حيث نهره هذا الأخير وأنبه.

وقد لعن الرسول (ص) كما تقدم كل متخلف عنه، وبالتالي كل متقول في إمارة أسامة وابن خلدون لم ينف الحادثة، بل أكد عليها وذكر ما قاله الرسول (ص) حول من تقول فيها:

" وقد بلغني أن أقواما تكلموا في إمارة أسامة، طعنوا في إمارته لقد طعنوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لحقيق بالإمارة، وإنه لحقيق بها انفروا فبعث أسامة، فضرب أسامة بالجرف وتمهل [١٨٨] ".

ولا أحسب ابن خلدون كان مدققا في الأمر. إذن لما كان ذكر هذا الحديث لما فيه من الطعن على عمر وأبي بكر وبعض الأصحاب. قال في مفتتح كلامه عن بعث أسامة:

" وتكلم المنافقون في شأن أسامة، وبلغ الخبر بارتداد الأسود ومسيلمة [١٨٩] ".

---

[١٨٨] تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٤ ج ٢.

[١٨٩] تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٤ ج ٢.

إذا، فابن خلدون يثبت أن المتقولين في إمارة أسامة كانوا منافقين وسبق أن ذكرنا أن عمر وأبو بكر كانوا من المتقولين فيها. بل إن عمر بن الخطاب بقي على تقوله في ذلك إلى عهد أبي بكر. هذا علما أن التقول كان بخصوص حداثة سن أسامة وليس في موضوع البحث أصلا.

ويسترسل بن خلدون في تناقضه. لينتهي إلى حادثة مرض النبي (ص) الذي تزامن مع إصداره على بعث أسامة. ولعن المتخلفين عنه. وقد اعترف ابن خلدون بأن الرسول (ص) خرج إليهم عاصبا رأسه من الصداع. ولكن سرعان ما يورد كلاما جرى بين أبي بكر والرسول (ص).

وذكر أن رسول الله (ص) قال بعد أن قال له أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال:

" على رسلك يا أبا بكر، ثم جمع أصحابه ورحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيرا [١٩٠] ".

قال ابن خلدون: ثم سألوه عن مغسله فقال: " الأدنون من أهلي، وسألوه عن الكفن فقال: في ثيابي هذه أو بياض مصر أو حلة يمانية. وسألوه عن الصلاة عليه فقال [١٩١] ".

ولعل التناقض هنا واضح لا غبش فيه. فإذا كان ابن خلدون ينقل أن الرسول (ص) شدد على بعث أسامة، ولعن من تخلف عنه. وقد أقر المؤرخون والمحدثون بوجود أبي بكر وعمر. في هذا الجيش وبأنهم معنيون باللعن إن هم تقولوا في إمارة أسامة أو تخلفوا عنها. كيف إذن يستقبلهم الرسول (ص) وكيف يدعو لهم ويرحب بهم. وهو من قام معصبا رأسه، لاعنا المتخلفين من الصحابة عن جيش أسامة. ثم إن ما يرومه ابن خلدون هو أن يبين عبر التدليس - إن أبا بكر كان إلى جنب رسول الله (ص) ولم يشر إلى أن أبا بكر كان قد خرج إلى منزله بالسنح - كما تقدم - بل سكت عن ذلك وربط حديثه مع رسول الله (ص) مباشرة بفقرة جديدة ثم سألوه عن مغسله.

---

[١٩٠] تاريخ ابن خلدون (٤٦٥/٢)

[١٩١] تاريخ ابن خلدون (٤٦٥/٢)

وكان أولى بمؤرخ المغرب أن يقول ثم سأله أبو بكر، بل في انتقاله من كلام أبي بكر إلى صيغة الجمع دليل على غياب أبي بكر. فأهل السنة ردوا على أن يفردوا ابن أبي قحافة وعمر بن الخطاب في كل مقام إذا كانت له مشاركة فيه. ومرد أهل السنة أن يتكلموا بصيغة الجمع في المواقع التي يحضرها أبو بكر وعمر إذا لم يكن هناك حضور مشرف لهما. كان يتكلموا بصيغة الجمع في فراري أحد.

وفي من تقول في إمارة أسامة. والحقيقة كما أثبتناها سابقا إن أبا بكر لم يطل مكثه مع الرسول (ص) بل راح إلى السنح [١٩٢] ولم يعد إلا بعد موت النبي (ص) ثم لم يلبث أن لحق بالأنصار إلى السقيفة برفقة عمرو أبو عبيدة وإنهم لم يحضروا دفن النبي (ص).

وفي هذا الفضل، تطرق ابن خلدون إلى حادثة يوم الخميس، ولم يطل المكث عندها. لما تمثله من خطورة على مبناه المذهبي. قال: " وسألوه عمن يدخله القبر فقال: أهلي.

ثم قال: إئتوني بدواة وقرطاس، أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده فتنازعوا وقال بعضهم إنه يهجر، وقال بعضهم أهجر؟ يستفهم، ثم ذهبوا يعيدون عليه، ثم قال:

دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه.

لقد مر بن خلدون مر الكرام على هذه الحادثة ولا هو بمن يجهل قيمتها في فضح سريرة الباطل ولا هو بمن يستصغر قدرها على أولي الألباب. إنه يعرف رواة ذلك الخبر.

وهو من قراء البخاري والطبري إذ قال عنه:

" هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به لسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة [١٩٣] ".

ولكنه لم يختر من وجوه الرواية إلا ذلك الوجه الذي أورده المحدثون بتصرف

---

[١٩٢] الطبري (٤٤٠/٢ و ٤٤١) و الكامل (٣٢٢/٢)

[١٩٣] تاريخ ابن خلدون (٤٩٥/٢)

مقيت حيث يغيبون اسم عمر بن الخطاب وهو صاحب كلمة ″ يهجر ″ لنعرف كيف أن ابن خلدون كان يحرف على طريقته ويدلس، ولا يتوخى الوضع لأسباب سبق أن قلنا إنها مذهبية محض.

قال ابن عباس: ″ يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله وجعه، فقال: هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، فقال عمر إن النبي قد غلبه الوجع وعندكم كتاب الله، فاختلف أهل البيت فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند النبي (ص) قال لهم قوموا عني، فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم [194] ″.

وحسبك أن الاضطراب الذي نتج عن فعل التصحيف والتحريف، إن الخبر جاء بصيغ مختلفة كلها تعكس تدخل أقلام التحريف لتجيير الحقيقة لصالح عمر. فمرة يجعلونها في صيغة الغائب: ″ وقال بعضهم ″ وهي الصيغة التي اختارها ابن خلدون. وهناك من جعلها بصيغة الاستفهام ″ أهجر ″ يستفهم! وقد أخرج البخاري، قال عمر: ″ إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم كتاب الله ″ بيد أن ابن خلدون سكت عن اسم عمر بن الخطاب، وجاء بما يلبس على الناس.

وبعد ذلك لم يتطرق لما جرى بعد سماعه (ص) اللغط من حوله. وبعد أن تلقت أذنه الشريفة كلمة ″ الهجران ″ حتى أدرك أنه لم يعد بعدها جدوى من الوصية. لأن الأمر بعدها سيكون أخطر. وسيكون السؤال، هل إن كلام الرسول (ص) حق ناطق عن الوصي أم أن كلام الرسول (ص) فيه نوع من الهجر. وإذا ثبت الهجر في قوله ذلك، ترتب عليه ثبوته في كل أقواله. مما ينفي العصمة عنه. أو لم يحاول بعضهم النيل من عصمة النبي (ص) حتى يتمكن من تأويل بعض أقواله بما لا يطابق حقيقتها. وسيكون الأمر بعدها أشد حرجا على الإسلام، عندما يبدأ الطعن في النبوة ومقامها الشريف. فالأولى التضحية بالإمامة بدل النبوة، لأن الإمامة قد تعود ما دامت هي امتداد للنبوة. أما لو أن الخلاف كان في النبوة ، للزم

[194] الملل و النحل (٦) والبداية و النهاية (٢٢٧/٥) و طبقات ابن سعد (٢٤٢/٢) و مسلم (٤٥٤/٣و٤٥٥ح١٦٣٤-١٦٣٤) و شرح النهج (٥٤/٢و٥٥) و تاريخ الطبري (١٩٢/٣ و ١٩٣) و الكامل (٣٢٠/٢)

الدور. ولكان من باب المستحيلات الدعوة إلى الإمامة مجددا. وهذا ما جعل الإمام علي (ع) في بداية الأمر يتجنب المواجهة خوفا على عودة الناس إلى الشرك.

إن ابن خلدون أنهى القصة بشكل سريع، وقفز على كل ما جرى. ليقول:

" ثم ذهبوا يعيدون عليه، ثم قال: دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه ".

السؤال الذي قد يطرحه كل لبيب على مؤرخ المغرب: لماذا طلب منهم أن يدعوه، ولماذا يكون جوابه بتلك الصيغة التي يبدو فيها اليأس ممن حوله؟ بعد أن كان قد حثهم على إحضار الدواة والقرطاس؟.

ابن خلدون سكت عن ذلك. لكن التواريخ التي سبقت ابن خلدون وأخذ عنها. وكذا أخبار المحدثين الذين حفظ لهم ابن خلدون. تذكر أن لغطا شديدا جرى في حضرة النبي (ص) على أثر طلبه إحضار الدواة والقرطاس. وأنه صلى الله عليه وآله وسلم غضب في وجه عمر لما صدر عن هذا الأخير. فقد ذكر الطبراني في الأوسط: "...... " فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون ما يقول رسول الله (ص) قال، قال عمر: فقلت إنكن صويحبات يوسف إذا مرض رسول الله عصرتن أعينكن، وإذا صح ركبتن عنقه! قال: فقال رسول الله (ص): " دعوهن فإنهن خير منكم ".

وفي صحيح مسلم، إنه لما وقع الغوغاء، وضج النبي (ص) قال أهله: لا ينبغي عند النبي (ص) هذه الغوغاء، فاختلفوا، فقال بعضهم: احضروا ما طلب، ومنع آخرون، فقال النبي (ص) " ابعدوا ".

وإذا حاولنا اكتشاف هؤلاء الذين خالفوا، لن يكونوا إلا عمر بن الخطاب!.

ذلك ما ذكره أحمد بن حنبل في مسنده، مع تلطيف وتهذيب للعبارة بما لا يخدش في عمر بن الخطاب ولا يكشف عن سوء أدبه مع الأنبياء. قال عن جابر " إن النبي (ص) دعا عند موته بصحيفة ليكتب كتابا لا يضلون بعده، فخالف عمر بن الخطاب حتى رفضها ".

وفي نقلهم الحديث بالمعنى، دلالة على قمة ما بلغه كلام عمر من وقاحة تدل على ازدراءه واستهتاره بطلب النبي (ص) وانحطاط أسلوبه مع من جعل الله

الوصي على لسانه.

وإذا أردنا الإطناب في تلك الرزية، فلنذكر ما جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد وغيره، حول ما جرى بين عمر وابن عباس، عندما انتهى عمر إلى القول:

" لقد كان من رسول الله (ص) في أمره ذرو [١٩٥] من قول (أي في أمر علي (ع)) لا يثبت حجة ولا يقطع عذرا، ولقد كان يربع في أمره وقتا ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك، إشفاقا وحيطة على الإسلام، لا، ورب هذه البنية، لا تجتمع عليه قريش أبدا، ولو وليها لانتفضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله أني علمت ما في نفسه فأمسك،[١٩٦] وأبى الله إلا إمضاء ما حتم " [١٩٧].

وهذا يعني أن الرسول (ص) سكت لما علم موقف عمر من علي (ع) وإنه رافض لخلافته ومنازعه إياها. وهذا الكلام كله الذي جرى في حضرة الرسول (ص) لم يورده بن خلدون مخافة على فاروقه من تقريع التاريخ. ومخافة على مذهبه من الافلاس.

ولعمري، إن الفضيحة هذه المرة ظهرت على لسان ابن خلدون. وتجبره على النطق بما يشوه تدبير المحرفين. قال: " وأوصي بثلاث: أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأن يجيزوا الوفد كما كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة أو نسيها ا لراوي.

هذه العبارة تستبطن أمرا خطيرا، سكت عنه الرسول (ص) كما ذكر ابن خلدون. ولكن الأمر يختلف عما دبره. فالراوي هو الذي نسيها. وابن خلدون لم يذكر الراوي ولا خلفية النسيان والسكوت. ابن خلدون الذي نعى على المؤرخين السابقين تقليدهم في نقل الأخبار.

هاهو لم يستخدم ملكته في تحليل أحوال العمران. في اكتشاف الأيدي التي

---

[١٩٥] ذرو : طرف

[١٩٦] قلت : و من إمساك الرسول أن غضب و أخرجهم عنه .

[١٩٧] شرح النهج (٢١/١٢) .

عبثت بهذا الخبر. والعقول التي أسرفت في تحريف معناه. والخبر كما ذكره البخاري في كتاب الجهاد والسيرة من صحيحه هو. قال: ونسيت الثالثة.

غير أن ابن خلدون زاد ″ وسكت عن الثالثة ″. انتقاء لما يقوي مبناه ويسنده. والسكوت في الحقيقة كان من الراوي لا من الرسول (ص). والظاهر أنه قاله بعد أن منع إحضار الدواة والقرطاس عمر. وفي حضرة من أهل البيت، والرواية هنا كانت عن ابن عباس.

فتح باب أبي بكر، وذكر الخلة!

أقحم بن خلدون أثناء حديثه عن مرضه كثيرا من المرويات المزيفة إمعانا منه في التلبيس على القارئ. قال: قال الرسول (ص): "... " ثم قال: سدوا هذه الأبواب في المسجد إلا باب أبي بكر، فإني لا أعلم امرءا أفضل يدا عندي في الصحبة من أبي بكر. ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا. ولكن صحبته إخاء وإيمانا حتى يجمعنا الله عنده.

إن المتعمق في مباحث التاريخ الإسلامي. والمستوعب لأسفار الأخبار والأحاديث والسيرة. يدرك مقدار التحايل في سرد ابن خلدون لهذه الوقائع. فهي من جهة، قد تكون وقائع متفرقة، فيأتي ليرقعها بشكل يجعلها متكاملة ومنسجمة. ومن جهة ثانية يعمل على انتقاء الأخبار المنسجمة مع ما يقوم به من ترقيع. حتى وإن كان الخبر بلغ عند المحدثين والمؤرخين درجة من الشذوذ يدعو إلى الترك!.

وهذه العبارات التي أتى بها بن خلدون، هي من ذلك القبيل. والحبكة التي جمع فيها بين أكثر من واقعة متفرقة هي من تلك الحبكات المغرضة التي يبتغي بها صرف الناس عن موارد الحقيقة.

إن حديث الخلة التي أورده هنا لا يستقيم له سند فهو من موضوعات البكرية وكيف يكون الرسول (ص) في نهاية حياته يقول لأبي بكر " لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ".

وقد سبق وأن قال قبلها:

" الا اني أبرأ الى كل خليل من خلة [198] ".

كيف يكون الرسول يتمنى لو يكون أبو بكر خليلا له، وهو يبرأ من ذلك قبل موته بخمسة أيام.

كان ذلك من وضع البكرية لقاء ما ذكر من أحاديث في فضل علي (ع) وأخوته التي شهدت بها الأخبار عندما قال له الرسول (ص) " أنت، أخي وأنا أخوك " [199] في حادثة الإخاء الشهيرة. ولعل ذلك كان واضحا لابن خلدون. وهو من لم يذكر ما جرى بين رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب (ع) من إيحاء. بعد أن ذكر حادثة الإخاء كلها.

وبعد ذلك كله يحسن أن نذكر ابن خلدون بهذا السؤال: كيف يجري الحديث معه في تلك اللحظة التي لم يكن الرسول (ص) يطيق فيها رؤيتهم، بعد أن تخلفوا عن جيش أسامة ولعنوا بالتخلف عنه. فتأمل مليا يرحمك الله!.

أما بالنسبة لحديث: " سد الأبواب " فهذا مما روي في فضائل علي (ع) فتم تحريفه من قبل جماعة البكرية. وراج في زمن بني أمية. وقد كانت تلك فضيلة لعلي (ع) قبل وفاة الرسول (ص) وتعارف عليها الصحابة منذ ذاك العهد. وقد جاء ابن خلدون بهذا الخبر على شذوذه، انتصارا للبكرية وتهميشا لعلي (ع).

وحديث سد الأبواب مما اشتهر عند المحدثين في شأن علي (ع) وقد روي كالتالي:

إن النبي (ص) أمر بسد الأبواب إلا باب علي (ع) فتكلم الناس، فخطب رسول الله (ص) فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، والله ما سددت شيئا ولا فتحته وإنما أمرت بشئ فاتبعته [200].

---

[198] مسلم (٩/٥)

[199] فرائد السمطين (١٢٦/١) و كفاية الطالب (١٩٢) و الترمذي (٦٣٦/٥ ح ٣٧٢٠) و كنز العمال (٥٩٨/١١) و مصابيح السنة (١٧٣/٤) و مناقب المغازلي (٣٧)

[200] مسند أحمد (٣٦٩/٤) و خصائص النسائي (٥٥) و الحاكم (١٢٥/٣) و الترمذي (٦٤١/٥ ح ٣٧٣٢) و الصواعق المحرقة (١٢٤)

وهناك مختلف الطرق التي روي بها هذا الحديث:

١ - قال زيد بن أرقم (٢٥) " كان للنفر من أصحاب رسول الله أبواب شارعة في المسجد فقال رسول الله (ص) سدوا هذه الأبواب إلا باب علي فتكلم الناس في ذلك فقام رسول الله (ص) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علي فقال فيه قائلكم وإني والله ما سددت شيئا ولا فتحته ولكني أمرت بشئ فاتبعته " [٢٠١].

٢ - أخرج البزار، " إن رسول الله (ص) أخذ بيد علي فقال إن موسى سأل ربه أن يطهر مسجده بهارون وإني سألت ربي أن يطهر مسجدي بك، ثم أرسل إلى أبي بكر أن سد بابك فاسترجع ثم قال سمعا وطاعة ثم أرسل إلى عمر ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ثم قال (ص) ما أنا سددت أبوابكم وفتحت باب علي ولكن الله فتح بابه وسد أبوابكم [٢٠٢] ".

٣ - قال رسول الله (ص): " يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في المسجد غيري وغيرك [٢٠٣] ".

٤ - قال عمر بن الخطاب: " لقد أعطي علي ابن أبي طالب ثلاثا لأن تكون لي واحدة منها أحب إلي من حمر النعم، زوجته فاطمة بنت رسول الله وسكناه المسجد مع رسول الله محل له ما يحل فيه والراية يوم خيبر [٢٠٤] ".

ودعنا نلقي نظرة عما ذكره ابن أبي الحديد في شأن بعض المرويات التي وضعتها البكرية في مقابل ما جاء عن علي (ع) " فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث، نحو: " لو كنت متخذا خليلا " فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء ونحو سد الأبواب فإنه لعلي (ع) فقلبته البكرية إلى أبي بكر [٢٠٥] ".

---

[٢٠١] كنز العمال (٦١٨/١١ ح ٣٣٠٠٤) و مجمع الزوائد (١١٧/٩)

[٢٠٢] كنز العمال (١٧٥/١٣ ح ٣٦٢١)

[٢٠٣] الترمذي (٥ / ٦٤٠ ح ٣٧٢٧) و كنز العمال (٦٢٦/١١ ح ٣٣٠٥٢)

[٢٠٤] المستدرك (١٢٥/٣) و الصواعق (١٢٧)

[٢٠٥] شرح النهج (٤٩/١١)

أقول وكيف يكون (أبو بكر) خليلا له وقد رده عن تبليغ براءة وأعطاها عليا (ع) ثم قال:

" أمرت ألا يؤدي عني إلا أنا أو أحد مني "، فلعلها القاصمة التي أيقظت حفيظة البكرية فراحت تبحث عن مقابل لهذه الفضيلة.

إن ابن خلدون يردف حديث الخلة بزيادة، قائلا " ولكن صحبته إخاء وإيمان حتى يجمعنا الله عنده ". فالرسول (ص) هنا يعتبر صحبته إخاء. وهذا لا وجه له فيما كان في حادثة الإيخاء. فلو كان الأمر كما أورد ابن خلدون. إذا لكان الرسول (ص) أولى بأن يتخذ له في حادثة الإيخاء أبا بكر أخا، تعويضا عن تلك الخلة التي تمناها له.

ولكن ابن خلدون في حديثه عن المؤاخات ذكر بأن الرسول (ص) آخى بين أبي بكر وخارجة ابن زيد. ولقد جاء في الأخبار بتواتر، " أن رسول الله (ص) آخى بين الناس، وترك عليا حتى بقي آخرهم، لا يرى له أخا فقال: يا رسول الله (ص) آخيت بين أصحابك وتركتني؟ فقال: إنما تركتك لنفسي، أنت أخي، وأنا أخوك، فإن ذكرك أحد، فقل.

أنا عبد الله وأخو رسوله، لا يدعيها بعدك إلا كذاب "[٢٠٦].

وكذلك لو كان الأمر كذلك، إذن لكان أولى بأبي بكر أن يفوز بأخوة الرسول (ص) وبالمنزلة كما جاء في صحاح السنة " أما ترضى أن تكون مني بمنزل هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي "[٢٠٧].

هذه كلها قرائن تصرف الخلة عن أبي بكر. وتكشف عن أسباب التحريف والتزوير الذي قامت به البكرية وسار عليه العامة. وابن خلدون لا يجهل الصحاح. وهو الفقيه المالكي المتطرف. كيف أنه يتجاوز كل هذه الأخبار المتواترة ليركز على ما شذ وخالف. وذاك ضغن واضح منه.

---

[٢٠٦] فرائد السمطين (٢٢٧/١ و ٢٤٨) و المصنف (٤٩٧/٧) و المستدرك (١١٢/٣) و التذكرة (١٠٣) و كتاب السنة (٥٨٤) و شرح النهج (٦٠/٢ و ١١/٦٠)

[٢٠٧] مسلم (٢٣/٥) و البخاري (١٣٥٩/٣ ح ٣٥٠٣) و الترمذي (٦٤١/٥ ح ٣٧٣١) و الخصائص (٦٠)

صلاة أبي بكر

ثم ثقل به الوجع وأغمي عليه، فاجتمع إليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي، ثم حضر وقت الصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة: أنه رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك فمر عمر، فامتنع عمر وصلى أبو بكر. ووجد رسول الله (ص) خفة فخرج فلما أحس به أبو بكر تأخر فجذبه رسول الله (ص) وأقامه مكانه، وقرأ من حيث انتهى أبو بكر. ثم كان أبو بكر يصلي بصلاته والناس بصلاة أبي بكر، قيل صلوا كذلك سبع عشرة صلاة، وكان يدخل يده في القدح وهو في النزع فيمسح وجهه في الماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت. فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصبا رأسه، وأبو بكر يصلي فنكص عن صلاته ورده رسول الله (ص) بيده، وصلى قاعدا على يمينه، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوعظهم وذكرهم، ولما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب، وخرج إلى أهله في السنح، ودخل رسول الله (ص) في بيته فاضطجع في حجرة عائشة، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليه وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه وعرفت عائشة أنه يريده قالت:

" فمضغته حتى لان وأعطيته إياه فاستن به ثم وضعه، ثم ثقل في حجري فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص وهو يقول: الرفيق الأعلى من الجنة

فعلمت أنه خير فاختار [٢٠٨] ".

هذه الفقرة التي ختم بها ابن خلدون حديثه عن مرض الرسول (ص) تنطوي على حبكة مقصودة وتناقضات مفضوحة. فأما الحبكة فهي تكمن في عملية الانتقاء للخبر الواحد الذي تكاثرت وجوهه كما سنرى. وتكمن من جهة أخرى في جعل الأمور كلها تدور بين يدي أسرة ابن أبي قحافة.

فهناك أبو بكر الذي أمره بالصلاة على الناس، وهناك عائشة التي اضطجع في حجرها وهناك عبد الرحمن بن أبي بكر الذي دخل بسواك أخضر. هناك تعلق شديد أبداه رسول الله (ص) بهذه الأسرة التيمية. فهو يرتاح إلى حجر بنت أبي بكر ويرتاح لصلاة أبيها، ويريد سواك أخيها عبد الرحمن ليستن به. وإنها لعمري من روائع البكرية وشطحاتها. وتتأكد لنا الحبكة هنا في أن ابن خلدون لم يحكي لنا عما قام به أهل بيت الرسول (ص) أين كان علي (ع) وأين كانت فاطمة (ع) والحسنين (ع) في هذا الحدث رغم إنه لم يمنعهم عنه جرف ولا سنح!!.

وما هو ذلك العهد الذي عهد به إلى علي (ع) في آخر عمره. وماذا جرى بينه وبين بضعته الطاهرة، التي أحبها وفضلها على نساء العالمين. فالحبكة هنا مقصودة وواضحة في ثنايا الخبر.

أما التناقض المفضوح فهو في ما ذكره ابن خلدون في مفتتح كلامه عن مرض الرسول (ص) قال: قال رسول الله (ص) " إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده. وفهمها أبو بكر فبكى فقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا ".

فالكلام هنا واضح لا يحتاج إلى تأويل. إن أبا بكر أدرك بوعيه الثاقب أن الرسول (ص) مقبل على الوفاة. وأنه معرض لها ابتداء من تلك الساعة وفي أي لحظة من تلكم اللحظات. غير أنه في مختتم كلامه، قال:

" قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعمة الله وفضله كما نحب، وخرج إلى أهله في السنح [٢٠٩] ".

---

[٢٠٨] تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٦ ج ٢.

[٢٠٩] تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٦ ج ٢.

فكيف يراه بخير وقد عصب رأسه وهو كما ذكر بن خلدون، كان يدخل يده في القدح وهو في النزع فيمسح وجهه في الماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصبا رأسه ″.

إن الرسول (ص) كان يعاني حرارة الموت، وإنه في اللحظات الأخيرة من عمره. ثم يعود فيورد كلام أبي بكر ″ أراك أصبحت بنعمة الله ″ فآثار الترقيع واضحة للبيب، وعملية الاختلاق ظاهرة في تدليس بن خلدون رضوخا للرغبة المذهبية والنزوع البكري. وبعد ذلك لا بد أن نشير إلى ملاحظتين في هذا النص المختلق:

الملاحظة الأولى، حول صلاة أبي بكر.

الملاحظة الثانية، حول موت النبي (ص) وهو في حجر عائشة.

الملاحظة الأولى:

هناك ما يجلي اهتزاز النص من أساسه في مسألة صلاة أبي بكر. لقد ثبت في الأخبار أن عليا (ع) لم يبرح رسول الله (ص) طيلة فترة مرضه. وأنه بقي ملازما له حتى انتهى من دفنه. وهو لولا ذلك الانشغال لما فاته أمر السقيفة. أين إذا كان موقعه من تلك الصلاة وهل كان يصلي بصلاة أبي بكر أم بصلاة الرسول (ص) ولماذا لم يذكروا وجوده في هذه الصلاة، التي أتاها الرسول (مر) وهو متكئ على العباس والإمام علي (ع) إن البكرية التي اصطنعت هذه الأحاديث تريد أن تجعل أبا بكر ذا حضور مكثف في كل المواطن. في وفاة الرسول وفي السقيفة وهذا أمر مستحيل. فأبو بكر دعي لتجهيز جيش أسامة وعدم التخلف عنه.

وكان الرسول (ص) حسب ما جاء في الأخبار متشبثا بإنفاذ جيش أسامة حتى اليوم الذي توفي فيه كما سننقل في النص الآتي وأن طيلة السبع عشرة صلاة لم يكن الرسول (ص) يطيق رؤية من أنفذهم في جيش أسامة وكان يزجرهم كلما ظهر له أحدهم. وكانوا طيلة ذلك الوقت معسكرين بالجرف خارج المدينة.

فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشر من هجرة

رسول الله أمر رسول الله (ص) الناس بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد. فلما كان يوم الأربعاء بدئ به المرض فحم وصدع فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءه بيده فخرج وعسكر بالجرف. وذكر صاحب الطبقات:

" وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاء يقول: إن رسول الله يموت فاقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله (ص) وهو يموت فتوفي حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ".

إذن فالرواية تثبت لنا أن هناك غياب كامل لأبي بكر من أحداث الموت. وأنه لم يقضي معه الوقت الكافي لإجراء حديث معه بذلك الشكل، والصلاة بالمسلمين لغاية سبعة عشر صلاة. فهناك باختصار قرائن تثبت غياب أبي بكر عن كل ما جرى في بيت النبي (ص) وأنه لم يصل بالناس سبعة عشر صلاة حتى وفاة النبي (ص) وهي:

١ - أبو بكر كان من المعسكرين بالجرف منذ يوم التجهيز الخميس إلى الاثنين، أي عند رجوع الناس من الجرف.

٢ - في تلك اللحظات المعدودة التي بقيت من يوم الاثنين، كان أبو بكر بالسنح.

إن وجود أبي بكر في حضرة الرسول (ص) يصلي بالمسلمين، يعني أن أبا بكر لم يكن حاضرا بالجرف.

وهذا يدل على أنه كان من الذين تخلفوا عنه. فكيف يسمح له الرسول (ص) بذلك وهو قد لعن كل متخلف عنه. فتأمل.

لقد أورد ابن خلدون خبر صلاة أبي بكر. وانتقى وجها من وجوه الرواية التي تعددت حبكاتها بشكل متناقض، واختار منها ما هو مناقض الرسول (ص) صلى عن يمينه وهو يصلي عن يساره. فيصلي هو بصلاة النبي (ص) والمسلمون يصلون بصلاة أبي بكر. وهذه بأمي وأبي، هي الفوضى الفقهية التي اتصفت بها البكرية المختلقة لهذه الواقعة. إذ كيف يأتم أبو بكر بالرسول (ص) من جهة اليسار.

وكيف أن المسلمين عزفوا عن الائتمام برسول الله (ص) وصاروا على هذه الواسطة الثقيلة والمملة. بأي مقياس فقهي هي شرعية هذه الصورة من الصلاة.

أما فيما يخص متن الخبر فحدث ولا حرج. لقد ورد بطرق مختلفة جدا ومتناقضة، فمرة يذكرون أن عائشة قالت لبلال مر أبا بكر فليصل بالناس، وقالت حفصة مروا عمر فليصل بالناس. مرة يذكرون أن عمر صلى ثم سمع رسول الله صوته، فغضب وقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. وغيرها من الطرق المتعارف عليها عند محدثي العامة. والتي تتناقض في وجوهها إلى حد الغثيان!.

لكن ابن خلدون - وتلك عادته - انتقى من ذلك الخليط المتضارب، ما يصلح لحبكته من دون أن يثير بحوافر التدليس نقع الشبهات. وكانت عائشة كما ثبت في الأخبار هي راوية هذا الحديث إضافة إلى ما ادعته من وفاة رسول الله ورأسه في حجرها، أو بين سحرها ونحرها، وكان ابن خلدون على علم بكل هذه الاختلاقات. لكن منطق الانتقاء ضروري لكل من هم بحبك الأحداث التاريخية وتزويرها.

الملاحظة الثانية

لا مجال لمناقشة الأسباب التي دعت عائشة إلى ادعاء وفاة الرسول (ص) في حجرها فإن عداوتها للإمام علي (ع) وهي من ألبت عليه الوفا من المنافقين وقد حصى عليها التاريخ تلك الضغائن الكثيرة لبني هاشم، لكن قضيتنا هنا ترتبط بالمؤرخ المحرف للأحداث.

فابن خلدون جاء بهذه الرواية كعادته في الانتصار لتيار البكرية.

ودعنا نرى - هنا هل إن وفاة الرسول (ص) كانت كذلك في واقع الأمر؟.

قالت أم سلمة: " والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهدا برسول الله (ص) إلى أن قالت: فأكب عليه رسول الله (ص) وجعل يساره ويناجيه ثم قبض رسول الله (ص) من يومه ذلك فكان علي أقرب الناس عهدا به [٢١٠] ".

---

[٢١٠] مستدرك الحاكم (١٣٨/٣)

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري إن كعب الأحبار سأل عمر فقال: ما كان آخر ما تكلم به رسول الله (ص) فقال عمر: سل عليا فسأله كعب فقال قي.

أسندت رسول الله (ص) إلى صدري فوضع رأسه على منكبي فقال: الصلاة، الصلاة، قال كعب كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أمروا وعليه يبعثون.

قال كعب فمن غسله يا أمير المؤمنين، فقال عمر سل عليا، " فسأله فقال: كنت أنا أغسله [٢١١] ".

وقيل لابن عباس: أرأيت رسول الله (ص) توفي ورأسه في حجر أحد؟

قال: نعم توفي وإنه لمستند إلى صدر علي، فقيل له: إن عروة يحدث عن عائشة أنها قالت: توفي بين سحري ونحري، فأنكر بن عباس ذلك، قائلا للسائل: أتعقل؟ والله لتوفي رسول الله (ص) وإنه لمستند إلى صدر علي وهو الذي غسله [٢١٢].

وفي رواية أخرى عن أم سلمة قالت: والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهدا برسول الله (ص) عدناه غداة وهو يقول: جاء علي؟ جاء علي؟مرارا فقالت فاطمة كأنك بعثته في حاجة قالت: فجاء بعد، فظننت أن له حاجة، فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب، قالت أم سلمة: " وكنت من أدناهم إلى الباب، فأكب عليه رسول الله (ص) وجعل يساره ويناجيه، ثم قبض (ص) من يومه ذلك، فكان أقرب الناس به عهدا [٢١٣] ".

وحسبك من ذلك ما دل عليه الحال في حياة الرسول (ص) إذ كان له مجلس خاص مع علي (ع).

وقد ذكروا أنه كان كثيرا ما يخلو بعلي يناجيه. وقد دخلت عائشة عليهما وهما يتناجيان فقالت: " يا علي ليس لي إلا يوم من تسعة أيام أفما تدعني يا ابن أبي طالب ويومي. فأقبل رسول الله عليها وهو محمر الوجه غضبا [٢١٤] ".

---

[٢١١] طبقات ابن سعد (٢٦٢/٢)

[٢١٢] طبقات ابن سعد (٢٦٣/٢)

[٢١٣] المستدرك (١٣٨/٣) و التذكرة (٤٦)

[٢١٤] شرح النهج (٢١٧/٦)

وقال الإمام علي (ع): " كان لي من رسول الله (ص) مدخلان: مدخل بالليل، ومدخل بالنهار. فكنت إذا أتيته وهو يصلي تنحنح ".

كيف بعد كل هذا الحرص على مناجات علي (ع) وهو لا يزال بين أظهرهم. كيف يزهد في وجوده، وهو مقبل على الغياب. هل يعقل ذلك عند كل ذي لب، رشيد!.

وما كان ذلك جهلا من ابن خلدون في حفظ الأحداث. ولا غباء منهم في انتقاء الأخبار، إنها حبكة مدبرة ونزعة مستترة. وذلك عندما ذكر أبي بكر في دفن الرسول (ص) فقال:

واختلفوا أيدفن في مسجده أو بيته، فقال أبو بكر: سمعته (ص) يقول:

" ما قبض نبي إلا ويدفن حيث قبض. فرفع فراشه الذي قبض عليه وحفر له تحته [٢١٥] ".

وهذه واحدة من كبريات الهناة في مشروع التدليس الخلدوني وقد سبق أن ذكرنا عدم حضور أبو بكر وعمر في تغسيل الرسول (ص) ودفنه وقد جاء في الأخبار ما يسند ذلك.

إذ بينما علي (ع) دائب في جهاز رسول الله، فمضيا - عمر وأبو بكر - مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم [٢١٦] .

وذكر أبو ذئيب الهذيلي: قدمت المدينة ولها ضجيج كضجيج الحاج إذا أهلوا بالإحرام فقلت:

مه؟ قالوا: قبض رسول الله (ص) فجئت إلى المسجد فوجدته خاليا، فأتيت بيت رسول الله (ص) فأصبت بابه مرتجا، وقيل: هو مسجى. وقد خلا به أهله، فقلت: أين الناس؟ فقيل في سقيفة بني ساعدة صاروا إلى الأنصار [٢١٧] .

فكيف تهيأ للوضاعين ومصدقيهم إن أبا بكر الذي سار إلى السقيفة مع فاروقه

---

[٢١٥] تاريخ ابن خلدون (٤٦٧/٢)

[٢١٦] تاريخ الطبري (٢١٩/٣)

[٢١٧] أسد الغابة (١٨٩/٥) و الإستيعاب (١٦٤٩/٤)

بعد أن غلق الباب دون الرسول (ص) وانطلقا إلى السقيفة. كيف يحضر دفن الرسول (ص) ويقوم هو بالحفر والدفن، فهل البكرية تريد لأبي بكر أن يكون له حضور سحري في كل واقعة في السقيفة والدفن، في السنح والمرض، في الجرف والصلاة، هذا إسراف مبين!.

لكن الحقيقة هي أن أبا بكر وعمر انشغلا بمجالدة الناس وقهرهم على البيعة، ولم يحضرا الدفن.

وقد سبق أن ذكرنا ما جاء في أخبارهما من أن " أبا بكر وعمر لم يشهدا دفن النبي "[٢١٨].

كما جاء في الخبر أنه " لم يله إلا أقاربه ولقد سمعت بنو غنم صريف المساحي حين حضر وإنهم لفي بيوتهم "[٢١٩].

أما الذي تولى دفنه فهو علي (ع) وأهل بيته لما جاء في طبقات بن سعد:

" ولي وضع رسول الله في قبره هؤلاء الرهط الذين غسلوه: العباس وعلي والفضل وصالح مولاه وخلى أصحاب رسول الله بين رسول الله وأهله فولوا إجنانه ".

هذه كلها بداية لما سيحدث في سقيفة بني ساعدة. وابن خلدون من البداية يحضر طبخاته، ويذري عليها من بهارات النصب ما يعمق الجهل ويعمي الأبصار. ويدخل التاريخ في حالة من الخاووس (caos).

---

[٢١٨] انظر كتابنا هذا (ص١٢٦)

[٢١٩] طبقات ابن سعد (٣٠٤/٢)

خبر السقيفة

هناك ثلاثة أمور نستفيدها مما سبق ذكره في تحليل أمر السقيفة.

أولا: أنها مؤتمر فاقد للشرعية من حيث ترتبه على موقف مخالف، وهو التخلف عن جيش أسامة.

ثانيا: أنها لم تكن بحضور جميع الصحابة فهي إذن ليست شورى.

ثالثا: منيت بمعارضة من قبل أعداد كبيرة من رموز الصحابة.

في ضوء هذه النقاط الثلاث التي استفدناها من خلال سردنا لأحداث السقيفة سوف نناقش ابن خلدون وهي الآن بمثابة فرضيات لمزاولة التحليل.

جاء في نص ابن خلدون حول السقيفة " فأتوهم في مكانهم ذلك - يقصد أبو بكر وعمر وأبو عبيدة - فأعجلوهم عن شأنهم (يقصدون الأنصار) وغلبوهم عليه جماعا وموعظة " [٢٢٠].

إن أول إطلالة على هذا النص الذي افتتح به صاحبنا حديث السقيفة، يؤكد على الموقف النظري لابن خلدون من مسألة الإمامة. وكذلك يؤكد على الواقع التاريخي الذي كان سببا في نشوء مثل هذه النظريات. إنها نظرية الإمامة القائمة على أساس الغلبة.

---

[٢٢٠] تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٨ ج ٢.

قال أبو بكر: نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره، ولا ينازع في ذلك وأنتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وقال الحباب بن المنذر بن الجموح: منا أمير ومنكم أمير، وإن أبوا فاجلوهم يا معشر الأنصار عن البلاد، بأسيافكم وإن الناس لهذا الدين، وإن شئتم أعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب.

وقال عمر: " إن رسول الله (ص) أوصانا بكم كما تعلمون، ولو كنتم الأمراء لأوصاكم بنا " [٢٢١].

قبل السير في كشف آثار التلبيس في هذا النص، يجدر بنا أن نعري أيضا عن (٤٥) ذلك الجو الذي أودعوه خبر السقيفة. ابن خلدون يجعل خبر السقيفة بحيث يفيد القارئ بمدى تلقائية اجتماع أبي بكر وعمر أبي عبيدة. والواقع يثبت عكس ذلك. إن هناك خطة مدبرة سلفا يتزعمها أولئك الثلاثة. ولست ممن يستسيغ أن يكون هذا الحلف قادرا بتلقائيته الانتصار على الأنصار إن لم يكن هناك تدبير مسبق.

ذكر ابن أبي الحديد: " إن عمر لما علم أن رسول الله قد مات خاف من وقع فتنة في الإمامة وتغلب أقوام عليها، إما من الأنصار أو من غيرهم، فاقتضت المصلحة عنده تسكين الناس فأظهر ما أظهر وأوقع تلك الشبهة في قلوبهم حراسة للدين والدولة إلى أن جاء أبو بكر [٢٢٢] ".

وهذا الكلام يفيد في أن قضية الخلافة كانت متواجدة في ذهن عمر بن الخطاب وينتظر مجئ أبي بكر ليبدأ تحركهما في هذا المجال والأمر آنذاك كان يقتضي تسكين المسلمين وبث الشبهة في أذهانهم وإشغالهم بذلك ربما للوقت ولا يعنينا

(و غلبوهم عليه جماعا و موعظة) و لعل كلمتي (جماعا وموعظة) هي لغز زائد عند ابن خلدون وامعانا منه في تنسيق موقف الشيخين فيما زاولوه من قمع وإرهاب للأنصار . دعنا نتابع الأمر لنرى هل فيه ما يصدق كلام بن خلدون ؟!

---

[٢٢١] تاريخ ابن خلدون (٤٦٨/٢)

[٢٢٢] شرح النهج (٤٣/٢)

ذكر هذا الأخير احتجاج كل من ابي بكر و عمر بن الخطاب على هذا النحو :

ما رامه ابن أبي الحديد من أن ذلك كان بمقتضى المصلحة في حراسة الدين والدولة.

وذكر الشهرستاني قول عمر بن الخطاب : كنت أزور في نفسي كلاما في الطريق: فلما وصلنا إلى السقيفة أردت أن أتكلم فقال أبو بكر: مه يا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ما كنت أقدره في نفسي؟ كأنه يخبر عن غيب، فقبل أن يشتغل الأنصار بالكلام مددت يدي إليه فبايعته وسكنت الفتنة، إلا أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه " [٢٢٣].

وفي نص البخاري، قال عمر: " فأردت أن أتكلم فقال أبو بكر على رسلك فتكلم هو، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال مثلها أو أفضل [٢٢٤] ".

إذا هناك تدبير مسبق حاول عمر أن يعزوه إلى الاتفاق لإبعاد تهمة التآمر عليه.

ذلك التآمر الذي كشف عنه الإمام علي (ع) عندما قال له: إحلب حلبا لك شطره [٢٢٥].

وقال: لشد ما تشطرا ضرعيها [٢٢٦] فهناك إذن تزوير، وهناك موافقة من أبي بكر. وهذا أمر لا تنطلي خلفيته على اللبيب!.

ثم لنعد إلى ما اعتمده ابن خلدون من رواية. لنرى هل ما قاله عمر في السقيفة هو كما ذهب إليه؟!.

أورد ابن خلدون نصا لا يوافق نصوص المؤرخين والمحدثين الذين اعتمدهم

---

[٢٢٣] الملل و النحل (٧) و الصواعق (١٠) و تاريخ الطبري (٢٠٥/٣) و الكامل (٣٢٧/٢)

[٢٢٤] الصواعق المحرقة (١٠) و الأنساب (٥٨٤/١)

[٢٢٥] شرح النهج (١١/٦) و الأنساب (٥٨٧/١)

[٢٢٦] شرح النهج (١٦٢/١)

ووثق رواياتهم، فعمر بن الخطاب لم تكن له كلمة في السقيفة على نحو هادئ يثير العقل ويحرك الحوار.

بل كان – كدأبه – فظا غليظ القلب، وحسبك ما جرى بينه والحباب بن المنذر، وسعد بن عبادة من مشادات كلامية، وصل بعضها إلى العراك والهم بامتشاق السيوف.

وفي الروايات التي ذكرها المؤرخون، هناك محاولة أبداها عمر للكلام، فأسكته أبو بكر.

ثم لم يعد بعدها إلا ليجالد الآراء ويشوشر على الحضور. ففي رواية الطبري:

تكلم أبو بكر – بعد أن منع عمر عن الكلام – وحمد الله وأثنى عليه [٢٢٧] ".

ولم يتحدث بعدها عمر حتى قال فقال عمر: " هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن – يقصد الحباب بن المنذر – والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته. إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة " [٢٢٨].

ثم لما تكلم الحباب بن المنذر وأغلظ في القول أجابه عمر:

قال عمر: " إذن يقتلك الله [٢٢٩] ".

وفي نص ابن قتيبة [٢٣٠] " قال عمر: خشيت أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام، فلما تيسر عمر للكلام، تجهز أبو بكر وقال له: على رسلك: فاستكفى الكلام، فتشهد أبو بكر ".

---

[٢٢٧] تاريخ الطبري (٢١٩/٣)

[٢٢٨] تاريخ الطبري (٢٢٠/٣)

[٢٢٩] تاريخ الطبري (٢٢١/٣)

[٢٣٠] الأمامة و السياسة (٢٣)

لقد خالف ابن خلدون ما اشتهر عند المؤرخين في خبر السقيفة. وانتقى من الشاذ ما يجعل به لعمر موقفا احتجاجيا، عندما رد على المنذر. فهو لم يرد عليه إلا بالقتل حين قال له: إذن يقتلك الله؟.

فمن أين ورد على ابن خلدون، إنه رد عليه بذلك المنطق السابق.

والحقيقة أن ذلك لم يحدث قط في السقيفة. وما كان ذلك إلا من كلام علي (ع) حين أخبر بموقف الأنصار فقال:

ما قالت الأنصار.

قالوا: قالوا منا أمير ومنكم أمير.

قال: فهلا احتججتم عليهم بأن النبي (ص) وصى بهم.

ثم قال: فلو كانت فيهم الإمارة ما أوصى بهم الرسول [٢٣١] .

فثم هذا التحريف للكلمة وهي سرقة تاريخية مكشوفة. ليلعب دورين مغرضين. الأول: إعطاء عمر موقفا مشرفا في السقيفة. واقتطاع نص الإمام علي (ع) ونسبه إلى عمر، لاختلاق سمعة مزيفة لمه. والثاني: تغييب دور الإمام علي (ع) ومنطقه في دحض مزاعم المغتصبين.

ويذكر عمر أن هناك ملاحات وقعت بين عمر والمنذر بن الحباب. ولم يشر إلى تفاصيل تلك الملاحات، التي ذكرنا سابقا. وذلك محاولة منه في إخفاءه منطق العنف في موقف عمر داخل السقيفة.

---

[٢٣١] شرح النهج (٣/٦)

سعد الخزرجي وأساطير الجن!

ابن خلدون أحد المؤرخين الذين رفع البلاط من شأنهم وجعلهم أنوارا تشعشع في سماء الفكر التاريخي والعقلانية الإسلامية. لم يكن إلا ما لاحظه دارسوه ممن أدرك مواطن تخلفه الفكري ورجعيته بأن عقلانيته لم تبرح بعضا من تلك الأفكار حول العمران وأحوال المعاش.

في حديثه عن سعد بن عبادة ارتكب غلطتين لو كانت واحدة منهما لكفت.

الأولى: عندها اعتبر سعدا مخالفا ومعارضا وحيدا للسقيفة " ولم يخالف إلا سعد إن صح خلافه، فلم يلتفت إليه لشذوذه [٢٣٢]

الثاني: هو ما ختم به حديث السقيفة عندما ذكر مقتله عن طريق الجن!؟.

وقد سبق أن وضعنا عدد الصحابة المعارضين لما ادعاه من إجماع السقيفة ومنهم رموزها وطلائعها الكبار الذين شهد لهم الرسول (ص) بالفضل. وحسبك من ذلك أقرباء الرسول (ص) وفي طليعتهم الإمام علي (ع) وما جرى من قمع وإجبار لانتزاع البيعة من المعارضين.

الأمر الذي انتهى بتهديد فاطمة الزهراء ومحاولة حرق الدار. وغيرها من الأحداث الخطيرة التي سكت عنها ابن خلدون.

أما ما ذهب إليه في مقتل سعد بن عبادة. فجدير بمن سلك طريق العقل في

---

[٢٣٢] تاريخ ابن خلدون ص ٤٦٩ ج ٢.

تحقيق الأخبار أن يدرك تهدل هذا الخبر، وسذاجة الأسطورة. قال:

وفي أخبارهم إنه لحق بالشام، فلم يزل هنالك حتى مات، وأن الجن قتلته، وينشدون البيتين الشهيرين وهما:

ونحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

فرميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

ويكفي أن نطلع على موقف سعد بن عبادة الذي واجه عمر في السقيفة إلى أن تماسكا، حتى دعاه أبو بكر إلى الرفق. وتمسك سعد بموقفه، إذ لم يبايع حتى مات. وعمر بن الخطاب الذي هم بحرق دار فاطمة، وقتل علي (ع) إن لم يبايع. كيف يزهد في تدبير قتل سعد بن عبادة. وهل الجن هي أيضا ممن يدعوها الاتفاق إلى تخليص الشيخين من أحد أقطاب المعارضة. وكان المؤرخون دائما يعملون على حبك الأخبار المزيفة، حتى ولو اقتضى الحال إكمالها بالأساطير، التي استساغها ولا يزال الذهن العربي.

لقد دعاهم لقتل سعد بن عبادة في جنح الظلام أمرين:

أولا: إن سعدا أبى المبايعة. وقد قال عمر لأبي بكر: لا تدعه حتى يبايع.

فالمعنى من ذلك أنه إذا لم يبايع يجب أن يقتل.

ثانيا: لأن قتله مباشرة قد يحدث نوعا من القلاقل لا طاقة للشيخين بها ذلك أن بشير بن سعد قال لعمر حين قال ما قال:

" إنه قد لج وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل. وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه فليس تركه بضاركم إنما هو رجل واحد [٢٣٣] ".

وكان قد بقي على ذلك الموقف حتى ولي عمر بن الخطاب.

دعنا هنا مرة أخرى نستقصي الخبر.. لنعرف من الذي نفذ جريمة القتل في رجل حمل راية الأنصار في فتح مكة.

---

[٢٣٣] تاريخ الطبري (٢٢٢/٣)وتاريخ ابن الأثير(٣٣١/٢).

ذكر ابن سعد: " إنه جلس - أي سعد - يبول في نفق فاقتتل فمات من ساعته ووجدوه قد أخضر جلده [٢٣٤] ".

ولست أدري، كيف انتقل الخبر عندهم. وهل عرفوا إنه بال في الماء أم لا. وهل شهدوا الجني الذي قتله، وما قال في قتله. إذن لا بد من وجود راوي قد نقل لهم تفاصيل الواقعة.

الناقل بلا شك - كان - هو قاتل سعد!.

وذكر المسعودي حادثة قتل سعد بن عبادة كالتالي:

" وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع فصار إلى الشام، فقتل هناك في سنة خمس عشر، وليس كتابنا هذا موضعا لخبر مقتله [٢٣٥] ".

إذن فقتل سعد بن عبادة كان في طريقه إلى الشام. ولكن السؤال الذي يطرح هنا بإلحاح:

من سيره إلى الشام. وهل هناك من كان على علم بمسيره إلى الشام؟.

ذكر ابن سعد في طبقاته: لما ولي عمر الخلافة لقيه في بعض طرق المدينة.

فقال له: إيه يا سعد؟.

فقال له: إيه يا عمر؟.

فقال له عمر: أنت صاحب المقالة؟.

قال سعد: " نعم أنا ذلك، وقد أفضى إليك هذا الأمر كان والله صاحبك أحب إلينا منك [٢٣٦].

وقد أصبحت والله كارها لجوارك.

---

[٢٣٤] طبقات ابن سعد (٦١٧/٣) و مختصر تاريخ دمشق (٢٤٦/٩) و الإستعاب (٥٩٩/٢) و العقد الفريد (٢٥٩/٤-٢٦٠) و شرح النهج (١١١/١٠ و ٢٢٣/١٧) و الانساب (٥٨٩/١)

[٢٣٥] مروج الذهب (٣٠٧/٢)

[٢٣٦] أقول : هذه الكلمة لا تفيد اعترافة بابي بكر ، اذ كان الأمر كما قال ، لبايعه في حياته .

فقال عمر: من كره جوار جار تحول عنه.

فقال سعد: ما أنا غير مستسر بذلك وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك، فلم يلبث إلا قليلا حتى خرج إلى الشام في أول خلافة عمر.. الخ [٢٣٧]".

وجاء في تبصرة العوام [٢٣٨]، إن خالدا كان في الشام فأعان على قتله.

الآن وقد ظهرت المؤامرة على حقيقتها. هل نتورع عن اتهام عمر. وهو من علم بمسير سعد. وهو الذي أوكل قتله إلى أحد أنصاره بالشام. ترى هل بقي أثر لمؤامرة الجن على سعد بن عبادة المسكين. ثم ماذا؟.

هناك ما يشفي الغليل ويريح البال في خبر مقتل سعد. تظهر واضحة لكل لبيب يتفهم ويعي المنطوق في ضوء مفهومه. والظاهر في وعي الباطن. والحضور في لوحة الغياب!.

ذكر البلاذري، إن سعدا لم يبايع أبا بكر وخرج إلى الشام فبعث عمر رجلا، وقال:

ادعه إلى البيعة واحتل له، فإن أبى فاستعن الله عليه، فقدم الرجل الشام فوجد سعدا في حائط بحوارين فدعاه إلى البيعة.

فقال؟ لا أبايع قريشا أبدا.

قال: فإني أقاتلك.

قال: وإن قاتلتني.

قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟.

قال: أما من البيعة فإني خارج، فرماه بسهم فقتله [٢٣٩].

وهذه واحدة من النماذج التي تظهر نزعة التلبيس في تاريخ ابن خلدون!.

---

[٢٣٧] طبقات ابن سعد (٦١٦/٣) و السيرة الحلبية (٤٨٣/٣) و مختصر تاريخ دمشق (٢٤٥/٩) و شرح النهج (١٠/٦)

[٢٣٨] تبصرة العوام (٣٢)

[٢٣٩] أنساب الأشراف (٥٨٩/١)

خلافة عمر

جاء في تاريخ ابن خلدون: ״ ولما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر، رضـي الله عنهما بالأمر من بعده، بعد أن شاور عليا وطلحة وعثمان وعبـد الـرحمن بـن عـوف وغيرهم، وأخبرهم بما يريد فيه، فأثنوا عليه رأيه فأشرف على الناس وقال: إنـي قد استخلفت عمر لو آل لكم نصحا فاسمعوا لـه وأطيعـوا ودعـى عثمـان فـأمره فكتب ״ [٢٤٠].

افتتح ابن خلدون عهد عمر بن الخطاب بهذه الفقرة. وجعلهـا بحيـث تبـدو مقنعة شافية، بعد أن أودعها فتوقا وثلما أفسدت المقـصود الـواقعي لهـذا الـنص التاريخي، ذلك عندما لم يشر إلى ما شهدته تلك اللحظة الحرجة من استخلاف عمـر بـن الخطـاب، مـن مـشادات كلاميـة، تبـين إلـى أي حـد وصـلت قناعـة الصحابة برفض هذا الرجل، وتبين أيضا، الشق الثاني للعبـة الـسقيفة التـي أشـار إليها من قبل علي (ع) حين قال: إحلب حلبا لك شطره.

إن السقيفة يمكننا قراءتها بـشكل واضـح علـى هـذه الـصفحة الاسـتخلافية المهمة، لأنها تعبير واضح عن منهجها، وامتداد حقيقي لها.

ولعمري، هذا ما دفع ابن خلدون إلى التجافي عن عرض وقـائع اسـتخلاف أبي بكر لعمر، تجنبا للوقوع فيما يعزز طـرح الناقـدين، وإمعانـا منـه فـي إكمـال سبك قراءاته المنحولة.

---

[٢٤٠] تاريخ ابن خلدون، ص ٤٩٤ ج ٢.

في الفقرة التي أوردناها عن ابن خلدون، نفهم الأمر على أساس مضلل نظرا لسرعة العرض والقفز على الوقائع الساخنة. وجاء فيها:

١ - عهد أبو بكر إلى عمر بالأمر من بعده بعد أن شاور عليا وطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم.

٢ - فأثنوا على رأيه - بلا استثناء -.

نبدأ بطرح هذا الإشكال على نص ابن خلدون. ونمضي بعد ذلك في مناظرته.

إن النص في شقه الأول يدعي أن أبا بكر شاور قبل العهد إلى عمر كل من علي وطلحة وعثمان و.....

فهل تم ذلك فعلا. وهل شاور عليا ولو افترضنا مشاورته إياه فماذا كان موقفه؟؟.

كما ادعى إن الذين أشاروا على أبي بكر كانوا قد أثنوا على رأيه فهل هذا صحيح؟.

في البدء لا بد من الإشارة إلى ملاحظة أساسية هي إنه لم يشتهر على علي (ع) إنه أشار على أبي بكر في أمر عمر. وكيف يشير عليه بذلك وهو نفسه يشعر باغتصابه الأمر من علي (ع).

وكيف يطلب منه المشورة وهو من كان في مقام المنازع له. وهو لم يبايع إلا بالإكراه.

وعلي بقي طيلة الفترة التي وليها تيار الاغتصاب من لدن أبي بكر إلى عثمان، معرضا عنهم، مبديا رأيه في فلتاتهم، ولعل ما جرى بين عمر وابن عباس، دليل على ذلك الإعراض. إذ سأل عمر بن عباس قائلا: يا عبد الله، عليك دماء البدن إن كتمتنيها، هل بقي في نفسه شئ من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله (ص) نص عليه؟ قلت نعم. [٢٤١].

---

[٢٤١] شرح النهج (٢٠/١٢).

وحسبك ما جاء في كلامه – عليه السلام – كما نقل في نهج البلاغة:

" حتى مضى الأول لسبيله – أي أبو بكر – فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده.

" شتان ما يومي على كورها   ويوم حيان أخي جابر "

فيا عجبا! بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته! لشد ما تشطرا ضرعيها! فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس، وتلون واعتراض فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة [٢٤٢].

إن كلام الإمام علي (ع) فيه بيان شافي لموقفه من تيار الاغتصاب. وذلك من بدايته إلى نهايته. وكان موقفه هو الصبر على طول المدة وشدة المحنة. وحاشا جنابه أن يكون مشيرا صغيرا يقرن بمن هو دونه في بعد الصيت وعلو الهمة والشأن.

وحاشاه أن يكون محض مشير في حضرة من قد غلبوه على الأمر واستلبوه منه بالغلبة.

وحسبك من معرفة موقفه من بيعة أبي بكر. أن تدرك ما قاله في حق عمر.

" فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها ".

فهو وصف يعزز موقف الصحابة من عمر أثناء العهد له بالأمر. هذا ناهيك عن أن أمر الخلافة يخرج بتخصص في مقام استجواب علي (ع) في أمر العهد والبيعة. إذ هي في عقيدته نص وعهد إلهي لا تدخل في وسع الرأي أو الغلبة.

ولو راجعنا التاريخ، وخصوصا تلك المصادر المعتمدة عند ابن خلدون لوجدنا بأن المشيرين عليه في الأمر كانوا هم عثمان وعبد الرحمن بن عوف وهؤلاء هم الذين دعاهم. وأما طلحة كان ممن دخل بعدهم بلا مشورة. ولا مكان لعلي (ع) بعدها. إلا تماديا من الوضاعين والمحرفين. لاظهر شديد يحمل دليليته ولا أساس

---

[٢٤٢] شرح النهج (١٦٢/١).

متين يقيم ادعاءه.

ولنمض مع ابن خلدون لنرى كيف كانت طريقة الشورى. وهل ثبت أن أثنوا على رأيه؟ أم أن الأمر لم يكن سوى محض تعقل وإسراف من ابن خلدون نفسه؟!

ذكر ابن قتيبة " إن عمر قد خرج بالكتاب وأعلمهم: فقالوا: سمعا وطاعة.

فقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا جعفر؟ قال: لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع. قال: لكني والله أدري ما فيه: أمرته عام أول وأمرك العام [٢٤٣] ".

ولندع رواية ابن قتيبة وهو ممن رفض بن خلدون الأخذ عنه في هذا المجال، لأنه لن يجد عنده ما هو مطاوع لتعمله ولا قابل لملاطفاته، وإن كان ابن قتيبة ممن مدحه أهل الرجال وأصحاب التراجم كصاحب الفهرست، وممن مارس القضاء بدينور من دون تزلف وشهد له بالعدالة. ولكن دعنا نعود إلى من وثقهم ابن خلدون وألزم نفسه بالأخذ عنهم، كابن جرير الطبري. لنقف عند " حقيقة ما جرى من هذه المشورة المفتعلة.

جاء في الأثر إن أبا بكر لما نزل به الموت دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر قال: إنه أفضل من رأيك إلا أن فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذاك لأنه يراني رقيقا، ولو قد أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه، وقد رمقته إذا أنا غضبت على رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه. ثم دعى عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر، فقال: سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله. فقال لهما: لا تذكروا مما قلت لكما شيئا، ولو تركت عمر لما عدوتك يا عثمان، والخيرة لك ألا تلي من أمورهم شيئا، ولوددت أني كنت من أموركم خلوا، وكنت فيمن مضى من سلفكم. ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر، فقال: إنه بلغني أنك يا خليفة رسول الله استخلفت عمرا، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت غدا لاق ربك، فيسألك عن رعيتك!.

فقال أبو بكر: اجلسوني ثم قال: أبالله تخوفني! إذا لقيت ربي فسألني قلت:

---

[٢٤٣] الإمامة و السياسة (٣٨/١)

استخلفت عليهم خير أهلك. فقال طلحة: أعمر خير الناس، فاشتد غضبه، وقال:

" إي والله، هو خيرهم وأنت شرهم، أما والله لو وليتك لجعلت انفك في قفاك، ولرفعت نفسك فوق قدرها، حتى يكون الله هو الذي يضعها! أتيتني وقد دلكت عينك، تريد أن نفتتني عن ديني، وتزيلني عن رأيي! قم لا أقام الله رجليك! أما والله لئن عشت فوق ناقة، وبلغني إنك غمصته فيها، أو ذكرته بسوء، لألحقنك بمحمضات قنة، فقام طلحة فخرج [٢٤٤] ".

ما يفهم من هذا النص. وما يظهر من ثناياه، أن أبا بكر كان متشبثا برأيه في عمر بن الخطاب، ولنرجع مرة أخرى إلى نص ابن خلدون: " بعد أن شاور عليا وطلحة وعثمان وعبد الرحمن وغيرهم. فأثنوا عليه ". فقد تبين لنا أن الأمر كان على خلاف ذلك الادعاء فعلي (ع) لم يشر بشئ. وكان موقفه الرفض للأول والثاني كما سبق من كلامه في النهج. وإن طلحة أجاب بالرفض حتى أثار حفيظة أبي بكر، وحصل بينهما ما شاء من سب وقدح. وأما عبد الرحمن فقد كان ثناؤه عليه مشوبا بموجدة على عمر. إذ قال: " إنه أفضل من رأيك إلا أن فيه غلظة ". وكان عثمان هو الذي أثنى عليه نزولا عند رغبة أبي بكر، وهوى على هواه. أما عموم الصحابة فقد رفضوا كما سبق ذكره، وهابوا خلافته وقالوا فيه ما قاله طلحة.

فكيف بعد كل هذا يدعي ابن خلدون، إن الثناء كان عفويا من الجميع. وجعل في الأمر من التلبيس ما يعكر صفو الحقيقة. ويكسر شوكة الصواب.

ولا بد من الوقوف عند خلافة عمر، وكتابة العهد، لينجلي لنا بعد تبيان مجمل اللعبة، أن نصوص ابن خلدون حولها مدخولة إلى المدى الذي يبدو منها التعسف الذميم والاعنات الممل!.

لقد سبق أن رأينا ما كان عليه الحال عند وفاة الرسول (ص) والتلبيس الذي قاموا به ليجعلوا من وفاة الرسول (ص) وفاة صامتة. وفاة رجل لا مسؤول، ولاهم له فيما يخص مستقبل أمته من بعد موته. لقد توفي وهو ساكت عن العهد.

---

[٢٤٤] شرح النهج (١٦٥/١) و تاريخ الطبري (٤٣٣/٣) و مصنف ابن أبي شيبة (٤٨٥/٧)

وحين أراد ذلك ألقمه عمر بتهمة الهجر. غير أن المقام عند وفاة أبي بكر اختلف تماما. فأبو بكر أبصر بالأمور، وأنه لا بد من العهد. وذلك درأ للخلاف من بعده. بعد أن ادعوا أن كتاب الله بين أيديهم ويكفيهم عن عهد الرسول (ص) من بعده بالأمر. لقد تصدى عمر أثناء مرض الرسول (ص) لقمع كل من رام إحضار الكتاب لرسول الله (ص) كما تقدم. وسنده في ذلك أن كتاب الله بين أيدينا ولا حاجة للعهد بعد ذلك، وأن الرسول يهجر من جهة أخرى.

هذا الموقف لم يعد نفسه يوم وفاة أبي بكر، لم يقل إن كتاب الله معنا ولا حاجة لنا بعهد أبي بكر، فعهد رسول الله (ص) أولى من ذلك وقد أعرضنا عنه، كما لم يقل في أبي بكر ما قاله في رسول الله (ص) لقد كتب أبو بكر العهد إلى عمر وهو في لحظة من الاغماء كما ذكر المؤرخون.

فقد ذكر الطبري، " إنه دعى أبو بكر عثمان فأمره أن يكتب عهدا، فقال:

أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد عبد الله بن عثمان إلى المسلمين. أما بعد، ثم أغمي عليه، وكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، وأفاق أبو بكر، فقال: اقرأ فقرأه، فكبر أبو بكر، وسر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله [٢٤٥] ".

هذا هو الجو الذي كتب فيه العهد، جو الاغماء والهجر الحقيقي. ولكن عمر بن الخطاب تأدب هذه المرة مع رفيقه. واستخدم أحسن الألفاظ وأسوغها وحث الناس على طاعة أبي بكر وتقبل ما عهد به إليه. وقد ثبت عنه يومها ما جاء في الأخبار: " إن عمرا كان جالسا والناس معه بيده جريدة ومعه شديد مولى لأبي بكر معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر، وعمر يقول:

" أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله أنه يقول: إني لم آلكم نصحا " [٢٤٦].

وقد ثبت أيضا أن عمر اعتبر خلافة أبي بكر فلتة. وذلك لأنها لم تكن بمشورة

---

[٢٤٥] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٢٩.

[٢٤٦] تاريخ الطبري (٤٢٩/٣)

من المسلمين، وهو هنا يتقبل عهد أبي بكر له بالأمر من دون أن يراجعه في ذلك أو يعتبره فلتة من جنس تلك الفلتة التي ذكرها.

كيف تقبل العهد من دون مشورة!.

إنني لست مرتاحا لهذه الحبكة المفضوحة، ولعمر الله، إن المؤامرة لبينة حتى لذي غرارة صغير، فهل ذلك مما ينطلي على أولي الألباب، وهل ابن خلدون يجهل ذلك أم أن الأمر محض تجاهل، ومن قبيل التعامي والتغاضي المقيت؟!.

إن عمر بن الخطاب لم يكن ممن حضر في بداية الأمر، ولم يشهد ما راج بين الصحابة وأبي بكر في ذلك الشأن، فهو مطمئن الجناب من هذا الأمر، فالمسألة اليوم ليست كما كانت عليه في سقيفة بني ساعدة. ولم يجن عمر ويتوعد بالقتل من قال بوفاة الرسول (ص) ولم يتهم بالهجر أبا بكر حين عهد له بالأمر، ولم يهرع لمجالدة الصحابة على رأيه في الأمر.

إن ابن خلدون لم يستعرض كامل الأحداث، ولم يشر إلى ملابسات العهد كما كتبه عثمان. ولا إلى قضية الاغماء، وكل ذلك تجنبا منه لعدم التعرض للاستفهام.

عثمان والفتنة

هناك ثلاث محطات أساسية تطرق إليها ابن خلدون في حديثه عن خلافة عثمان. وهي تلك التي عنون لها بـ)ببدء الانتفاض على عثمان، وحصار عثمان ومقتله).

كيف تناول ابن خلدون تلك الملابسات، وأي قدر من الصراحة ضمنها نصوصه حولها؟.

من ألب على عثمان ومن قتله ولماذا. من هم أنصاره ومن هم معارضوه وأعداءه؟.

كيف تمت عملية القتل ومن تولاها؟.

أسئلة كثيرة تضع تاريخ ابن خلدون أمام محك الحقيقة!.

هنا تركيز على نقطتين في استعراض ابن خلدون لأحداث ما يسمونه بالفتنة الكبرى.

١ - إن الذين ثاروا على عثمان وقتلوه كانوا يشكلون سفهاء القوم وغوغائهم.

٢ - إن الثورة على عثمان كانت من وحي عبد الله بن سبأ.

وما يدل على المسألة الأولى، هو قول ابن خلدون ″ كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم فأنفت

نفوسهم منه، ووافق أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات، والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان " [٢٤٧]

لا وقوله: " ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم " [٢٤٨].

أما ما يؤكد المسألة الثانية، فهو قوله:

" إلا عمارا فإنه استماله قوم من الأشرار، انقطعوا إليه، منهم عبد الله بن سبأ ويعرف بابن السوداء " [٢٤٩].

" وكان ابن سبأ يأتيه – أي إلى أبي ذر – فيغريه بمعاوية " [٢٥٠].

" وتأخر عمار ابن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه "[٢٥١].

" وكان بدؤه فيما يقال شأن عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء "[٢٥٢].

والمعنى الإجمالي من هذا الكلام إن ابن خلدون يريد أن يثبت عبر التلبيس والتدليس إن الثورة على عثمان كانت من وحي عبد الله بن سبأ لجماهير من الغوغاء وإنها بالنتيجة لم تكن ثورة شرعية وإنما كانت مؤامرة مدبرة وفوضى مجنونة استغل فيها المتآمرون سوقة الناس ودهمائهم، وفساق القوم وسفهائهم.

وقد سبق أن أفضنا في هذه القضية في كتاب " الإنتقال " ويكفي ما ثبته العالم النحرير والمحقق الرئيس السيد مرتضى العسكري في سفره النفيس " عبد الله بن سبأ " فقد أثبت بكامل الوسع ضعف هذه الرواية التي انفرد بها سيف بن عمر التميمي والذي أخذها عنه الطبري... وندع القارئ يواجه بنفسه تفاصيل تحقيق الأستاذ الكبير.. ونتوقف نحن عند ابن جرير الطبري الذي منه أخذ ابن خلدون رواية عبد الله بن سبأ من دون النظر في مداخيلها، أخذها بعد أن وضع

---

[٢٤٧] تاريخ ابن خلدون (٥٦١/٢)

[٢٤٨] تاريخ ابن خلدون (٥٧٤/٢)

[٢٤٩] تاريخ ابن خلدون (٥٦١/٢)

[٢٥٠] تاريخ ابن خلدون (٥٦١/٢)

[٢٥١] تاريخ ابن خلدون (٥٦٧/٢)

[٢٥٢] تاريخ ابن خلدون (٥٦٤/٢)

عقله في القفص، وانقاد إليها بسذاجة المقلدين، الذين طالما عاتبهم ابن خلدون على التلقي غير الواعي، واللامنتج، الذي لا يتم فيه التمحيص للخبر، قال ابن خلدون:

" هذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردة والفتوحات والحروب، ثم الاتفاق والجماعة أوردتها ملخصة عيونها ومجامعها من كتب محمد بن جرير الطبري، وهو تاريخه الكبير، فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك وأبعد عن المطاعن، والشبه في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين[٢٥٣] ".

إذن، ابن خلدون أخذ هذه الرواية عن الطبري. ونلاحظ أنه لم يأخذ عنه الروايات التي تدين عثمان أو الخلفاء. فهو إذن ينتقي. وفي انتقائه ذاك يعبر عن إعنات مفرط، وانتحال للأخبار موقع في التلبيس. وقد سبق أن رأينا كيف طوى كشحا عن تلك الروايات الكثيرة عند الطبري في أمر وفاة الرسول (ص) والسقيفة، ورأينا كيف كان من دأبه أن يروي الأساطير في تعزيز مذهبه التاريخي، نظير ما جاء في مقتل سعد بن عبادة من قبل الجن، وهو بذلك يؤكد على الطبيعة السحرية لمنهجه التاريخي. ومثل تلك الأساطير التي اعتمدها لما تنطوي عليه من تعتيم على انحراف خلافة عثمان وعلى مجريات الأحداث.

ولا يهمنا هنا مناقشة صميم الرواية. فيكفي أن يراجع القارئ ما أثبته الأستاذ العسكري. وإنما أريد أن أؤكد على تهافت ابن خلدون في سرده لهذه الرواية بشكل يثير القرف ويبعث على الغثيان.

إنه مرة يؤكد أنه – أي ابن سبأ – ذهب إلى البصرة حيث حكيم بن جبلة..

وكان هذا الأخير حسب شهادة ابن خلدون ممن أخرج ابن سبأ إلى الكوفة. ومنها ذهب إلى مصر حيث التقى بعمار.

من خلال هذه القصة يعتقد ابن خلدون بأن أتباع ابن سبأ الرموز كانوا هم عمار وأبو ذر.

وذلك لأن هؤلاء كانوا هم في طليعة الثورة على عثمان. ومن هنا سنبدأ

---

[٢٥٣] تاريخ ابن خلدون (٤٥٧/٢)

مناظرتنا لابن خلدون:

أولا:اعتراف ابن خلدون بمشيع حكيم بن جبلة لعلي (ع) وإخراجه لعبد الله بن سبأ، دليلا واضحا على أن حكيم بن جبلة ممن رفض أفكار عبد الله بن سبأ.

غير أن التاريخ يثبت أن حكيم بن جبلة كان من الثوار الكبار ضد عثمان. ومن الذين جاؤوا بوفد البصرة الذي شارك في حصار عثمان.

ومن جهة أخرى. أن الوفود كانت تتألف من الوفد المصري والكوفي والبصري. وكلهم كان على موقف واحد. وعلى مطلب مشترك. وكلهم من المتشيعين لعلي (ع) " ونزل معهم أناس من أهل مصر وكان هواهم في علي[٢٥٤] ".

نستخلص من ذلك كله، أن حكيم بن جبلة لم يكن حسب ما ذهب إليه ابن خلدون موافقا على مطالب الوفود إذ زعم أنه رفض تحريض ابن السوداء، وأن هذا الأخير هو من كان وراء حركة الأمصار. ولو كان كذلك - إذن لزم عدم مجيئه في وفد كامل لقتل عثمان.

فهناك تناقض بين فيما ادعاه ابن خلدون ويثبت أن ابن السوداء فشل في إقناع حكيم بن جبلة وأهل البصرة. وليس ثمة ما يقنعهم به إلا أمرين.

التشيع لعلي، والثورة على عثمان. فأما الأولى فكانت من شأن حكيم بن جبلة وأهل البصرة. وذلك بشهادة بن خلدون. وأما الثانية، فلو كانوا رفضوها، إذن لما جاؤوا بوفدهم لقتل عثمان.

يقول ابن خلدون بعد ذلك " وحدث بالبصرة مثل ذلك من الطعن "[٢٥٥].

فإذن، التحريض على عثمان لم يكن من اختصاص ابن سبأ الأسطوري.

إن التناقض هنا واضح جدا. لمن تأمل ثنايا الخبر.

ثانيا:

ابن خلدون الذي بذل الوسع في تعظيم الأمويين، ورفض مذاهب الشيعة إذ

---

[٢٥٤] تاريخ ابن خلدون (٥٦٨/٢)

[٢٥٥] تاريخ ابن خلدون (٥٦٤/٢)

رفضها لغلوها في استنقاص الصحابة. هاهو الآن يحط من قدرهم. وينزل من شأنهم كأشد ما يكون من الاستنقاص وكأحط ما يكون الاستنزال. فهو يتهم صحابة من ذوي الفضل والسابقة. وممن يشهد لهم الرسول (ص) بالعظمة وعهد لهم بما سارت به الركبان وغنت به الشعراء.

هاهو يجعلهم أكثر دونية وصغارا، ويصورهم على أشكال تقع دون البله، وأقل تبصرا من الغرير، فيجعل من عمار بن ياسر ذي السابقة والبلاء ممن يستميلهم اليهودي المتزندق، ومن أبي ذر الغفاري العظيم، من يغريهم السفهاء والدخلاء بالتعرض للأمراء، وكأن ديننا ليست فيه فكرة عن مناهضة الظلم، ولا وازع لمحاربة الفساد.

وأي دين هو أحرص من ديننا في طلب الاصلاح وممارسة التغيير، وحسبك من ذلك التهافت، إن ابن خلدون ذهب إلى أن حكيم بن جبلة كان قد رفض على ابن السوداء دعوته وإخراجه من البصرة، كيف يكون حكيما أبصر بالأمور، وأكثر تمييزا لما بين الحق والباطل، ممن قام الإسلام على إخلاصهم، وماتوا على صدق في المواطن.

ثم بالله عليك، ماذا سوف يعلمهم ابن السوداء، وكيف يغري أبا ذر ويستميل عمارا؟!!.

ابن خلدون يذهب إلى أن ابن سبا أغرى أبا ذر بمعاوية، إذ قال:

" وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية "[٢٥٦].

" وجاء به عبادة إلى معاوية وقال: هذا الذي بعث عليك أبا ذر. " كما زعم أنه علم عمارا القول بالإمامة والرجعة.

إن هذا لعمر الله هو صميم النيل من الصحابة، وإنه لازدراء ما بعده ازدراء، فهدي محمد لم يستطع أن يوفر أدنى حصانة دينية وعلمية لعمار وهو من أعمدة الدعوة وأركانها، حتى يأتي يهودي فيستميله، كاستمالة الحدث الصغير.

وإن أبا ذر الغفاري الذي تأله قبل الدعوة. وجاء طوعا يبحث عن الإسلام،

---

[٢٥٦] سبق ذكره.

وساهم بكل إخلاص في حروبه كلها. أكان في حاجة إلى يهودي يعلمه الثورة على الظلم. وهل كل ما قام به معاوية لم يكن كافيا لإثارة الوازع الديني في أمثال أبي ذر وعمار. فهل بعد هذا كله يليق بابن خلدون أن يدعي أنه اعتمد على تاريخ فيه البعد عن المطاعن والشبه في كبار الأئمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين!!.

ثالثا:

إن ابن خلدون وهو يمارس تدليسه هذا على القارئ كان على مقربة من فهم الأمور. فما يعز على محلل العمران ومفكك التاريخ أن تنطلي عليه مثل هذه القضايا إنه يعترف بأن هؤلاء الثوار كانوا على علاقة وثيقة بالإمام علي (ع) وهم من سمع رأيه في المرة الأولى فراوحوا الأمصار. وهم الذين بايعون ودعوا لإمامته. وكان جديرا بابن سبأ وهو رمز الدعوة إلى الولاية لعلي (ع) وهو الذي علم عمارا القول بالإمامة، وعلم مثل ذلك لأبي ذر وهو الذي انتقل بين الأمصار المتمردة الكوفة والبصرة ومصر وهي مسقط رأس الوفود لكان إذن جدير أن يتقدم شيعة علي (ع) في زمانه ولكان علي (ع) قد ولاه فيمن ولاهم على الأمصار ولكان له صيت بعيد وشأن يذكر. لما قدمه من جهود في الدعوة لإمامة علي (ع) ولكن التاريخ – المبتذل – لا يجد ما يقوله لنا عن موقع عبد الله ابن سبأ في عهد علي (ع) ولا أين كان موقعه يوم اختراق الدار على عثمان.

إن التاريخ المبتذل يحتفظ لنا بصورة خفية عنه، سواء في عهد عثمان أو في عهد علي (ع) فهو في كلا العهدين خفي ومتآمر، فإن كان هناك ما يدعوه في عصر عثمان إلى التستر فماذا يمنعه الآن بعد مقتله، ولأن كان بقي بمصر.. فأي مانع للأمويين في أن يقتلوه وقد تمكنوا من قتل وليها يومذاك، ولكان قتلته العثمانية مثلما قتلوا محمد بن أبي بكر. وقد لفق بعض المؤرخين ما حدث من إحراق علي (ع) لهم على ما ذهبوا إليه من تأليهه، ولكنه لم يحرق بن سبأ، لأن بعضا من أصحابه اعترض عليه ونصحه بتركه، إن أسطورة الحرق هذه، لم تكن سوى محاولة في تقريب عبد الله بن سبأ من دائرة الواقع، غير أنه كان ينفلت من قبضة الواقع، انفلات الزئبق، فكيف يحرق علي (ع) أحدا من كان، وهو الذي اعترض على حرق أبي

بكر للفجاءة، وكيف يحرق كل السبئيين ويبقى على زعيمهم ويطلق له العنان، وكيف ينال منهم ويحرقهم وهو يعظم ويجلل أحد رموز السبئية على حد تعبير المؤرخين، وهو عمار بن ياسر، بل لقد ولاه وأعزه وكان ساعده الأيمن، ولست أدري إن كان عبد الله بن سبأ حقيقة معاصرة لتلك الأحداث، كيف لا يتعقبه معاوية بعد أن أثبتوا أن عبادة جاء به إلى معاوية، كيف لم يقتله أو يبعث من يقتله، ولم نعثر على قولة لمعاوية ولا للعثمانية فيه على الرغم من أنه رقم واحد في الأحداث التي عصفت بعثمان على حد تعبيرهم، وبعد أن كان معاوية يترصد كل أعداء وقاتلي عثمان، وكان يقول اقتلوهم تحت كل حجر ومذر.

إن الاضطراب في هذا الخبر يكشفه المحقق لأول وهلة، فابن سبأ هذا رجل لم يدقق فيه المخبرون، ولم يعطوا أدلة قاطعة تمكن المطلعين من معرفة حقيقة نسبه وطبيعة نشاطه، ماذا قال عنه أرباب السير ورواد التأريخ والتراجم، أكان حدادا أم نجارا، أكان طويلا أم قصيرا، نحيلا أم مربوعا، بل كل ما في الأمر إن أهل الملل والنحل دأبوا على تلقف الحكايات تلقف الصبية للكرة، من دون أعمال العقل فيها والنظر، فهمهم إضافة اسم جديد لفرقة يسودون بها أسفارهم، ويكشكلون، بالشاذ والغريب، رواياتهم.

إنه لمن العار يا ناس، أن يتم التعسف على التاريخ بهذا الشكل المهول المريع .. إن التأليه لم يكن في عهد علي (ع) في أكثر التقادير، لم يكن أحد يدعي أن عليا (ع) إلها، إنها تهمة في ظني نشأت متأخرة، وبالضبط في العصرين الأموي والعباسي، لقد اعترفوا من حيث لا يشعرون إن التشيع لعلي (ع) في العصر الأول لم يكن يعني أكثر من الولاء السياسي.

حتى عصر الإمام الصادق (ع) الإمام السادس من أئمة أهل البيت فيأخذ التشيع صبغته الايديولوجية والمذهبية [٢٥٧] وفي نفس الوقت يعتبرون التشيع من وحي

[٢٥٧] اعتبر كثير من المحققين والكتاب، أن التشيع الأول، يأخذ طابعا سياسيا. يقول في ذلك مثلا، د. إبراهيم بيضون: والسبئية أسطورة كانت أم حقيقة، هي على هامش التشيع ومتناقضة في الصميم مع الفكر الشيعي، بخلفيته السياسية البحتة، الدولة الأموية والمعارضة ص ٤٥ الطبعة الثانية بيروت وذكر صاحب التاريخ الإسلامي (محمود شاكر) حول الخلفاء الراشدين والعهد الأموي: (بل لم تكن كلمة الشيعة تحمل أكثر من معنى التأييد والمناصرة. ولكنها غدت مع الزمن فكرا خاصا وعقيدة خاصة، ونسب إلى الأوائل أقوال لم يقولوها وأخبار لم يعرفوها، وأفكار لم تخطر على

عبد الله ابن سبأ الذي عاش في عصر عثمان؟!.

ولمزيد من الايضاح، إن عمارا عندما بعثه عثمان إلى مصر، لم يستمله أحد، وإنما بقي هناك على اتصال بكل من محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة، وكانا من أقوى المحرضين على عثمان، وهما رئيسا الوفد المصري، إن تداخل خطة العمل بين كل من الوفود الثلاثة، ووحدة الطرح لكل رموز المعارضة كعمار، والأشتر، وحكيم بن جبلة ومحمد بن أبي بكر وابن أبي حذيفة، والإمام علي (ع) هو ما يجعل أسطورة السبئي لا مسوغ لها إلا في أذهان المدلسين، فهي في تهدلها ووهنها كبيت العنكبوت، وهي أوهن البيوت.

ونعود بعد ذلك، كي نطلع على الوضع السياسي الذي أثار غضب الثوار وجلب الحنق على عثمان، ففي تاريخ ابن خلدون لم يكن عثمان إلا منفذا لتعاليم الدين، ولم يكن على ما ادعاه الخصوم، ولهذا اتهم الثائرين عليه وقاتليه بالسفاهة.

يقول:

" ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم "[٢٥٨].

وعلى هذا الأساس يكون كل من عمار وأبي ذر وبن مسعود والذين تضرروا من سياسة عثمان وانتقدوها، وكفروه سفهاء، ويدخل في ذلك عائشة عندما دعت إلى قتله في بداية الأمر.

قائلة: " اقتلوا نعثلا فقد كفر "، ويدخل في ذلك حسب هذا المبنى الإمام علي (ع) الذي لم ينصره بل هو الذي حسب شهادة عثمان نفسه، قد جرأ عليه الثوار.

بالهم أبدا). وثبت عندي إن الجابري تلقفها من محمود شاكر، عندما قال: يجمع المؤرخون على أن التشيع لعلي ابن أبي طالب وأبنائه من بعده لم يتجاوز مستوى الولاء السياسي ص ٣٣٤ – ٣٣٥، بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي.

[٢٥٨] تاريخ ابن خلدون ص ٥٨٤ ج ٢.

يقول ابن خلدون [٢٥٩]:

" فأتاه عثمان إلى منزله ليلا يستلينه وبعده الثبات على رأيه معه، فقال: بعد أن أقام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم؟ فخرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرأت علي الناس).

وحتى كان أبو هريرة الدوسي الذي عرف بملازمة الأمويين على ملء بطنه، ينقل له ابن خلدون موقفا عبقريا، يقول: يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، وقاتل.

وأني لا تسأل كيف قاتل أبو هريرة وهل هو من طينة البواسل ومتى رفع أبو هريرة رمحا أو مسك قوسا، كيف يدعو من اشتهر بكذبه على رسول الله (ص) الصحابة الكبار إلى النجاة، وهم يدعونه إلى النار، فهل يعقل أن يدعو الدوسي عليا، وعمارا، والأشتر، ومحمد بن أبي بكر إلى النجاة!.

وفي ظني أن الذي دعاهم لاختلاق ذلك الموقف، ما قاله الرسول (ص) عن عمار بن ياسر:

" ما لهم وعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار و ذاك الاشقياء الفجار [٢٦٠]

وعمار هذا كان قد كفر عثمان وحرض على قتله.

لقد حاول ابن خلدون أن يقلل من شأن تلك المآخذ التي أوردوها على عثمان، كإخراجه أبا ذر إلى الربذة، حاول ابن خلدون كعادته أن يبرئ عثمان من ذلك كله. وإن اقتضى الأمر الازدراء بأبي ذر، واستصغار بصيرته وعلمه.

والآن لماذا أخرج عثمان أبا ذر الغفاري إلى الربذة؟.

ابن خلدون يجيب على الفور، بعد أن يحبك قصة كاملة، كالتالي:

١ - إن أبا ذر " يأخذ بالظاهر في ذم الادخار وبكنز الذهب والفضة وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية، ويعيب قوله: المال مال الله ويوهم إن في ذلك احتجانه

---

[٢٥٩] تاريخ ابن خلدون (٥٧١/٢)

[٢٦٠] البخاري (١٧٢/١ح٤٣٦) وقعة صفين (٣٢٣) كنز العمال (٧٢٢/١١ح٣٣٥٣١) و التذكرة (٩١) و مناقب الخوارزمي أبن سعد (٢٥١/٣ و ٢٥٢)

للمال وصرفه على المسلمين حتى عتب أبو ذر في ذلك معاوية فاستعتب له وقال: سأقول ما للمسلمين وأتى ابن سبأ إلى أبي الدرداء وعبادة بن الصامت بمثل ذلك فدفعوه، وجاء به عبادة إلى معاوية وقال:

هذا الذي بعث عليك أبا ذر [٢٦١]".

٢ - ثم استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال: " إن رسول الله (ص) أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعا فأذن له ونزل الربذة وبنى بها مسجدا وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه صعلوكين وأجرى عليه رزقا، وكان يتعاهد المدينة.

فعد أولئك الرهط خروج أبي ذر فيما ينقمونه على عثمان مع ما كانوا يعدون عليه من إعطاء مروان خمس مغانم إفريقيا، والصحيح أنه اشتراه بخمسمائة ألف فوضعها عنه ".

من خلال الفقرتين، يتبين أن أبا ذر كان رجلا ظاهريا لا يأخذ بباطن الأمور. فهو إذن ينقصه العلم بالأحكام والدراية بقضايا الشريعة. وأن عبد الله بن سبأ أغرى أبا ذر وأوهمه بما يجعله يعاتب معاوية فاستعتب له هذا الأخير. وإنهم أتوا بـ عبد الله بن سبأ إلى معاوية قائلين له: هذا الذي بعث عليك أبا ذر ثم إن خروج أبي ذر إلى الربذة، كان اختيارا منه وذلك بعهد من رسول الله (ص) وأقطعه عثمان ما يكفيه من الإبل وأعطاه ما يفضل عنه من الرزق فهو لم يكن ذا حاجة وإن اتهام عثمان بإخراج أبي ذر كان من ادعاء ذلك الرهط.

لنبدأ بطرح رأينا حول هذه العبارة ونفككها لنقف عند حقيقتها.

أولا: إن أبا ذر بشهادة الرسول (ص) كان أصدق لهجة.. كما جاء في الرواية الشهيرة:

" ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر ".

فهو ممن أوتوا الفطنة والعلم والصدق. ولا أدل على ذلك من التزامه وسلوكه الذي يعكس ذلك العلم الكبير والفطنة النافذة.

---

[٢٦١] تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٦٢.

لقد اعتبر (رض) مفاسد الأمويين يومها خطرا على الإسلام وصدقت فراسته فهو لم يكن كما ادعى مؤرخ المغرب، رجلا ظاهريا ولا أدل على علمه أيضا، والتزامه، ما جرى بينه وعثمان في حضرة كعب وإن كانت تلك الحادثة تدل على شئ فإنما على مدى قوة بصيرة أبي ذر، وحسبه من علم الباطن، أن رد بأعنف العنف اليهودي المندس عن الافتاء في دين الله. وأن تكون دعوته مما حملها المحرومون عبر تاريخ.

ولا يزال أبو ذر الغفاري يمثل أروع نموذج لثورة الفقراء حتى جعله البعض الاشتراكي الأول في تاريخ الإسلام!.

ودعنا هنا، نعرض بعض الإحصائيات عن الممتلكات الضخمة التي كانت تدور بعين أبي ذر وتثير رفضه لنرى هل مثل ذلك الحجم من الثروات في أيدي عثمان. وذلك الشكل من الفقر الذي تعانيه الطبقات السفلى من الناس. شئ طبيعي بالنسبة لذوي الضمائر الحية والروح المسؤولة.

لنر هل فعلا كان أبو ذر ينتظر من عبد الله ابن سبأ أن يعلمه الثورة على الأثرياء. أم أن ذلك من تعاليم الإمام علي (ع) حين كان لا يفتر عن الإشارة إلى هذا الوضع وهو صاحب الكلمة الشهيرة:

" ما رأيت نعمة موفورة إلا وبجانبها حق مضيع " وهو من قال بعدها:

" الله الله في الطبقات السفلى من الناس " [٢٦٢].

" ذكر عبد الله بن عتبة إن عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلا كثيرا وإبلا [٢٦٣] ".

هذه هي ثروة عثمان الشخصية ناهيك عما أقطعه لبطانته، وما اغتصبه من بيت مال المسلمين [٢٦٤].

---

[٢٦٢] شرح النهج (٨٥/١٧)

[٢٦٣] مروج الذهب (٣٤١/٢ - ٣٤٢)

[٢٦٤] مروج الذهب (٣٤٢/٢) وراجع عثمان و الفتبة الكبري من كتابنا الانتقال ص ١٩١.

وللبيب أن يتسأل، هل بعد هذا كله كان أبو ذر ضحية تمويه. وصدق طه حسين، حين استسرف الأمر قائلا: " ومن هذا التلقين إلى أن يقال أنه الذي لقن أبا ذر مذهبه كله في نقد الأمراء والأغنياء وتبشير الكانزين للذهب والفضة بمكاو من نار، وما أعرف إسراف يشبه هذا الاسراف [٢٦٥] ".

وينقلب السحر على الساحر في عملية العرض المغرضة ليكون ابن خلدون أحيانا عراب فضيحته فقد ذكر أنهم أتوا به إلى معاوية، وإنه لمن الحظ تأييد هذه الأكذوبة فمعاوية الذي ضاق بأبي ذر الغفاري حتى أخرجه من الشام وشكاه إلى عثمان. كيف لا ينبس ببنت شفة أمام عبد الله بن سبأ وهو الذي أثار أبا ذر على معاوية حسب زعمهم.

ثم كانت الطامة الكبرى والبطشة الأخرى، كما نسجها المنوال الردئ عندما اعتبر ابن خلدون خروج أبي ذر إلى الربذة محض اختيار.

ولا بد هنا من الاعتراض على ابن خلدون، ونقول له إن أبا ذر خرج ثلاث مرات وليس مرة واحدة، أخرج المرة الأولى من المدينة إلى الشام، وأخرج في الثانية من الشام إلى المدينة، وفي الثالثة من المدينة إلى الربذة وكان عثمان هو من أجبره على كل ذلك.

لقد نفي إلى الشام عندما شكاه مروان، ورجع إلى المدينة بطلب من عثمان بعد أن شكاه معاوية ومن المدينة هجر إلى الربذة بعد أن ضاق به عثمان ذرعا، وسوف نتعرض فقط للصورة التي تم تهجير أبي ذر عليها من المدينة إلى الربذة، والطريقة التي جاء بها إلى المدينة من الشام.

عندما ضاق معاوية بأبي ذر الغفاري بالشام واستنجد عليه بعثمان طلب منه هذا الأخير أن يشخصه إليه في أغلظ مركب وأوعره [٢٦٦].

ذكر المسعودي: " إن معاوية كتب إلى عثمان: إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك، فكتب إليه عثمان بحمله، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة

---

[٢٦٥] إسلاميات طه حسين ص ٧٦١، ط الأولى ١٩٦٧.

[٢٦٦] مروج الذهب ٣٤٩ ج ٢.

يطيرون به، حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف، فقيل له: إنك تموت من ذلك، فقال: هيهات لن أموت حتى أنفى، وذكر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولى دفنه، فأحسن إليه في داره أيام، ثم دخل إليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء.

وكان في ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف من المال، فنثرت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمن خيرا، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون، فقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال أبو ذر العصا، فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال: يا ابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت النبي (ص) يقول: " ما يسرني أن أموت وأودع ما يزن قيراطا " فقال له عثمان: وار عني وجهك، فقال: أسير إلى مكة، قال: لا والله، قال: فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت؟ قال: إي والله، قال: فإلى الشام، قال:

لا والله، فاختر غير هذه البلدان، قال: لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتني في دار الهجرة ما أردت شيئا من البلدان، فسيرني حيث شئت من البلاد، قال؟ فإني مسيرك إلى الربذة ".

أما ما ادعاه ابن خلدون من أن عثمان أعطى أبا ذر ما يكفيه من رزق، فهذا ما لا يشتد له ظهر أيضا، لما علمنا من أن أبا ذر كانت له حساسية كبيرة من المال الحرام، وأنه ما ثار إذ ثار إلا على هذا التبذير والترف، والتصرف اللامسؤول في أموال المسلمين، والثابت في الرواية هو أن أبا ذر مات هو وأبناءه من شدة الجوع، حتى أن زوجته لم تجد له كفنا، وكان بعض السيارة قد دفنوه بعد ذلك [٢٦٧].

ذكر صاحب المروج: " قال عثمان: فإني مسيرك إلى الربذة، قال: الله أكبر، صدق رسول الله (ص) قد أخبرني بكل ما أنا لاق، قال عثمان: وما قال لك؟ قال: أخبرني بأني أمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة، ويتولى مواراتي

---

[٢٦٧] مروج الذهب ٣٤٩ ج ٢.

نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز، وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته، وقيل: ابنتيه، وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الربذة. ".

إن إخراج أبي ذر إلى الربذة من قبل عثمان وتضايق التيار الأموي به، هو من المشهورات في التاريخ الإسلامي، ولو كان اختيارا منه الخروج إلى الربذة، إذن لما أغلظ عثمان على من شيعه في الطريق بأشد مما تكون الغلظة. ولما حدث بينه والإمام علي (ع) في شأنه من تلك المشادات.

كان ابن خلدون يحاول من وراء ذلك تبرئة عثمان وتخطئة معارضيه مرة متهما إياهم بالسفه ومرة بقلة العلم وأخرى بسوء الفهم، وينسى إنه كم مرة اعترف هو نفسه بمفاسد عثمان من حيث لا يشعر وعرض ما يؤكد ذلك الوضع السئ وتلك الصورة البشعة التي كانت عليها خلافة عثمان. [٢٦٨].

قال ابن خلدون:

" وقيل: إن عليا لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس ما اعتزم عليه من النزوع قبل أن يجئ غيرهم ففعل وخطب بذلك، وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من اتعظ، استغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فليأت أشرافكم يروني رأيهم، فوالله إن ردني الحق عبد لأستن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد، وماعن الله مذهب إلا إليه فوالله لأعطينكم الرضى ولا أحتجب عنكم. ثم بكى وبكى الناس ودخل منزله ".

إذن، فابن خلدون يذكر أن عثمان اعترف بالذنب، وأنه استغفر الله وتاب و أعطى للناس من نفسه التوبة " ونقول لابن خلدون على من تكون هذه التوبة إن كان معارضوه ممن يجب في حقهم التوبة والاستغفار. وعلى من استغفر عثمان، وبما اتعظ. أو لا يدل ذلك على أنه أتى من كبائر الإثم والذنوب ما أمسى ظاهرا للجميع. فكيف يبرئ بن خلدون من اعترف بالذنب وأقر بالخطيئة.

وعليه، فإن أبا ذر كان قد أخرجه عثمان قهرا. ويدل على ذلك ما رواه الواقدي: " إن أبا الأسود الدؤلي قال: كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب

---

[٢٦٨] تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٧١.

خروجه، فنزلت الربذة، فقلت له: ألا تخبرني، خرجت من المدينة طائعا، أم أخرجت؟ فقال: " كنت في ثغر من ثغور المسلمين، أغنى عنهم فأخرجت إلى المدينة، فقلت: أصحابي، ودار هجرتي، فأخرجت منها إلى ما ترى ".

وفي يوم الدار حيث اقتحم الثوار بيت عثمان، ودخل محمد بن أبي بكر على عثمان.

قال ابن خلدون: " ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلا بما لا حاجة إلى ذكره، ثم استحيا وخرج. ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم "[٢٦٩].

وليت شعري - هذه المرة - أي حوار طويل هذا الذي جرى بين الاثنين، وعلى أي أساس رأى ابن خلدون عدم الحاجة إلى ذكره، وكيف أن محمد بن أبي بكر استحيا وخرج؟!.

وهلا استحيا وهو يسير إليه من مصر إلى المدينة في وفد كبير. دعنا ننقل ذلك الحوار الطويل لنرى هل فعلا لا تدعونا الحاجة إلى ذكره أم لا.

لما دخل محمد بن أبي بكر على عثمان قال له هذا الأخير: ويحك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جرم إلا أني أخذت حق الله منك؟ فأخذ محمد بلحيته، وقال: أخزاك الله يا نعثل!.

قال: لست بنعثل، ولكني عثمان وأمير المؤمنين، فقال: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان!.

فقال عثمان: يا ابن أخي، دعها من يدك، فما كان أبوك ليقبض عليها، فقال: لو عملت ما عملت في حياة أبي ليقبض عليها، والذي أريد بك أشد من قبضتي عليها. فقال: استنصر الله عليك وأستعين به، فتركه وخرج، وقيل: بل طعنه في جبينه بمشقص كان في يده[٢٧٠].

ومن هنا تبين كيف أن الفائدة عمت عند ذكر الحوار، وأن محمدا لم يخرج مستحيا كما تخيله ابن خلدون، وإنما عنفه وضربه وأخلى بذلك الطريق للثوار كي

---

[٢٦٩] تاريخ ابن خلدون (٥٧٤/٢)

[٢٧٠] شرح النهج (١٥٧/٢)

يشرعوا في قتله، ولا أدل على ذلك مما ذكرنا من شكوى بنت الفرافصة ما فعل محمد بن أبي بكر، عندما سألها علي (ع) كما تقدم، ولو كان استحيا وخرج كما زعم، لما شكت الكلبية، ولكانت من الشاكرين له. ولما كانوا انتقموا منه شر انتقام حين ظفروا به وأحرقوه انتقاما ليوم الدار، ولقاء ما صدر عنه من عنف في قتل عثمان. ولقد ذكر ابن خلدون في مورد آخر، وفي لحظة تبرير جديد إن ابن حديج كان قد منع محمد ابن أبي بكر الماء جزاء بما فعل بعثمان، ثم أحرقه في جوف حمار.

أفلا يدل ذلك على أن موقف محمد العنيف من عثمان، كان مما اشتهر به في زمانه!.

لقد امتنع ابن خلدون عن نقل تفاصيل الحوار الذي دار بين الاثنين، حتى يتسنى له القول:

" ثم استحيا وخرج ".

ويبقى أن نطرح سؤالا على ابن خلدون عن موقع وموقف عائشة من مقتل عثمان.

ابن خلدون، لم يذكرها بشئ. وقصارى ما جادت به قريحته في هذا المجال قوله: ا ثم خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها فأبى فقال له حنظلة الكاتب: تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها، وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحل؟ ولو قد صار الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف " [٢٧١].

وفي مورد آخر قال: وكان سبب اجتماعهم بمكة أن عائشة كانت خرجت إلى مكة وعثمان محصور كما قدمناه، فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة، فلقيت في طريقها رجلا من بني ليث أخوالها، فأخبرها بقتل عثمان وبيعة علي فقالت: قتل عثمان والله ظلما ولأطلبن بدمه فقال لها الرجل ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟ فقالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وانصرفت إلى مكة [٢٧٢].

---

[٢٧١] تاريخ ابن خلدون (٥٧٤/٢)

[٢٧٢] تاريخ ابن خلدون (٥٧٩/٢)

هذا تلبيس يهدف إلى وضع مقدمة مضللة لحادثة الجمل. وإذا كان ابن خلدون قد اعتقد في أمر الجمل على ابن جرير الطبري، فإنه لم يأخذ عنه موقف عائشة من مقتل عثمان. لقد انتهى ما يمكنه من سبك كلامه من دون أن يهدم صرح التلبيس فيما ينتحله من مواقف وأحداث. يقول:

" وهذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به لسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين [٢٧٣] ".

لقد عمل ابن خلدون على انتقاء الروايات التي من شأنها، التشويش على القارئ، فجعلها بحيث يختفي منها موقف عائشة من مقتل عثمان، حين قال: فقال لها الرجل ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟ وماذا قالت عائشة؟... ابن خلدون يسكت!.

لكن الطبري وهو المعتمد عند بن خلدون، ينقل ما كانت تقوله عائشة في عثمان. وهو قولها: اقتلوا نعثلا فقد كفر.

هذه الكلمة هي التي دفعت ابن خلدون إلى تعويضها بـ: تقولين ما قلت؟ وسوف ننقل ما دار بين الرجل وعائشة، بمزيد من الايضاح.

ذكر ابن خلدون، إن رجلا من بني ليث أخوالها لقيته في طريقها، وكان ذلك منه تلبيسا في القضية. وحتى يبعد القارئ عن الاسم الذي ذكره المؤرخون، كي لا يقفوا على تفاصيل الكلام.

فالرجل الذي قال عنه ابن خلدون، من بني ليث أخوالها. هو ما عرفه المؤرخون بعبيد بن أم كلاب. وهو رجل ينسب إلى أمه. وهو عبيد بن أبي سلمة الليثي.. وباسم بن أم كلاب اشتهر، وكذلك ما دار بينه وبين عائشة من كلام، وذكر ذلك كل من الطبري وابن الأثير وآخرون.

والحوار الذي جرى بينهما كان كالتالي:

صاحت أم المؤمنين، ردوني، ردوني. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه! فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟ فوالله إن

---

[٢٧٣] تاريخ ابن خلدون (٥٩٤/٢)

أول من أمال حرفه لأنت، فلقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير من قولي الأول، فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرإ [٢٧٤] يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها ومامن وفى مثل من قد غدر [٢٧٥]

وكان ابن خلدون يهدف من وراء ذلك إلى غاية ذميمة. أن يجعل سبب اجتماع الثلاثة بمكة هو أن عائشة قد خرجت إلى مكة، وعثمان محاصرا، حتى ورد عليها هذا الرجل وأخبرها بالأمر.

ونرى من الواجب فك هذا التهافت، وتوضيح هذا التضليل، فعائشة خرجت وهي تعلم بمقتل عثمان، وكانوا قد كلموها في الأمر فرفضت، وكان مروان قد جاء إلى عائشة، فقال: " يا أم المؤمنين، لو قمت بين هذا الرجل وبين الناس؟ قالت: قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحج.

قال: فيدفع إليك بكل درهم أنفقته درهمين، قالت: لعلك ترى إني في شك من صاحبك؟ أما والله لوددت أنه مقطع بغرارة من غرائري، وإني أطيق حمله، فأطرحه في البحر [٢٧٦] ".

وكانت عائشة شديدة عليه أيام خلافته. ومن المحرضين عليه أيضا. حتى ورد عنها بينما عثمان يخطب إذ دلت قميص رسول الله (ص) ونادت: " يا معشر المسلمين، هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته، فقال عثمان رب

---

[٢٧٤] ذو تدرأ : أي ذو عدة وقوة

[٢٧٥] طبقات أبن سعد (٨٨/٥) و الكامل (٢٠٦/٣) و الفتوح (٢٤٩/٢) و تذكرة السبط (٦٦) و تاريخ الطبري (٥٤٩/٤)

[٢٧٦] اليعقوبي (١٧٥/٢)

اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم [٢٧٧] ".

هذا هو موقفها منه وإنها لم ترجع عن ذلك إلا بعد أن قيل لها إن عليا (ع) قد بويع، فقالت عندها: " والله ليت هذه أنطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك [٢٧٨]، ومن أقوالها في ذلك : يا أيها الناس إن عثمان قتل مظلوما والله لأطلبن بدمه، [٢٧٩] وكانت تقول: يا معشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله علي ابن أبي طالب، والله لأنملة - أو قالت - لليلة (ليوم) من عثمان خير من علي الدهر كله [٢٨٠] ".

والمستفاد من أخبار المؤرخين.. إنها لم تقل ذلك إلا بعد أن علمت بيعة علي .. من قول عبيد بن أم كلاب، السابق[٢٨١]، وقبل ذلك كانت بمكة، وأخبرت بقتله من دون سماع بيعة علي. قالت: أبعده الله، ذاك بما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد[٢٨٢].. وكانت تقول: أبعده الله، قتله ذنبه، وأماده الله بعمله، يا معشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه، إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع - تقصد طلحة [٢٨٣]- ثم أقبلت مسرعة إلى المدينة، وهي لا تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر، وكانت تقول[٢٨٤] : بعدا لنعثل وسحقا، إيه ذا الإصبع، إيه أبا شبل، إيه ابن عم لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثو الإبل ودعدعوها [٢٨٥]

ولما انتهت إلى " سرف " قرب مكة في الطريق إلى المدينة، لقيها عبيد بن أم كلاب [٢٨٦] فحدث بينهما ما قدمناه.

---

[٢٧٧] تاريخ البعقوبي (١٧٥/٢)

[٢٧٨] الكامل (٢٠٦/٣) و تاريخ الطبري (٤٥٩/٤)

[٢٧٩] تاريخ الطبري (٤٥٩/٤)

[٢٨٠] الفتوح (٢٤٨/٢)

[٢٨١] انظر كتابنا هذا (ص ١٧٥)

[٢٨٢] شرح النهج (٢١٦/٦)

[٢٨٣] شرح النهج (٢١٦/٦)

[٢٨٤] شرح النهج (٢١٥/٦)

[٢٨٥] الدعدعة : الزجر

[٢٨٦] تاريخ الطبري (٤٥٩/٤) و طبقات ابن سعد (٨٨/٥)

والآن تبين لك عزيزي القارئ.. كيف أن عائشة كانت تريد الأمر لابن عمها، تعصبا لبني تيم بن مرة.. وإنها لم تعدل عن قولها إلا بعد أن نزل عليها خبر المبايعة لعلي (ع) كالصاعقة.. فأرعدت وأمطرت.

لقد كان علي (ع) شجا في حلقها.. قذى في عينها.. وقد أسرها موته حين حزن لذلك المؤمنون، وعبرت عن ضغنها حين وصل إليها خبر مقتله قائلة :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر

وقد سألت عمن قتله؟ فقيل: رجل من مراد، قالت:

فإن يك نائيا فلقد نعاه   نعاة ليس في فيها التراب [٢٨٧]

قال : لما أن جاء عائشة قتل علي سجدت [٢٨٨]

وليت شعري ما الذي يمنع ابن خلدون من أن يشير إلى ما قامت به عائشة من مخالفات لشرع الله وخروجها من بيتها بعد أن أمرت بلزومه.. لقد خرجت بألوف من الرجال وردها علي (ع) بأربعين من نساء البصرة.. إنها عبقرية ابن خلدون.. فيلسوف التاريخ وعالم العمران.

---

[٢٨٧] تجارب الأمم / ابن مسكويه (ج ١ ص ٣٨٣) . و طبقات ابن سعد (٤٠/٣) و الكامل (٣٩٤/٣) . و تاريخ الطبري (١٥٠/٥)

[٢٨٨] مقاتل الطالبيين (٥٥) .

ابن خلدون.. ومعاوية بن أبي سفيان!

لا أحد من المؤرخين يشك في درجة انحراف معاوية بن أبي سفيان.. وفي تلك الطعون التي أحصاها عليه المؤرخون.. وكثيرا منهم اتهمه في الدين وحكم بفسقه.. وكيف لا يفسق من قاتل عليا (ع) وقتل عمارا، وحجرا.. وخنق الأمة بسياسة بني هند وأبناء العاص، بعد أن حولها إلى ملك عضوض، وإذا كان الصحابة حسب ما ذكرناه سابقا يعرفون المنافق ببغضه عليا (ع) فكيف بمن حاربه وجعل سبه ولعنه سنة لا تتم من دونها الصلاة ولا تقوم بدونها المنابر.

وعند بن خلدون كعادته في تبرير السلطة وإخفاء الطعون، يقول في شأن معاوية:

" وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة، ولا ينظر في ذلك إلى حديث: الخلافة بعدي ثلاثون، فإنه لم يصح، - والحق - إن معاوية في عداد الخلفاء ".

ورغم إن ابن خلدون يعتقد أن الخلافة في عهده كانت غلبة إلا أنه لم يجد في ذلك ما ينقض حكم الشرع، " فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبهون بعضهم ببعض، وحاشا لله أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده، فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانية ممن تلاه في المرتبة كذلك، وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة

ملكا ″[٢٨٩].

وعلى ذلك الأساس يكون معاوية من الخلفاء الراشدين، الذين سنتهم فرض على جميع المسلمين.

وإن الخلافة التي تأتي عن طريق المغالبة والعصبية ليست ملكا، كما يدعي أهل الأهواء، بل هي شرع له نظائره في سيرة الأنبياء. ″ واعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية والمعبر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة والنبوة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه نبيين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل، ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للاستكثار من الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية مطبعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستعمل العصبية وتدعو لطبيعة الملك[٢٩٠] ″.

ليس التهافت فيما يقوله ابن خلدون فحسب، وإنما البطشة الكبرى عندما تكون ذهنية الجبر والنزعة الحتمية متحكمة في سرده الأحداث وتقييمه للوقائع، نزعة التصويب التي بلغت قمة الاسراف في تاريخ بن خلدون، إن خبرة طويلة في مزاحمة البلاط، وسفر طويل في دهاليز التآمر والتزلف، وفشل قاتل لبلوغ المآرب آل عليا، كل ذلك كان مما لصق بذهن بن خلدون ومن خلاله نظر إلى التاريخ، فخلط وتاه بدون ضوابط.

إن منطق بن خلدون في تبرير السلطة والخلافة كما أحصاها عليه دارسو تاريخه من المستشرقين وغيرهم، استوعبوا هذه النزعة في تاريخه... ونلاحظ ذلك فيما تقدم من كلامه عندما اعتبر ″ الخلافة بعدي ثلاثون ″ حديثا لم يصح، وحجته في ذلك غير منطوقة، فهي مما يكشف عنه السياق... والسياق هنا هو تلك المحاولة الكبيرة في سبك تبرير يشد ظهر خلافة معاوية، بما يشوه حكم الله ويطعن في خاصرة الشريعة.

---

[٢٨٩] تاريخ ابن خلدون (٦٢١/٢)

[٢٩٠] تاريخ ابن خلدون (٦٢١/٢)

ولذلك لم يكن يجد حجة مناهضة في تبرير عدم تضارب الملك مع النبوة والخلافة في مثال ملك معاوية، بل ارتكز على ضرب متهالك من القياس، القياس مع الفارق! " أما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة والنبوة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيين وملكين وكلنا على غاية الاستقامة ".

فابن خلدون كان يجهل أو يتجاهل أن هذا قياس لا أساس ينهض به في مقام الحجية، لأن ملك داود وسليمان هو مما آتاهم الله إياه من دون غلبة أو عصبية، وإنه لم يكن في مقاومة أناس ربيين، أو سفك الدماء المؤمنة، أو سب الرموز الدينية، ومعاوية بن أبي سفيان، ممن أجرى أودية من الدماء كان ضحيتها جيل كامل من المسلمين، وإنه أقام ملكه على محاربة رموز الإيمان ومنازلة التراث الديني، وحسبك أن يعترف ابن خلدون بقيمة أهل البيت في مقام آخر حين اقتضى ذلك منمه التبرير، وقد كان معاوية شديدا عليهم، يقول ابن خلدون، متزلفا إلى الدولة الشريفية في المغرب ومدغدغا لمشاعرها: " على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان، فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. ففراش إدريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن. ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإثمه وولج الكفر من بابه ". ولا يهمنا هنا إن كان ابن خلدون قال ذلك في لحظة الدفاع عن مآرب أخرى. كأن يركز على طهارة المنسب ورفعته في عصمة بعض الخلفاء من القيام بما ذكره المؤرخون في أحوالهم كالرشيد والمأمون. إن ذلك عندي من باب " صلى وصام لأمر يطلبه، فلما قفى الأمر فلا صلى ولا صاما ".

ولكنها تبقى شهادة منه تؤكد على عظمة شأن أهل البيت وعصمة القرآن لهم، وهذا لم يمنعه من أن يبرر ملك معاوية الذي قام على قتال وحصار أهل البيت (ع). حتى أن ابن خلدون أنهى كلامه في كل تلك الأحداث بمدح معاوية والدعاء قائلا:

" والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم ".

لقد أسس ابن خلدون موقفه من معاوية على أساس النسب والشرع،

فالنسب وهو أس العصبية ومناط الغلبة، والاستقامة هي ضمان اعتبار الملك خلافة.

أولا: النسب

النسب بالنسبة لابن خلدون من المسائل الأساسية في تاريخه، بها افتتح كتاب العبر، وضرب الآراء بعضها ببعض، ما بين ناف ومثبت، وانتصر لعلم الأنساب، مشيرا إلى أهميته قائلا:

" قالوا وتدعو الحاجة إليه في كثير من المسائل الشرعية، مثل تعصيب الوراثة وولاية النكاح، والعاقلة في الديات، والعلم بنسب النبي (ص)، وإنه القرشي الهاشمي الذي كان بمكة، وهاجر إلى المدينة. فإن هذا من فروض الإيمان ولا يعذر الجاهل به. وكذا الخلافة عند من يشترط النصب فيها. فهذا يدعو إلى معرفة الأنساب ويؤكد فضل هذا العلم وشرفه، فلا ينبغي أن يكون ممنوعا "[٢٩١] وفي ذلك المبحث تعرض لنسب الأمويين وأشار إلى معاوية قائلا:

" وعقب معاوية بين الخلفاء والإسلام بين معروف يذكر عند ذكرهم [٢٩٢] ".

وركز ابن خلدون على نسب قريش في موضوع السقيفة، وجعله منطقا وجدالا انتصروا به على الأنصار، فلا يخفى بعد هذا إن ابن خلدون ممن يهتم بالأنساب ويجعل لها أهمية كبرى في تمييز الأشخاص والعشائر.

ونطرح السؤال: هل هناك ما يثبت طيب مولد معاوية وطهارته؟.

النسابة هشام بن محمد الكلبي، من المعتمدين عند ابن خلدون وممن استشهد بتراجمهم، يوقفنا في مثالبه الشهيرة عند نسب معاوية قائلا: كان معاوية لأربعة: لعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، ولمسافر ابن عمرو، ولأبي سفيان، ولرجل آخر سماه [٢٩٣].

وكانت حمامة، وهي بعض جدات معاوية، كان لها راية بذي المجاز

[٢٩١] تاريخ ابن خلدون (٦/٢) .

[٢٩٢] تاريخ ابن خلدون (٣٧٧/٢)

[٢٩٣] ربيع الأبرار (٥٥١/٣) و الشرح (١١١/١و٦٨/٤) و التذكرة (١٨٤)

يعني من ذوات الرايات (في الزنا) ، حتي قال أحدهم لمعاوية (حمامة جدتك و كانت بغية في الجاهلية ، لها رأية توتى) [٢٩٤]

بهذا النسب.. يستقيم أمر معاوية، ويستسيغه المخيال الخلدوني، ويجعل أمره لا يخالف النبوة والخلافة.

ثانيا: الشرع

تقوم شرعية معاوية فيما خاضه من حروب، في أنه اجتهد، وهذا رأي ابن خلدون على أساس ذلك الاجتهاد تحل إشكالية الموقف المطلوب اتخاذه إزاء معاوية وأعماله، ولكن لا بد من طرح السؤال، على أي أرضية إيمانية بنى معاوية ملكه؟ وعلى أي أساس شرعي يسوغ تصويب ابن خلدون لفعاله كلها، وكان معاوية - كما أجمع المؤرخون - قد سن لعن علي على المنابر والمساجد.. هذا ناهيك عن قتله للمسلمين وإحداثه في الدين كما أخبر بذلك الرسول (ص) في الروايات المستفيضة في التنبوء ببني أمية.. وهو في نفس الوقت تخطئ لعلي (ع) في قتاله لمعاوية، وفي اعتباره من أهل الفسوق.

[٢٩٤] العقد الفريد (١٦/٤) و الغارات (٤٢ و ٤٣)

كربلا... نموذجا آخرا

لو كانت أحداث كربلاء وحدها لكفت في فضح حقيقة الكفر الأموي، ولأبانت عن طبيعة النفاق الذي بقي ردحا من الزمن يتفاعل داخل نفوس بني أمية يترقب لحظة الانتصار، ليعبر عن قسوته وخشونته ضد البيت العلوي.. ولم يعد بعد واقعة كربلاء ما من شأنه أن يضبب الرؤية، ويعتم الطريق.. فالدماء التي أهرقت في الطف كافية لإعطاء صورة حقيقية لمن شاء أن يعتبر.. ولم يبق بعد ذلك من شك في الأمر إلا عند من طبع الله على قلبه، وأرداه في غواية النواصب وتجار الخلافة.

وإن ابن خلدون لممن حبا على الدرب يؤسس للظلم تاريخا مزيفا.. ويضع قواعد لتسويغ تراث الأمويين والعباسيين.. ولو كانت كربلاء مما جاء بالنصر الدنيوي للإمام الحسين (ع) لما كان ابن خلدون تخلف عن مدحه وملكه، والتعريض بإعداءه.. إنها عقلية " التلال " و " الصلاة مع من غلب " أولم يقلها رجل ليس من ملتنا.. بأنه شخصية وقحة، لا تعرف إلا حقوق القوة، ولا تدرك غير الطغيان!! إي والله، إنه الصواب!.

ولأن واقعة كربلاء، نمت عن مقتل الحسين، وهزيمة جماعته وزوال آخر منافس من آل البيت (ع) تبنى العنف المقدس في كبح جماح الباطل.. فإن ابن خلدون رأى من الحق أن ينتصر ليزيد، ويخطئ الحسين (ع) بصورة يأباها العقل السليم وتمجها الفطر النقية.

فماذا قال في الحسين، وما موقفه من يزيد؟.

إن الحسين (ع) في تاريخ مكيافيلي العرب.. كان رجلا مشهورا.. وإن كان عادلا ومحقا.. وذلك عندما ظنها من نفسه بأهليته وشوكته [٢٩٥] "... وإن كان ابن خلدون قد اعترف له بالأهلية.

" فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة " إلا أنه خطأه في ظن الشوكة " وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها ".

ودليله على ذلك، " أن عصبية مضر كانت في قريش، وعصبية قريش في عبد مناف، وعصبية عبد مناف إنما كانت في بني أمية، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس [٢٩٦] ".

وقد أسرف ابن خلدون في نسبة الغلط إلى الإمام الحسين (ع) إذ قال غير ما مرة:

١ - وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها.

٢ - فقد تبين لك غلط الحسين (ع) إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه.

٣ - وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك.

٤ - وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله.

٥ - فلا يجوز قتل الحسين مع يزيد ولا ليزيد.

ابن خلدون الذي أسرف في التصويب في شأن معاوية ويزيد، هاهو يبالغ في تخطئة الحسين (ع)، وقد كان أحرى به أن يرد الأمور إلى منطقها الحقيقي، من دون تعسف ولا افتعال، ذلك أن الأمور يومها كانت تتحرك في دائرة المسؤولية الدينية، وأن المسلم به يومها أن الخلافة أمر شرعي يتولاها من هو أحق بها، ولم يكن منطلق الحسين (ع) ظني كما يحلو لابن خلدون أن يسميه، وإن كان الأمر كذلك، فإن أباه أولى بذلك لحرصه على قتال بني أمية، فمن قال إن الإمام

[٢٩٥] تاريخ ابن خلدون ص ٢٢٨ ج ١.

[٢٩٦] تاريخ ابن خلدون ص ٢٢٨ ج ١.

الحسين دفع به الظن بالشوكة، وهو يعلم أن العدو يملك من أمرها ما لا يملك، ولكن خروجه كان اضطراريا، وحتى لا يذل بيعته، ويجعلها قرينة – عبر الأجيال – لتصويب خلافة الفساق، ومن جهة أخرى، كان الإمام قد استقدم من قبل أهل الكوفة، الذين أضعفوا شوكته بخذلانهم.

إن ابن خلدون وقع في التباس خطير، عندما اعتبر الاجتهاد منطلقا لثورة الحسين (ع) ويكفيه أن يرجع إلى الخلف، ليرى أن محاربة الخلافة الظالمة كانت ديدنا للبيت الهاشمي.. فأبوه قاتل معاوية.. وكذلك ابنه الحسن (ع) فأي اجتهاد والحكم بفسق يزيد بن معاوية هو مما أقر به بن خلدون نفسه.. وأهليته في إدراك شرع الله كان مما أقر به أيضا، في قوله:

وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه إن الحسين قتل بشرع جده، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء [٢٩٧].

هنا يتبين التناقض المهول الذي تاه فيه ابن خلدون.. أليس جوهر ما ينطق به هو أن من شرع جده أن ينهض يزيد لقتله وأن يسكت أصحابه على ذلك وعدم الخروج على فسقه.

هل هناك منطق يعترف بهذا النوع من التصويب المبتذل الذي يجعل للحق أكثر من وجه:

" والحسين فيها شهيد مثاب، وهو على حق واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد [٢٩٨] ".

ومن هو الذي على باطل، ومن هو الذي يستحق القتل؟

إن منطق القياس (القياس المبتذل)، هو حمار المصوبة في كل المناسبات الذي يهدفون فيه إلى تبرير فسق الفاسقين وظلمهم.. ألا بئس ما يدعون!.

---

[٢٩٧] تاريخ ابن خلدون (١/٢٢٩)

[٢٩٨] تاريخ ابن خلدون (١/٢٢٩)

هناك سؤال يفرض نفسه على الباحث: إذا تبين أن يزيد ثبت فسقه في أيام أبيه، بشهادة ابن خلدون حيث قال: " بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه "[299].

فإن التهمة – إذن – توجه في الأساس إلى معاوية.. خصوصا وأن اتفاقية الصلح بين الحسن ومعاوية كانت تقتضي رجوع الخلافة إليه أو إلى أخيه الحسين (ع).

ذكر ابن خلدون أن بيعة يزيد حدثت لاعتبارات كثيرة منها:

١ – جلب مصلحة ودرأ مفسدة " والذي دعى معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ "[300].

وقال: " فالأول منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته، فإياك أن تظن بمعاوية، رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد، فإنه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه، وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ".

٢ – إن بيعته كانت باتفاق كبار الصحابة وما ثبت عن ابن عمر، هو بسبب تورعه.

قال: " ولايتهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته، فالأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته، خلافا لمن قال باتهامه في الولد والوالد، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظنة في ذلك كله، لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه، من إيثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأسا، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن كان معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب "[301].

وقال: " وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب

---

[299] تاريخ ابن خلدون (٢٢٢/١)

[300] تاريخ ابن خلدون (٢٢١/١)

[301] تاريخ ابن خلدون (٢٢٢/١)

فيه، فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم أجل من ذلك، وعدالتهم مانعته منه "[٣٠٢].

ثم قال في شأن ابن عمر: " وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شئ من الأمور مباحا كان أو محظورا، كما هو معروف عنه ".

لنتوقف إذن عند حقيقة الوقائع التي عاصرت لحظة العهد ليزيد، لنتبين إذا ما كانت الأمور تتم من خلال هذا الوازع ووفق هذا التدبير.

ابن خلدون ينقل في مقام آخر كلاما لمعاوية نفسه جاء فيه:

" فلم يمض إلا قليلا حتى ازداد به مرضه، فدعا ابنه يزيد وقال: يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأمور، وأخضعت لك رقاب العرب. وجمعت لك ما لم يجمعه أحد [٣٠٣]".

تلك هي الكلمة التي قالها معاوية، وهي تعكس البعد القهري في انتزاع البيعة لابنه... فكيف تم إخضاع الرقاب ليزيد؟.

يستحسن عندنا بادئ ذي بدأ، ذكر من عارض بيعة يزيد لنسخ دعوى اجتماع كبار الصحابة وإقرارهم على تلك البيعة، وسنبدأ بعبد الله بن عمر الذي اعتبر بن خلدون فراره محمولا على الورع المعروف عنه.

يذكر اليعقوبي إنه لما حج معاوية وحاول أخذ البيعة من أهل مكة والمدينة، أبى عبد الله بن عمر وقال: نبايع من يلعب بالقرون والكلاب ويشرب الخمر ويظهر الفسوق، ما حجتنا عند الله [٣٠٤]".

وذكر الطبري[٣٠٥] أن معاوية أرسل إلى عبد الله ابن عمر مائة ألف درهم فقبلها فلما ذكر البيعة ليزيد، قال ابن عمر: هذا أراد؟ إن ديني إذن علي لرخيص.

---

[٣٠٢] تاريخ ابن خلدون (٢٢٢/١)

[٣٠٣] تاريخ ابن خلدون (٢٢/٣)

[٣٠٤] اليعقوبي (٢٢٨/٢)

[٣٠٥] الكامل (٥٠٦/٣)

وفي هذا بيان شافي لما انتحله ابن خلدون من فرار بن عمر كان ورعا منه.

فهل ورعه هو الذي جعله يرفض الدخول في مثل هذا الأمر، أم أن المسألة قد تكون على جانب من الصواب إذا ابتنيناها على الأساس الدنيوي والمصلحي للخلافة، كما اعتقد ابن خلدون.

لقد اعتمد معاوية أسلوبين في إجبار الناس على البيعة، الأسلوب الأول يكمن في شراء الأصوات بالمال، كما ذكر ابن الأثير [٣٠٦]، إن المغيرة أوفد مع ابنه موسى عشرة ممن يثق بهم من شيعة بني أمية، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، فقدموا عليه، وزينوا له بيعة يزيد، فقال: معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا على رأيكم؟ ثم قال لموسى سرا: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفا، قال: لقد هان عليهم دينهم.

ومنها أيضا ما سبق أن ذكرناه في حق بن عمر عندما بعث إليه معاوية بالمال لقاء البيعة، وبهذا الأسلوب يكون معاوية قد بنى ملكه على حساب الدين، ولم يبق أي مصلحة في ما رآه معاوية، إنه يدرك قبلا، م أن الدين عائق لبيعة ابنه يجب أن يشترى بالمال.

أما الأسلوب الثاني، فهو الاكراه والتهديد، وهذا ما اشتبه المؤرخون من أن معاوية كان يهدد من خالف البيعة ويجزل عطاء من بايع [٣٠٧].

يقول ابن الأثير: " وكان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له الناس وبايعه [٣٠٨] ".

والآن إليك ما جاء في التاريخ من أحداث واكبت أخذ البيعة ليزيد ونترك للقارئ حرية النظر فيها ليرى إلى أي مدى كان ادعاء ابن خلدون لإجماع الصحابة وسكوتهم وتحري معاوية للمصلحة العامة، مجرد ادعاء باطل.

روى ابن الأثير، إن معاوية كتب إلى مروان في بيعة يزيد، فقام مروان خطيبا فقال:

---

[٣٠٦] الكامل (٥٠٤/٣)

[٣٠٧] العقد الفريد (٣٦٨/٤ - ٣٧٢)

[٣٠٨] الكامل (٥٠٨/٣)

إن أمير المؤمنين قد اختار لكم، فلم يسأل، وقد استخلف ابنه يزيد بعده، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال: كذبت والله يا مروان! وكذب معاوية ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه، ﴿ **والذي قال لوالديه أف لكما** ﴾ ، فسمعت عائشة مقالته من وراء الحجاب، فقامت من وراء الحجاب، وقالت: يا مروان! يا مروان! فأنصت الناس، وأقبل مروان بوجهه، فقالت: أنت القائل لعبد الرحمن أنه نزل فيه القرآن، كذبت والله ما هو به، ولكنه فلان بن فلان، ولكنك فضض من لعنة الله.

وذكر أبو هلال العسكري ،أنه لما قالت عائشة ذلك كتب مروان إلى معاوية بذلك، فأقبل، فلما دنى من المدينة استقبله أهلها، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير، والحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فلما رآهم سبهم واحدا واحدا، ودخل المدينة، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين، ثم خرج معاوية حاجا، فاستقبلوه ثم قال: ألا تعلمون أني كنت قد عودتكم من نفسي عادة أكره أن أمنعكم إياها حف أبين لكم؟ إني كنت أتكلم بالكلام فتعرضون فيه، وتردون علي، وإياكم أن تعودوا، وإني قائم فقائل مقالا لا يعارضني فيه أحد منكم إلا ضربت عنقه. ثم وكل بكل واحد منهم رجلين وقام خطيبا فقال: إن عبد الله بن عمر وابن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بايعوا، فبايعوا، فابتدر الناس يبايعون حتى إذا فرغ ركب نجائبه، ومضى إلى الشام، وأقبل الناس على هؤلاء يلومونهم، فقالوا: والله فما بايعناك ولكن فعل بنا ما فعل [٣٠٩].

وفي رواية لابن الأثير: فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح وإني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه.

---

[٣٠٩] الاوائل (١٦١)

كذلك تمت بيعة يزيد. بشراء الضمائر وإرهاب المعارضين. وكيف يوافق ما رأينا من أمر بيعة يزيد ما ذهب إليه ابن خلدون قائلا: والذي دعى معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ [٣١٠]".

لقد أدرك معاوية كما أكدنا سابقا، فسق ابنه وعلم أنه لا يصلح لحمل الناس على حكم الشريعة فيزيد هو ممن اشتهر فسقه واستهتاره وإن العهد إليه بالأمر قد يسبب مفسدة للأمة، وخرابا لبنيانها الشامخ. لقد ذكر ابن كثير إن يزيد، اشتهر بالمعازف وشرب الخمور والغناء والصيد واتخاذ القيان والكلاب والنطاح بين الأكباش والدباب والقرود وما من يوم إلا ويصبح فيه مخمورا: وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال، يسوق به ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان وكان يسابق بين الخيل وكان إذا مات القرد حزن عليه وقيل أن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقرها فعضته [٣١١].

وذكر البلاذري: كان ليزيد بن معاوية قرد يجعله بين يديه ويكنيه أبا قيس، ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمسخ وكان يسقيه النبيذ ويضحك مما يصنع وكان يحمله على أتان وحشية ويرسلها مع الخيل فيسبقها، فحمله يوما وجعل يقول:

تمسك أبا قيس بفضل عنانها   فليس عليها إن سقطت ضمان

ألا من رأى القرد سبقت به   جياد أمير المؤمنين أتان [٣١٢]

وذكر أبو الفرج الأصفهاني، إن يزيد بن معاوية كان أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه، والأخطل وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه [٣١٣].

---

[٣١٠] تاريخ ابن خلدون (٢٢١/١)

[٣١١] تاريخ ابن كثير (٤٣٦/٨)

[٣١٢] الأنساب / (ج ٤) القسم الأول (ص٢) ، مروج الذهب (٧٧/٣)

[٣١٣] الأغابي (٦٨/١٦)

ولقد أتى به أبوه يطلب له البيعة، وهو لا يزال سكرانا، وأرسل معاوية يزيد إلى الحج وقيل بل أخذه معه فجلس يزيد بالمدينة على شراب فاستأذن عليه عبد الله بن العباس والحسين بن علي فأمر بشرابه فرفع، وقيل له: إن ابن عباس إن وجد ريح شرابك عرفه، فحجبه وأذن للحسين، فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب، فقال: ما هذا يا ابن معاوية؟ فقال: يا أبا عبد الله هذا طيب يصنع لنا بالشام ثم دعا بقدح فشربه ثم دعا بقدح آخر فقال: إسق أبا عبد الله يا غلام فقال الحسين: عليك شرابك أيها المرء. فقال يزيد:

ألا يا صاح للعجب دعوتك ثم لم تجب

إلى القينات واللذات والصهباء والطرب

وباطية مكللة عليها سادة العرب

وفيهن التي تبلت فؤادك ثم لم تتب

فوثب الحسين عليه وقال: بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت [٣١٤].

فهذه يا عزيزي القارئ هي المصلحة التي توخاها معاوية للإسلام من خلال العهد لابنه وذاك هو الغلط الذي ارتكبه الحسين – حاشاه – في تاريخ ابن خلدون لما ثار ضد يزيد الذي بعثه أبوه سكرانا إلى الحسين لتختلط عليه الأمور ويدعو حفيد الأنبياء وبحبوحة الطهر والتقوى إلى السكر ...فيقول له :

ألا يا صاح للعجب دعوتك ثم لم تجب

ولو كانت كلمة " لا " فقط توجب القتل لكانت واجبة على هذا الوضع الذي تكثر فيه الجرأة على الإسلام؟ فهل هذا يدع مجالا للشك في أمر يزيد، أو التصديق بما انتحله ابن خلدون من أن أباه لم يكن على علم بذلك.

لقد بذل الوسع في تبرير تلك الأحداث، ولو باستضعاف الحقيقة الواضحة، وعمدته في كل لك القياس مع الفارق، والتصويب المبتذل، وتسويغ التناقض.

---

[٣١٤] الأغاني (٥٦٣١/١٦) و ابن الأثير (١٢٧/٤)

ثم تعال لكي نرشف من ذلك الكشكول الذي يبعث على الضحك والبكاء على النشوة والعرف على التسلي والاشمئزاز، لترى كيف يتسربل الكفر ببرد الإيمان وكيف برغم انفك الظالمون الذين عاشوا قبلنا كيف تحاسب على ظلمك ولا يحاسب من سبقوك لقد نسي ابن خلدون أن يسمي ذلك صراع طبقي بين طبقات التاريخ. يقول: [٣١٥]

" هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة، والنبي (ص) يقول: " خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاث ثم يفشوا الكذب "، فجعل الخيرة، وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه.

فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا تشوش قلبك بالريب في شئ مما وقع منهم، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك، وما اختلفوا إلا عن بينة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق، وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة، ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم، ويجعله إمامه وهاديه ودليله، فإنهم ذلك، وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه، وأعلم أنه على كل شئ قدير وإليه الملجأ والمصير، والله تعالى أعلم ".

إن ابن خلدون عندما صادف (حديث الخلافة) (الخلافة بعدي ثلاثين) حكم بعدم صحته لأن فيه تعرض لمعاوية وهاهو يعطينا تحقيقا ظالما: " العدالة مختصة بالقرن الأول " وهل قتل الحسين، وهو ظلم بواح يدخل في ذلك العدل؟ أو هل كان ذلك في سبيل جهاد أو إظهار حق كما ذكر. وهل جهاد من يزيد أو إظهار حق منه لما جاء سكرانا إلى الحسين (ع) يدعوه إلى البيعة والخمر معا. وهل إن ذلك الاختلاف الخطير رحمة كما زعم، أو أن تلك الحروب والمعارك الدامية كانت رحمة لنا. مثلما جعل الله رحمته ومغفرته لآدم في إراقة دم المسيح، في العقيدة النصرانية.

هل الحق حق واحد ... أم له وجوه وبطون ... لشد ما شطح ابن خلدون!.

---

[٣١٥] تاريخ ابن خلدون ص ٢٣٠ ج ١.

شبهات بن خلدون والرد عليها

في الفصل السابع والعشرين من المقدمة، خصص ابن خلدون حديثا طويلا عن مذاهب الشيعة في حكم الإمامة ضمنه تحامل شديد على مذاهبهم التي قسمها حسب ما جرت عليه أهواء أصحاب الملل والنحل والتراجم إلى فرق متعددة كان ابن خلدون فيها مجرد مقلد متعصب لمذهبه تبنى الطعون الناصبية على علاتها وقذف بها ذات اليمين وذات الشمال.

والحق أقول، إن ابن خلدون كان أكثر تعسفا وتعصبا من المظنون فيه وأكثر سطحية وعناد مما اشتهر به من نفاذ البصيرة وثاقب النظر.

يبدأ بتعريف لغوي للشيعة ويلخص نظرتهم في الإمامة في أنها ركن الدين وقاعدة الإسلام ثم يقول بعدها: " وأن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتفى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة [٣١٦] ".

وهنا لا بد أن نستفسر ابن خلدون عن هذه النصوص التي ينقله الشيعة ويؤولونها على مقتفى مذهبهم، يقول:

وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي: فالجلي مثل قوله:

---

[٣١٦] نفس المصدر ج ١، ص ٢٠٧

" من كنت مولاه فعلي مولاه ".

هذا هو الجلي من نصوصهم وعلى الرغم من أن ابن خلدون ادعى أنها من النصوص التي لا تصح أو تؤول على غير وجهها فإنه لم يتطرق إلى سندها ولم يباشر في تأويلها على الوجه المطلوب. كما هو دأبه في الرد على ما يقوى عليه، إنه اكتفى بالادعاء وذلك مما لا يغفر على محقق كبير في مستوى ابن خلدون، فمقتضى قوله إن هذه النصوص المنقولة إما أنها لا يعرفها جهابذة السنة ونقلة الشريعة موضوعة أو مطعون فيها أو أنها مؤولة على نحو فاسد.

وهنا لا بد من التركيز على كلمة " جهابذة السنة ونقلة الشريعة " ذلك أننا إذا استنطقنا تراث ابن خلدون عمن هم من تلك المقامات لأجاب على الفور إنهم الطبري واليعقوبي والمسعودي من دواة التاريخ وثقاته. وقافلة المحدثين وأصحاب الصحاح الستة من رواة السنة.

ولا يخفى على الباحث إلى أي حد من الاسراف هو هذا الادعاء. فحديث الولاية المعروف بحديث الغدير. هو من المشهورات عند نقلة الشريعة، وحسبك أن لم تخلوا منه كتب المشاهير من مؤرخي ورواة الأخبار بمن فيهم ناصبيها الكبار، كصاحب الصواعق المحرقة، وابن كثير.

وقبل أن نذكر مختلف الطرق التي روي بها الحديث وتواتر عليها، لا بد من أن نحصي عدد رواته.

ذكر صاحب كتاب الغدير – عبد الحسين الأميني - إن عدد رواته من العلماء تسعة وثلاث مئة (٣٦٠) وإن عدد رواته من التابعين أربع وثمانين (٨٤) ومن الصحابة، مئة وعشر (١١٠) [٣١٧].

وقد ذكره نقلة الأخبار بأسانيد وطرق مختلفة، فمن المؤرخين ذكره الطبري في مؤلفه الخاص، وابن كثير في التاريخ وابن الأثير في أسد الغابة وابن عساكر في الأوائل، كما رواه من أعلام المحدثين أحمد بن حنبل، النسائي، الحاكم، والحافظ بن حجر، والطبراني.

---

[٣١٧] الغدير (٦٠/١) و (١٥١/٧٢)

ومن المتعصبين الذين اعترفوا بتواتره وصحته، صاحب الصواعق المحرقة بن حجر الهيثمي والذهبي وابن كثير، إذ قال: شيخنا أبو عبد الله الذهبي، وهذا حديث صحيح.

وحسبك أن يكون ابن جرير الطبري كبير الممدوحين والمعتمدين لدى ابن خلدون، قد أفرد لهذا الحديث كتابا خاصا سماه " الولاية " من خمسة وسبعين طريقا.

وهاك بعض من تلك الطرق التي روي بها:

ذكر الحاكم في مستدركه عن زيد بن أرقم من طريقين: قال لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقمن فقال: كأني دعيت فأجبت وإني قد تركت فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ثم قال:

إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد علي فقال من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وذكر الحديث بطوله ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

ورواه الإمام أحمد بن حنبل [٣١٨].

عن البراء بن عازب من طريقين أيضا، قال: كنا مع رسول الله فنزلنا بغدير خم فنودي فينا الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله (ص) تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيد علي فقال: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا بلى، قال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه، قالوا: بلى قال: فأخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه قال فلقيه عمر بعد ذلك فقال له: هنيئا يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة.

وفي رواية أخرجها الطبراني وصححها ابن حجر عن زيد بن أرقم قال:

---

[٣١٨] مسلم أحمد ج ٤، ص ٢٨١.

خطب رسول الله (ص) بغدير خم تحت شجرات فقال:

" أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب وإني مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيرا فقال:

أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور قالوا بلى نشهد بذلك قال: اللهم اشهد ثم قال: فمن كنت مولاه فهذا مولاه – يعني عليا – اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ". [٣١٩]

وذكره النسائي عن عائشة بنت سعد قالت سمعت أبي يقول سمعت رسول الله (ص) يوم الجحفة فأخذ بيد علي وخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني وليكم قالوا صدقت يا رسول الله ثم رفع يد علي فقال هذا وليي ويؤدي عني ديني وأنا موالي من والاه ومعادي من عاداه.

هذه نماذج يسيرة جدا فيما لو قيست بخضم المرويات التي لا طائل من ذكرها هنا، وقد بلغ التواتر به حدا أضحى كلاما يجري على ألسن كبار الشعراء وتتلقاه الآذان من دون رد ولا استغراب.

قال أبو تمام:

ويوم الغدير استوضح الحق أهله   بفيحاء ما فيها حجاب ولا ستر

أقام رسول الله يدعوهم بها   ليقر بهم عرف وينآهم نكر

يمد بضبعيه ويعلم أنه   ولي ومولاكم فهل لكم خبر

يروح ويغدو بالبيان لمعشر   يروح بهم غمر ويغدو بهم غمر

فكان له جهر بإثبات حقه   وكان لهم في بزهم حقه جهر

أثم جعلتم حظه حد مرهف   من البيض يوما حظ صاحبه القبر [٣٢٠]

وإن كان ابن خلدون يعتقد أن بعضا من تلك المرويات خاضعة لفساد تأويل الرافضة لها، فهب إننا أعفيناه من ادعاء الطعن في صحة إسناد الحديث فماذا يكون الأمر يا ترى، فيما لو حملناه على فساد التأويل، إن التأويل الفاسد هو ذلك

---

[٣١٩] الخصائص ص ٢٥ في باب الترغيب في موالاته والترهيب من معاداته.

[٣٢٠] ديوان أبي تمام(١٤٣) و الغدير (٣٣٠/٢) .

الذي يبتعد كثيرا بالنص عن معناه الواضح والظاهر من دون قرينة تشد ظهره، وحديث الولاية، مما تيسر فهمه، لوضوح منطوقه وامتناع مفهومه عن التعمل والتكلف، ولم يسع إلى تأويل هذا الحديث إلا بعض من النواصب المتعصبين من العامة، وإن الرافضة على عكس ما ادعاه ابن خلدون، لم يؤولوه.

ولو أننا قبلنا الخوض في مثل هذه الترهات التي لا سند من العقل ينهض بدليليتها. لاختزلناها في كبير النواصب بن حجر الهيثمي، الذي قبل الحديث وصححه، وراح وراء تأويله الفاسد.

وهاك ما رامه من تأويل لكي نعلم أي الحزبين أكثر تقلبا في فساد التأويل.

يقول ابن حجر في الصواعق المحرقة: " لا نسلم إن معنى الولي ما ذكره، بل معناه الناصر والمحبوب، وهو حقيقة في كل منها، وتعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به، وتعميمه في مفاهيم كلها لا يسوغ [٣٢١] ".

ولا أظن أن ابن خلدون، وابن حجر، يجهلان معنى المشترك اللفظي.

إن ثمة معايير أتقنها أهل اللغة والحديث. في تأويل ذلك النوع من الألفاظ.

وأنه لمن السخف والعار أن يدعي أن الحقيقة موجودة في كل معانيه، في مقام حديث الغدير من دون الإشارة إلى القرينة كشرط في تخصيص معناه. فابن حجر يريد أن يقول:

١ - لا نسلم بأن معنى الولي ما ذكروه، بل معناه الناصر والمحبوب.

٢ - تعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به وتعميمه في مفاهيم كلها لا يسوغ.

لو سألنا ابن خلدون عن أفضل من تعاطى مع حديث الغدير بالتأويل الحسن، لقال ابن حجر لما يدل عليه الحال من ادعاء ابن خلدون فدعنا هنا نعالج ما قاله ابن حجر.

في العبارة الأولى هناك مجازفة تنطوي على جهل وقلة علم، فقوله:

---

[٣٢١] الصواعق المحرقة (٤٣).

لا نسلم بأن معنى الولي ما ذكروه، يخفي موقف التمذهب، لأن التسليم في هذه المقامات ليس من اختيار الأهواء النفسية والمذهبية، بقدر ما هو تقرير العلم، فاختياره الناصر والمحبوب هو أيضا مما يثقل تقبله على العقل، لأنه لا دليل يقتضيه، وهو من قال: تعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به، كما أن معنى الناصر والمحبوب هي أبعد المعاني عن مفهوم الولي من الإمامة نفسها، والقرائن على ذلك ظاهرة، يدل عليها الحال من خطبة الرسول (ص) وظروفها النفسية والتاريخية.

فتاريخ الخطبة تزامن مع نهاية وختم الرسالة، وعلى أثرها نزل الوحي معلنا بإكمال الدين. وجغرافيتها منطقة نائية، وطقس حار. كل هذا لا يدل على أن المقام، هو مقام حديث عن المحبة والنصرة.

هذا بغض النظر عن عدم وفاء أصحابه بالمحبة والنصرة. بل وإنه حتى على أساس هذا التأويل يبقى ابن خلدون محاصرا بحرج شديد. في أمر الأمويين الذين لم يحبوا ولم ينصروا عليا (ع).

وهكذا يكون الجلي من نصوص الشيعة جليا حقيقة. ولا مهرب بعد ذلك من إقامة الحد على الادعاء الخلدوني. جزاء وفاقا لما رامه من تهريج يمجه طبع الغرير.

وفي مورد آخر يتعرض ابن خلدون لما تدعيه الشيعة من وصية الرسول (ص) للإمام علي (ع) قال:

" والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي (ص) وما تدعيه الشيعة من وصية لعلي (رض) وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل [٣٢٢] ".

وقد تبين في ما ذكرنا آنفا تواتر حديث الغدير وبؤس التأويل الذي حملوا عليه لفظه، إضافة إلى ذلك الحديث، هناك ما كنا سقناه في الفصول السابقة من هذا الكتاب، والتي تعددت حتى فرضت تواترها على رواة الحديث من العامة.

وحسبك من ذيوع خبر الوصية أن الشعراء تغنت به في مختلف المعارك التي شهدها

[٣٢٢] مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٤.

الإمام علي (ع) وإن ذلك كان من مختصاته.

حتى قال فيه حسان بن ثابت:

جزى الله عنا والجزاء بكفه أبا حسن عنا ومن كأبي حسن

حفظت رسول الله فينا وعهده إليك ومن أولى به منك من ومن

ألست أخاه في الهدى ووصيته وأعلم منهم بالكتاب والسنن [٣٢٣]

وحتى قال فيه أحد أعداءه في حرب الجمل وهو من ضبة:

نحن بنو ضبة أعداء علي ذاك الذي يعرف قدما بالوصي [٣٢٤]

وقول الكميت [٣٢٥]:

والوصي الذي أمال التجو بي به عرش أمة لانهدام

وقول السيد الحميري [٣٢٦]:

والله من عليهم بمحمد وهداهم وكسا الجنوب وأطعما

ثم انبروا لوصيه ووليه بالمنكرات فجرعوه العلقما

وقول المتنبي [٣٢٧]:

وتركت مدحي للوصي تعمدا إذ كان نورا مستطيلا شاملا

وإذا استقل الشئ قام بذاته وكذا ضياء الشمس تذهب باطلا

وكذلك اختص الإمام بهذا اللقب، وكان نشيدا على ألسنتهم كما قدمنا.

فكيف مع كل هذا يدعي ابن خلدون إن ذلك لم يصح. ويا ليته قال ذلك وكفى.

بل زاد الطين بلة حين ادعى للهوه أنه " ولا نقله أحد من أئمة النقل ".

وقد أثبتنا بقاطع البرهان، أن المؤرخين المعتمدين عند ابن خلدون، قد ذكروا روايات عن الوصية ومنهم اليعقوبي في تاريخه، بل إن مؤرخين كالطبري

---

[٣٢٣] اليعقوبي (١٢٨/٢) و شرح النهج (٣٥/٦)

[٣٢٤] شرح النهج (١٤٤/١)

[٣٢٥] الكامل (١٥١/٢)

[٣٢٦] الأغاني (٤/٩)

[٣٢٧] ديوان المتنبي

والمسعودي وهما العمدة عنده، أفردوا لحديث الوصية كتابين خاصين، ابن جرير الطبري سماه ″ الولاية ″ كما ذكرنا، والمسعودي سماه ″ إثبات الوصية ″ هذا مع أن الصحاح الستة تطفح بما يخرص الألسن من الروايات المؤكدة لوصيتهم.

لقد أورد ابن خلدون حديث الدواة، مدعيا إن ذلك دليل على عدم الوصية.

وأضاف إلى ذلك بعضا من شطحاته التي انتهت به إلى القدح في شخص الإمام علي (ع) بإيراد رواية شاذة جدا، يدل على ضعفها الحال من سلوك الإمام علي ومواقفه في قضية الخلافة، قال: والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع، وكذا قول عمر (رض) حين طعن وسئل في العهد فقال: إن أعهد لقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي (ص) لم يعهد، وكذلك قول علي للعباس (رض) عنهما حين دعاه للدخول إلى النبي (ص) يسألانه عن شأنهما في العهد، فأبى علي من ذلك وقال:

إنه إن منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر؟ وهذا دليل على أن عليا علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد [٣٢٨].

وقد سبق أن تعرضنا إلى تفاصيل الحدث الذي سماه ابن عباس بالرزية.

وابن خلدون طوى كشحا عن تسمية الحديث بما يشير إلى ملابساته وخطورة معناه.

وكأن ابن خلدون هو أدرى من ابن عباس بالمغزى من حديث الدواة. لذا استسهل وهون لما استفظعه ابن عباس، ولم يتعرض أيضا لقول الرسول (ص) وكيف رد على عمر، وكيف أن الرسول (ص) غضب لذلك وطلب منهم الخروج، والحال كان يجسد قرينة على امتناع عمر عن الاستجابة لطلب الرسول (ص) وليس قرينة على أنه لم يدل على الوصية لعدم وقوعه، فعدم وقوع الوصية يوم الخميس هو قرينة على حقيقة الاغتصاب، لا على عدم الوصية، وقد سبق أن حللنا المسألة.

---

[٣٢٨] مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

وبعدها لم يجد ابن خلدون في نفسه حرجا مما أقدم عليه من اتهام لشخص الإمام علي (ع) في أنه امتنع عن الاستجابة للعباس حرصا على طلب الخلافة وهو أمر يكفي رده بما سبق أن ذكرناه، ولا أدل على ذلك من موقف الإمام علي (ع) فلو كان الأمر كذلك، إذن لما جرى له من صراع مع الخلفاء ولما حارب من أجل استرداد ما رآه حقا مغتصبا.

وهذا لعمري، هو عين التحريف، وقلب الحقائق على خياشيمها.

يزيد ابن خلدون كلامه، بهذه العبارة التي تلخص نظريته المتداعية حول الإمامة:

" وشبهة الإمامية في ذلك إنما في كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك، وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق.

ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة [٣٢٩] ".

ولعل الشبهة التي دفعت ابن خلدون إلى جمع ما شذ من أخبار في تصويب تيار الغلبة هو اعتبار الإمامة أمرا ثانويا متروكا للمصلحة وحتمية الغلبة، وهي الشبهة أيضا التي أكبت ابن خلدون على وجهه ليلعق طرق التدليس والتلبيس على صحون التصويب والأقيسة الرديئة!.

لقد قاس الإمامة على الصلاة، واعتبر الأولى أقل شأنا من الثانية، متناسيا أن لا قيمة للصلاة إذا لم تكن على أساس من الولاية، مما يقيم صرح كل العبادات، وأي دين بقي لهم عندما زحزحوا الولاية الشرعية عن أهلها.

واعتبر عدم شهرة الوصية مقابل شهرة الصلاة، كدليل على عدم وقوع الأولى، وشبهته في ذلك واضحة، ذلك أن الشهرة لا تجبر الضعيف، ورب حديث تواتر نقله على ألسن الغوغاء وهو في أصله من مرفوعات الوضاعين، ورب حديث صحيح صريح، استضعفته يد السلطان، فصار في دهاليز الآحاد، وهبنا قبلنا طريقة برهانه، فإن أحاديث الوصية كما ذكرنا هي مما اشتهر وتواتر، وإن

---

[٣٢٩] مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

حديث الصلاة رغم إنه لا يفيد في هذا المقام هو مما شذ وضعف فأي شهرة باتت لحديث الصلاة، وبأي الحديث أنتم مؤمنون!.

ويشط النصب بابن خلدون فيقرر:

" ويدل ذلك أيضا على أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم[٣٣٠] ".

ويقول:

" فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي (ص) غير مهمة، فلم يعهد فيها. ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشئ[٣٣١] ".

أي إن الإمامة لم تكن ذات أهمية إلا مع تدهور الوازع الديني وذهاب الوصي وغياب المعجزة، وحلول العصبية محل ذلك، وهذا لعمري تناقض كبير، فها هو يعتبر أن الإمامة لم تكن تقوم على العصبية، ويعترف في ما سبق من كلام بما جرى من جدال داخل السقيفة على أساس أن الفريقين كانا يجادلان بالانتساب إلى العشيرة، كانتساب أبي بكر لقريش ورد عمر على الأنصار بنفس المنطق.

وليتني عرفت أي طريق يسلك ابن خلدون لأقتفي آثاره، ومن أي معين يغترف تبريره لكي أضبط قصده، إذ كيف تكون الإمامة غير مهمة في تلك الفترة، وهي مما أثار أشد الخلافات بعد رسول الله (ص) وفيها يقول الشهرستاني: " أذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الأمامة في كل زمان"[٣٣٢] .

ولو لم تكن مهمة لما قاتل عليها الصحابة وجادلوا فيها بعضهم بعضا، إن ابن خلدون لم يكن - حقيقة - يفهم شيئا غير منطق الغلبة والقوة، فأصبح الشرع عنده لا يدرك إلا من هذه الزاوية البشعة.

وهكذا يتوضح لك - عزيزي القارئ - أن ابن خلدون لم يكن محققا ولا موضوعيا فيما ذهب إليه في هذا الأمر. لقد رقع غير ما مرة حتى اتسعت الرقعة على

---

[٣٣٠] مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

[٣٣١] مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٤)

[٣٣٢] الملل و النحل : ٦.

راقعها، وزيف الأحداث بنوع من السخف يثير على القرف والغثيان.

وإنه ما فعل ذلك إذ فعله إلا دفاعا عن مذهبه، لا دفاعا عن الحقيقة المقدسة، وهو الذي قال بعد سلسلة من التحريفات، " فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم، ولا قدح في شئ من ذلك، فهم من علمت، وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة، إلا قولا للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم يلتفت إليه أحد من أهل الحق ولا عرج عليه [٣٣٣] ".

فالحق عنده هو ما استقر عليه مذهبه، وأهل الحق هم من انتسب لفريقه، فأهل الحق على أساس ادعاءه هم وحدهم أهل السنة، وهذا بهتان عظيم.

وقد كان كلامنا عن ابن خلدون، لأنه من أشهر المؤرخين الذين حاولوا أن يفلسفوا الإمامة عند أهل السنة، وحاولوا تأسيسها نظريا، انطلاقا من مجريات واقع الخلافة وواقع تداعيتها بكثير في التحريف والتزوير.

كان ابن خلدون بلا شك، أشبه بميكيافيلي في موقفه من الأمير.

---

[٣٣٣] تاريخ ابن خلدون ص ٢٢٦ ج ١.

الباب الثالث

عبقريات في الميزان

أوهام... مقدسة

لا أقصد من خلال هذا المبحث، النيل من أصحاب القداسة، حبا في التجرؤ على المقدس، ونزوعا إلى الثورة على الأوضاع، ورغبة في التغيير الفوضوي للمفاهيم والقناعات، إنها نتيجة موضوعية لنظر دقيق في التاريخ، بنوع من الاستقلال ونحو من التجرد.. وغاية نبيلة من وراء ذلك، وهو إنفاذ العقول من تقديس البطل الوهمي، وعبادية، وهؤلاء العباقرة الذين نتوخى دراسة أخبارهم، ليسوا وهميين في أشخاصهم، فأبو بكر الذي هو من تيم والذي مات من أثر السم، وعمر بن عدي، الذي قتل في المسجد، وعثمان من بني أمية المقتول يوم الدار، ليسوا وهميين من ناحية تشخيصية، فكل ذلك واقعي وحقيقي، إنما الأشخاص الوهميين عندنا، هو عندما تسود النظرة الأسطورية لهؤلاء الأشخاص، وتتعاظم صورتهم بشكل تكثر فيه المبالغة، عظمة تفوق أحيانا، عظمة الأنبياء والمرسلين.

ولمن رام ذلك عذره فقد حاولوا ذلك حتى يرمموا ما فسد، ويضمدوا جرح التاريخ ويلموا شعثه، ولكن ما لنا وتلك الأعذار، نحن طلاب حقيقة ولسنا طلاب تبرير.

وهكذا استنجد ربي على من غلط في حقنا، وأساء الظن في قصدنا، ورمى الحقيقة من وراء ظهره، ألا يكون علينا إن شاء الله شديدا.

وما دام أن بحثنا يصب في قالب الخلافة والتحريف، ارتأينا اختيار نموذج لتلك

الكتابات التي تمت فيها المبالغة الزائدة في تصوير الخلفاء، بناء على معطيات مهزوزة، فوجدنا كتابات العقاد نموذجا لذلك، فهي تحبك أرقى العبارات الأدبية حول تلك الشخصيات، رويت استجابة لتلك الأعذار التي ذكرناها.

العبقرية

أتسأل أحيانا عمن هو العبقري؟ أهو العقاد - نفسه - عندما جعل من الأسطورة، حقيقة. بأدبه الراقي وشاعريته المرهفة. أم أشخاصه الذين تعرض لهم وسماهم عباقرة.

وليعذرني الأديب العربي القدير. على هذه الجرأة التي لا تحجب مقدرة الرجل وعظمة إبداعه. ولقد كان أجاد رحمه الله وصف علي (ع) في عبقريته، والحسين (ع) في أبي الشهداء والزهراء في فاطمة والفاطميون. ولمن أوتي ملكة التمييز وذائقة القراءة الحرة. يمكن أن يكتشف مدى مغالاة العقاد في الشيخين، وكأن العياء بدا يصيب أديبنا في نهاية المطاف.

وليعذرني الأديب العربي الذي قدرنا عظمة إبداعه، واغترفنا من معين أدبه، أن لا يؤاخذنا ونحن ننسف الأسس التي أقام عليها مباني عبقريته، وصروح أبطاله، فرحمة الله عليه لم يكن يعلم أن التصوير الفني الزائد لمثل هؤلاء الأشخاص قد يتحول إلى دين. فلنضح هذه المرة، بالأدب في سبيل إعلاء راية التحقيق فإن ثمرة ذلك أعم نفعا وذات إيجابية على أمتنا.

فما هي العبقرية... ومن هو العبقري؟

العبقرية مفهوم معقد. لأنه ينطبق على أشخاص معقدين. ليس معنى ذلك على نحو ما تعارف عليه أطباء النفس الإنسانية. وإنما العقدة هنا منظور إليها من

ناحية تظافر معاني العبقرية واشتباك دلالاتها.

العبقري هو ذلك الذي شحذ ملكاته كلها بموهبة خارقة، وجعلها بحيث تكون حالة من حالاته الدائمة، وحالة من حالاته الشمولية، فهو عبقري، لأنه دائم السمو والإبداع والخلق، ولأنه شامل في كل هذا، فهو سامي بكل ما تعني كلمة سمو، في الروح والعقل والبدن، وبهذا الاعتبار كان عدد العباقرة معدودا على الأصابع، ونادرا كندرة الكبريت الأحمر!.

والعبقرية أيضا ينظر إليها في محيطها الجغرافي وبيئتها الاجتماعية، وطورها التاريخي فهي لها ما يميزها عن العبقرية في بلاد الإغريق، أو في بلاد فارس، ذلك أن أجواء الصحراء العربية وما يميز ساكنتها من خشونة في الطباع، وانقسام في الاجتماع، وتنقل عبر الكثبان الرملية البعيدة والمرهقة بخيامها المنتصبة وإبلها المتسيبة وأشعارها وأرجازها. ليست هي إغريقيا أو أثينا أورقورينا. بتماثيلها ومسارحها وحكمها. وينقلنا إلى تلك المفارقة ما جرى بين الطبيب اليوناني والإمام علي (ع) [٣٣٤].

فهذا الطبيب اليوناني، بالإضافة إلى شركه وجهله المسبق بحقائق هذه الشخصيات، لم يكن مستهزئا ولا حاقدا، إنه عالم من علماء الطب الحكمي. جاء متشبعا بنظرة الأغارقة للجمال كما تمثله ايقوناتهم وكما برز في نحوتهم. الساق العامرة الممتلئة، والانسجام العضلي الدقيق كما تبدعه أنامل النحاة في بلاد الإغريق، وكان ذلك الطبيب يرى أن ما ينقص عظمة الإمام علي (ع) هو هذه الساق الدقيقة النحيلة وعدم الانسجام بين بطنه وساقه، كانت هذه النظرة تختلف عن نظرة عبقري آخر، ابن الجزيرة العربية، متشبعا بقيم سماوية تبعث في سمو الروح وقوة الباطن وجمال الخلق الاجتماعي، وتجد بديلا عن حسن المراسم والقسمات ومضة النور التي تخرج الذات من ظلمتها وتكسبها جمالا أخاذا، يخاطب النظر والروح معا، إنها مفارقة، تجعل من معاني العبقرية أمرا معقدا للغاية، والعقاد وهو يأخذ على نفسه العمل على إبراز جانب العبقرية من الخلفاء، كان بلا شك يحاول استغلال جمال التصوير الأدبي لشخصيات وهمية

---

[٣٣٤] الاحتجاج / الطبرسي (ص ٣٥) .

لا تنطق على واقعها التاريخي وكأنه أمام أسطورة من أساطير اليونان، يحاول إعادة رسم صورتها الأدبية، فجعل من أبي بكر وعمر وعثمان عباقرة لا تدركهم الألباب ولا تحيط بهم العقول، ودأب مؤرخون وأدباء مشغوفون بالتصوير الفني للشخصية التاريخية، أن يجعلوا لهذه الجماعة مميزات وخصائص ترقى بهم إلى مصاف أولي الشأن ممن ينذر لهم نظير من بين جحافل العامة.

وكان العقاد في عبقرياته ممن سافر تبعيدا في حبك تلك الصور، وممن أتقن بفعل نبوغه وثقافته النوعية رسم صورة فنية وضبط مفاتيح لشخصياته.

ومما لا شك فيه أن القارئ يمكنه الخروج بمجموعة أوصاف ومميزات تكرست في مؤلفات العقاد حول الشيخين وعثمان، وسوف نبينها في المخطط التالي:

أبو بكر:

صدقه (الصديق) - التقوى والورع - التفقه في الدين والعلم الغزير.

عمر:

التمسك الشديد بأحكام الدين.

العدل. شجاعته في دحر الباطل.

عثمان:

سخاءه وعطاه - تقواه وزهده - حياءه المتميز.

هذه باختصار مميزات عبقريات العقاد. وهي مما كرسته المدرسة الأموية في سبيل تكثيف مميزاتهم لحجب قيمة الإمام علي (ع) وأهل البيت (ع) ولا شك، ونحن نعالج موضوعنا، إن مميزات عباقرة العقاد، تتجاوز في سموها وعظمتها تلك المميزات التي اعترفوا بها للرسول الأعظم (ص).

وسوف يكون منهجنا في كسر هذه الأصنام الوهمية، هو التركيز على الأساس الذي انبنت عليه عبقرياتهم الموهومة، لإعادتهم إلى أشكالهم الحقيقية.

فالقصد عندنا هو إحقاق وتطهير التاريخ من تزوير المؤرخين ومبالغة الأدباء، والله مالك أمره.

الذاكرة.. أساس الشخصية!

تكمن عدالة الإسلام في رفع التكليف عما يتعلق بالذاكرة، إذا صمم المسلم على تجاوزها في حالة مخالفتها لصريح الأحكام الشرعية، وذلك مرجعه إلى واقعية التقدير الذي يكنه الإسلام للإنسان، فهو ينظر إليه مجردا من ماضيه الشركي مثلا، وفي كلامنا عن الخلفاء نضطر إلى استحضار بعض من تاريخهم ليس من أجل تحميلهم إياه ومحاكمتهم من خلال ذاكرتهم الجاهلية. إنما لسببين ضروريين:

أولا: من أجل معرفة مدى عزوفهم عنها، إذ أن الحفاظ على بعض من تلك القيم الجاهلية يجعل من الحق التعرض لهم والحكم عليهم من خلال ماضيهم، لأنه - إذ ذاك - يشكل رافدا حقيقيا لسلوكهم.

ثانيا: لأنه مهما كان الأمر، فإن التاريخ ضروري لضبط معايير الشخصية وإحراز العلم بمفاتيحها الحقيقية ولأنه إذا لم يخل من تلوث، فإنه يتحول إلى رافد لا شعوري لسلوك الإنسان.

ولنبدأ قبل كل شئ بقضية أساسية، لها علاقة مهمة بالتوازن الشخصي وهي قضية الخمر في الجاهلية، فكما سبق أن أكدنا، فإن الخمر لم تكن من عادة سادة العرب، كشأن بني هاشم مثلا، بقدر ما هي عادة لأذل أحياءها.

ولنر كيف أن الخمر تمكنت من الشيخين. وكيف أنهم أبوا الانتهاء عنها حتى

أصبحت حرمتها واضحة للجميع. بل كما سنرى إنها ظلت متمكنة من بعضهم إلى آخر أيامه. كل ذلك لنزعزع الأساس الذي قامت عليه عبقريتهم. أساس الورع وما يترتب عليه من قيم وسجايا.

لقد ثبت أن أبا بكر كان مدمنا على الخمر والقمار في أيام الجاهلية، وهذا يخالف ادعاء بعض المؤرخين، من أنه كان سيدا وقورا في قومه قبل الإسلام، ومن أنه كان متورعا عن كثير من الصفات والأخلاق الجاهلية.

وهناك أحاديث كثيرة تثبت ذلك وعلى رأسها حديث أبي القموص الذي أخرجه الطبري في تفسيره عن أبي بشار، قال: عن أبي بشار عن عبد الوهاب عن عوف عن أبي القموص زيد بن علي قال: [٣٣٥] أنزل الله عز وجل في الخمر ثلاث مرات، فأول ما أنزل قال الله: ﴿**يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾ قال: فشربها من المسلمين من شاء الله منهم على ذلك حتى شرب رجلان فدخلا في الصلاة فجعلا يهجران كلاما لا يدري عوف ما هو أنزل الله عز وجل فيها: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾ ، فشربها منهم وجعلوا يتقونها عند الصلاة حتى شربها فيما زعم أبو القموص إن رجلا ينوح على قتلى بدر:

تحيي بالسلامة أم عمرو — وهل لك بعد رهط من سلام؟

ذريني اصطبح بكرا فإني — رأيت الموت نقب عن هشام

وود بنو المغيرة لو فدوه — بألف من رجال أو سوام

كأني بالطوى بدر — من الشيزى يكلل بالسنام

كأني بالطوى طوي بدر — من الفتيان والحلل الكرام

قال، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فجاء فزعا يجر رداءه من الفزع حتى انتهى إليه لما عاينه الرجل فرفع رسول الله (ص) شيئا كان بيده ليضربه قال: أعوذ بالله من غضب الله ورسوله والله لا أطعمها أبدا فأنزل الله تحريمها ".

في هذه الرواية، كلام عن رجل مجهول، شرب الخمر فراح يرثي قتلى بدر من الكفار والمشركين.

---

[٣٣٥] تفسير الطبري ج ٢ ص ٢٠٣

وفي إخفاء اسم هذا الرجل تكمن دلالة كبيرة، هي أن ثمة محاولات عدة لإخفاء فضائح الشيخين والكثير ممن حسبوهم من الصحابة، وتدل قرينة الحال على أن أبا بكر هو ذلك الرجل المجهول، على طريقة الطبري الذي أخفى أكثر من مرة أسماء هم على غرار حديث الدار. وسوف نعرض لبعض من تلك الروايات التي ذكر اسمه فيها ليكون حكمنا على علم ويقين.

لقد جاء في رواية البزاز عن أنس بن مالك قال: كنت ساقي القوم تينا وزبيبا خلطناهما جميعا وكان في القوم رجل يقال له: أبو بكر فلما شرب قال:

أحيي أم بكر بالسلام　　وهل لك بعد قومك من سلام؟

يحدثنا الرسول بأن سحتا　　وكيف حياة أصل أو هشام [٣٣٦]

وهذا خلاف لما ادعاه البعض، من أنه حرم الخمر على نفسه في الجاهلية والإسلام.

لقد أردت من هذا كله، إيجاد مفتاح لفهم حقيقة شخصية أبي بكر قبل الولوج في زعزعة الصورة الأسطورية التي أهدتها إياه أقلام المحرفين. ذلك لما يمثله الادمان على الخمر في النفوس. فلقد كانت هذه من أقبح سلوكيات البشر على مر السنين وأخسها، وقد ذم الخمر حتى في أساطير الأولين، وكانت تمثل رمزا للانحطاط والخسة والمهانة.

ثم ماذا عن تلك الأسس التي أقام صرحها المؤرخون والأدباء في حق أبي بكر وعلى رأسهم صاحب عبقرية الصديق؟.

كان أهم مفتاح من مفاتيح العبقرية البكرية، هو الصدق.. ومن ذلك سماها العقاد - عبقرية الصديق - فلنلق نظرة سريعة عن واقع هذا المفتاح للوقوف على مصداقيته.

الصدق والصديق.. أية علاقة

في بداية كلامنا نطرح اعتقادنا حول تعسف هذه الأوصاف.. فاسم الصديق

---

[٣٣٦] مجمع الزوائد ٥: ٥١.

لم يتحول إلى كنية لأبي بكر إلا في العهود المتأخرة والاسم الذي كثر تداوله في زمن الرسول (ص) هو " أبو بكر " وابن أبي قحافة، ولم تكن تلك سوى من إبداع البكرية وأنصار مدرسة الرأي، لكي يجعلوها شعارا معززا للخلافة المغتصبة.

وقد جعلوا صفته تلك كناية عن إسلامه المبكر وتصديقه للرسول (ص) وللعاقل أن يتأمل في ثنايا هذه الحبكة التعسفية، فليس أبو بكر هو أول وآخر من آمن وصدق بالرسول (ص) فكثير من أصحابه آمنوا به وصدقوه بل وبعضهم سبقه بالصدق والإيمان.

والإمام علي (ع) كان - على صغر سنه - أول من أعلن إسلامه بعد بعثة الرسول (ص) وهو أول من صدقه.. وهو المدعو صديقا، وقد ادعاها لنفسه وأنكرها على غيره.

وكأنه بذلك يروم فضح سياسة خلق الشعارات وإطلاقها بلا مبررات.

يقول: " أنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب آمنت قبل أن يؤمن الناس سبع سنين[٣٣٧] ".

ومن صدقه، رأينا كيف نازع أهل البيت (ع) بحديث مزعوم في شأن إرثهم.

ومنعهم حتا لهم من الله به عليهم. وسوف أعطيكم هنا بعضا من القرائن التي لا تجعل لشعار الصدق مصداقية في سلوك ومواقف الخليفة.

١ - الصدق في المواطن

إن أولى التعاريف التي جعلت للصدق في الإسلام، هو الصدق في المواطن وعدم الفرار عند الزحف، وهو ما رأيناه عند الخلفاء الثلاثة عندما فروا يوم أحد، وخذلوا الإسلام، وتركوا الرسول (ص) منفردا في مواجهة الموقف، وإنه لعمري عين الخذلان، ودليل عدم الصدق، وكذلك يوم رجع فارا من خيبر.

فقد كان من الواجب على الصديق أن يكون مثالا بارعا في الصدق والتي من مصاديقها الصدق في المواطن وقد كان يلتمس الراحة في العريش، متترسا

---

[٣٣٧] خصائص الإمام النسائي (٢٩).

بالرسول (ص)، ويتركه وحيدا في الميدان وينجو بالجلد عند استفحال الخطب.

ولا داعي لكي أقارن بين موقفه وموقف الإمام علي (ع) في هذا المجال لأن ذلك مما سارت به الركبان وتغنت به الشعراء.

ولو كان الإسلام متوقفا على شجاعة الصديق إذن لما بقيت له باقية وهو ما يضرب عرض الحائط بقولتهم، إن رسول الله (ص) قال: " لولا أبو بكر الصديق لذهب الإسلام " كما في " نور الأبصار " للشلنجي.

٢ - الشك في أمر الرسول (ص)

الإيمان بالرسول (ص) هو الاعتقاد بمرسوليته، والانقياد لأوامره على أساس إنها أحكام تكليفية.. والتصديق هو الاستجابة لأمر الرسول (ص) وعدم التردد في قبول قوله وعندنا في السيرة ما يدمي القلوب، ويقصم الظهور وهو ما يعرف بحادثة ذي الثديية، فقد جاء عن أنس بن مالك قال: كان في عهد رسول الله (ص) رجل يعجبنا تعبده واجتهاده وقد ذكرنا ذلك لرسول الله (ص) باسمه فلم يعرفه فوصفناه بصفته فلم يعرفه فبينا نحن نذكره إذ طلع الرجل قلنا هوذا قال:إنكم لتخبروني عن رجل إن في وجهه لسفعة من الشيطان فأقبل حتى وقفت عليهم ولم يسلم فقال له رسول الله (ص) أنشدك الله هل قلت حين وقفت على المجلس: ما في القوم أحد أفضل مني أو خير مني؟ قال: اللهم نعم، ثم دخل يصلي فقال رسول الله: من يقتل الرجل؟ فقال أبو بكر أنا، فدخل عليه فوجده يصلي فقال: سبحان الله أقتل رجلا يصلي، وقد نهى رسول الله عن قتل المصلين، فخرج، فقال رسول الله (ص) ما فعلت؟ قال: كرهت أن أقتله وهو يصلي وأنت قد نهيت عن قتل المصلين، قال: من يقتل الرجل؟ (حتى قال) لو قتل ما اختلف من أمتي رجلان كان أولهم وآخرهم [٣٣٨] ".

فهل بعد هذا يصح أن يشتهر الخليفة الأول بالصدق وينفرد به، وهو لم يصدق رسول الله (ص) في شأن رجل صار فيما بعد رأس الفتنة يوم النهروان كما جاء في صحيح مسلم وغيره.

---

[٣٣٨] تاريخ بن كثير - ٧ ص ٢٩٧ / الإصابة ١: ٤٩٤.

التقوى والورع

يظهر من خلال كلام المؤرخين وأهل السير المحرفة، أن أبا بكر كان أتقى صحابة الرسول (ص) وأورعهم. وأعبدهم لله وأخشاهم له، وبالغوا في ذلك أيما مبالغة واختلقوا من الروايات المتداعية والأسانيد، ما يقطع أوصال الفؤاد.

وطبيعي، أن أهم صفة للورع والتقوى هي تقديس ما قدسه الله، وتحريم ما حرمه والاحتياط الكبير وكثرة التهجد والعبادة.

فأما من جهة العبادة، فإن أبا بكر لم يرد عنه أنه كان آية في ذلك.

وعندما راح عمر بن الخطاب ليسأل عن سلوك أبي بكر في بيته، إمعانا منه في التأسي برفيقه الذي أتحفه بأعلى منصب، ليسوس فيه الناس بدرته.

فقالت له إحدى بناته: " ما رأينا له كثير صلاة بالليل ولا قيام[٣٣٩] ".

ولهذا حاولوا أن يجدوا له بديلا عن القيام والصلاة، وهو ما ذهب إليه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول عن بكر بن عبد الله المزني، أنه قال: لم يفضل أبو بكر (رض) الناس بكثرة صوم ولا صلاة إنما فضلهم بشئ كان في قلبه.

وإذا أردنا الإطناب في البحث عن هذا الشئ الذي يوجد في قلب أبي بكر ولم يوجد في القلوب الأخرى التي يفضلها لوجدنا ما يضحك الثكلى ذلك ما يرويه لنا المحب الطبري[٣٤٠] من أن عمر بن الخطاب أتى إلى زوجة أبي بكر بعد موته فسألها عن أعمال أبي بكر في بيته فقالت: إلا أنه كان في كل ليلة جمعة يتوضأ ويصلي ثم يجلس مستقبل القبلة رأسه على ركبته فإذا كان وقت السحر رفع رأسه وتنفس الصعداء فيشم في البيت روائح كبد مشوي فبكى عمر وقال: أتى لابن الخطاب بكبد مشوي.

وفي رواية العبيدي المالكي (السالفة الذكر) إنه بعد أن يقيم على تلك الحالة يرفع رأسه إلى السماء ويتنفس الصعداء ويقول: أخ فيطلع الدخان من فيه فيبكي عمر ويقول:

---

[٣٣٩] عمدة التحقيق للعبيدي المالكي.

[٣٤٠] الرياض النضرة ص ١٣٣.

كل شئ يقدر عليه عمر إلا الدخان.

فذلك باختصار هو الشئ الذي انفرد به أبو بكر عن غيره، هو سر ذلك الكبد المشوي والدخان الذي أعجز عمر بن الخطاب، وللعاقل أن يتأمل.

وحتى يتبين لنا ما إذا كان الورع والتقوى شيمة في أبي بكر، لنقف على حقيقة استخلصها فقهاء الأمة وأجمعوا على قاعدتها، وهي قضية الاحتياط في الدماء والفروج، وبقدر ما يقل الاحتياط في هاتين المسألتين، فإن ذلك مؤشرا على تدني الوازع الديني وقلة التقوى والورع، وحسبنا من ابن أبي قحافة ما فعله بالفجاءة، حيث حرقه بعد أن جمعت يداه إلى قفاه وألقى في النار مقموطا.

في حين يرفض على عمر تقديم خالد للمحاكمة الشرعية لقتله مالك بن نويرة والزنا بزوجته كما هو مشهور في كتب التاريخ الكبرى.

التفقه في الدين

ذكروا في شأن أبي بكر أقوالا للرسول (ص) ولغيره تدل على علمه الغزير وإلمامه بالأحكام ومن ذلك قول صاحب الصواعق المحرقة: " إن أبا بكر من أكابر المجتهدين بل هو أعلم الصحابة على الاطلاق [٣٤١] ".

ولا داعي للرد على هذا الكلام الذي لا يجد مصداقيته في سيرة أبي بكر إذ كيف يهضم ذلك مع أن أبا بكر اشتهر عنه جهله في أبسط أمور الشريعة والمتتبع لسيرة الصحابة يدرك أن إطلاق هذا الحكم ليس إلا مجازفة عمياء ولا حاجة لمقارنته بعلي (ع) في هذا المقام، ولكن يجوز القول، أين كان أمثال ابن عباس وابن مسعود وأمثالهم.

ولكي ندرك فقر هذا الادعاء، يكفينا أن نستعرض بعض الأمثلة والنماذج من علم أبي بكر، ونترك للقارئ حرية إصدار الحكم عليها:

سئل أبو بكر عن الكلالة؟ فقال: إني سأقول فيها برأيي فإن يك صوابا فمن الله وأن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، أراه ما خلا الولد

---

[٣٤١] الصواعق المحرقة ص ١٩.

والوالد، فلا استخلف عمر قال: إني لاستحيي الله أن أرد شيئا قاله أبو بكر [٣٤٢].

والمقصود هنا من الكلالة، ما جاء في قوله تعالى:

﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ [٣٤٣].

عن قبيصة بن ذؤيب قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق، تسأله عن ميراثها فقال لها أبو بكر: ما لك في كتاب الله شئ، وما علمت لك في سنة رسول الله (ص) شيئا فارجعي حتى أسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة، حضرت رسول الله (ص) أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال المغيرة فأنفذه لها أبو بكر [٣٤٤].

عن صفية بنت أبي عبيد: " إن رجلا سرق على عهد أبي بكر، مقطوعة يده ورجله، فأراد أبو بكر أن يقطع رجله ويدع يده يستطيب بها ويتطهر بها، وينتفع بها، فقال عمر: لا والذي نفسي بيده لتقطعن يده الأخرى فأمر به أبو بكر[٣٤٥].

أتا أبا بكر جدتان أم الأم وأم الأب فأعطى الميراث أم الأم دون أم الأب، فقال له عبد الرحمن بن سهيل أخو بني حارثة: يا خليفة رسول الله! لقد أعطيت التي لو أنها ماتت لم يرثها، فجعله أبو بكر بينهما - يعني السدس - [٣٤٦].

هذه النماذج تظهر إلى أي مستوى بلغ الدجل بأولئك المحرفين الذين أضلوا الأمة بأشخاص وهميين لا رصيد لهم من أي ادعاء اختلقه لهم أنصارهم.

وأود لو أختم كلامي عن أبي بكر، بما رواه عنه اتباعه، من أساطير تخالف منطق القرآن، وتناقض حجمه الحقيقي في واقعه.

* روى أنس بن مالك قال: " جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله ! رأيت في المنام كأن النخلة التي في داري وقعت وزوجي في السفر فقال:

---

[٣٤٢] الطبري في التفسير (ج ٨ ص ٣٠) . البيهقي في السنن (٢٢٣/٦)

[٣٤٣] سورة النساء (آية ١٧٦)

[٣٤٤] موطا مالك : (ص ٣٣٥) و سنن أبي داود (١٧/٢) بداية المجتهد (٣٤٤/٢)

[٣٤٥] سنن البيهقي (٢٧٣/٨ - ٢٧٤)

[٣٤٦] الموطا (ص ٣٣٥) و بداية المجتهد (٣٤٤/٢)

يجب عليك الصبر فلن تجتمعي به أبدا، فخرجت المرأة باكية فرأت أبا بكر فأخبرته بمنامها ولم تذكر له قول النبي (ص) فقال: اذهبي فإنك تجتمعين به في هذه الليلة. فدخلت إلى منزلها وهي متفكرة في قول النبي (ص) ".

وقول أبي بكر، فلما كان الليل وإذا بزوجها قد أتى فذهبت إلى النبي (ص) وأخبرته بزوجها، فنظر إليها طويلا فجاءه جبريل وقال: يا محمد: الذي قلته هو الحق، ولكن لما قال الصديق إنك تجتمعين به في هذه الليلة استحيا الله منه أن يجري على لسانه الكذب، لأنه صديق فأحياه كرامة له [347].

ليس الغلو فيما ذكر من أن الله استحيا من أبي بكر، وكأن الحياء - أعوذ بالله - من شأنه تعالى.. علا عن ذلك علوا كبيرا. وإنما يكمن ذلك في نزعة خفية تجعل الأفضلية لأبي بكر على رسول الله (ص)، فأبو بكر له شخصية أقوى من النبي (ص) مما جعله تعالى، يستحيي من أبي بكر ولا يستحي من النبي (ص).

ويفضل تعزيز موقف أبي بكر ولا يبالي بالنبي (ص) وكأن أبا بكر أصدق من رسول الله (ص) وفي ذلك غلو لمن ألقى السمع وهو بصير.

- ذكر النسفي إن رجلا مات بالمدينة فأراد النبي (ص) أن يصلي عليه فنزل جبريل وقال:

يا محمد لا تصل عليه، فامتنع فجاء أبو بكر فقال: يا نبي الله صل عليه فما علمت منه إلا خيرا، فنزل جبريل وقال: يا محمد صل عليه، فإن شهادة أبي بكر مقدمة على شهادتي [348].

ولا يلاحظ القارئ من هذا الحديث سوى أسلوبا آخر أكثر تعفنا من الأول، إذ أن جبرائيل وهو الذي وكله الله لتبليغ رسالات السماء، كيف أنه يأتي بما يخالف المضمون به، فيكون أقرب شهادة من جبرائيل، فأي عبث هذا وأي مروق!.

أخرج ابن عساكر في تاريخه قال: روي أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال لمن حضره: إذا أنا مت وفرغتم من جهازي فاحملوني حتى تقفوا بباب البيت الذي فيه

---

[347] نزهة المجالس ٢ ص ١٨٤.

[348] نزهة المجالس ٢ ص ١٨٤.

قبر النبي (ص) فقفوا بالباب وقولا: السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن. فإن أذن لكم بأن فتح الباب وكان الباب مغلقا بقفل فادخلوني وادفنوني، وإن لم يفتح الباب فاخرجوني إلى البقيع وادفنوني به، فلما وقفوا على الباب وقالوا ما ذكر سقط القفل وانفتح الباب وإذا بهاتف يهتف من القبر:

ادخلوا الحبيب إلى الحبيب فإن الحبيب إلى الحبيب مشتاق [٣٤٩].

باختصار: لم تكن هذه المغالاة سوى محاولة لإعادة صياغة أبي بكر بشكل يبرر من خلاله ما قام به بعد رسول الله (ص) من سطو على الإمامة وعبث بالشريعة.

فكيف يكون حبيبا للنبي (ص) من أغضب واغتصب مال فاطمة بضعته التي قال عنها: يغضبني ما أغضبها، إن هذه المفارقات لم تكن سوى من اختراع المؤرخ المأجور، وأنصار الخلافة المغتصبة.

---

[٣٤٩] الرازي في التفسير ٥ ص ٣٧٨ / نزهة المجالس ٢ ص ١٩٨.

الخليفة الثاني: عمر ابن خطاب

كثيرة هي الصفات الخشنة التي تأثر بها قطاع كبير من أبناء الإسلام من شخصية عمر بن الخطاب حتى وإن كانت تخالف سماحة الإسلام وإنسانية الرسول (ص) ذلك بأن هذا القطاع الكبير من أبناء الإسلام، يعتقد أن شخصية عمر بن الخطاب، هي الأنموذج الأمثل للإسلام.

ومن الجدير أن نذكر أسباب ذلك فكتب العامة جعلت من هذا الأخير أسطورة الإسلام الخالدة، وجعلت منه بحيث يترسخ في ذهن المسلمين وبحيث تشكل سيرته وجدانهم الديني وذلك هو أكبر جريمة تاريخية ارتكبت في حق الإسلام والمسلمين.

ولنعد إلى سؤالنا، هل عمر بن الخطاب كان يستحق كل ذلك التبجيل الزائد، وتلك الصورة الأسطورية الرهيبة لشخصه؟.

لنبدأ من حيث بدأنا عند الحديث عن صاحبه، عن إحدى أهم الهويات التي برع فيها عمر بن الخطاب، وهي هواية السكر، والإدمان على الخمرة والنبيذ، وقد سبق أن ذكرنا قولة لابن خلدون في شأن من كان يتعاطاها من العرب، كما أنه معلوم لدى جميع المفسرين، أن عمر بن الخطاب كان آخر من ارتدع عنها قائلا: انتهينا، انتهينا!.

ولكن لا بد من إعادة طرح السؤال: هل انتهى عمر بن الخطاب عن شرب الخمر؟.

تواجهنا في سيرة عمر بن الخطاب محطات أساسية تبين مدى تعلق الخليفة الثاني بالخمرة، وتمسكه بها سرا وتغطية ذلك بهالة من التخريجات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وفي ظني أن كثيرا من تلك الصور من الخشونة التي أحصاها التاريخ على عمر وعلى ذرته التي لا تبقى ولا تذر، كانت في لحظات السكر.

في إحدى الروايات، أراد عمر بن الخطاب أن يحلل الخمر لأهل الشام.

فقد روى محمود بن لبيد الأنصاري: إن عمر بن الخطاب حين قدم الشام شكا إليه أهل الشام وباء الأرض وثقلها، وقالوا: لا يصلحنا إلا هذا الشراب فقال عمر: اشربوا هذا العسل.

قالوا: لا يصلحنا العسل: فقال رجل من أهل الأرض: هل لك أن تجعل لك من هذا الشراب شيئا لا يسكر؟ قال: نعم، فاطبخوه حتى ذهب منه الثلثان وبقي الثلث فأتوا به عمر فأدخل فيه عمر إصبعه ثم رفع يده فتبعها يتمطط، فقال:

" هذا الطلاء مثل طلاء الإبل فأمرهم عمر أن يشربوه، فقال له عبادة بن الصامت:

أحللتها والله، فقال عمر: كلا والله، اللهم! إني لا أحل لهم شيئا حرمته عليهم، ولا أحرم عليهم شيئا أحللته لهم [٣٥٠] ".

وقد عرف عنه إنه كان يشرب النبيذ الشديد، وكان يقول: " إنا نشرب هذا الشراب الشديد لنقطع به لحوم الإبل في بطوننا إن تؤذينا فمن رابه من شرابه شئ فليمزجه بالماء [٣٥١] ".

والغريب أن العامة تروي عنه، أنه لم لكن يكثر من أكل اللحم وربما بالغت في ذلك، فجعلته لا يأكلها إلا نادرا من كثرة زهده. فكيف هو هنا يدعي أن تكريعه لخمرته حدث بداعي الخوف من أذى لحوم الإبل في بطنه.

ثم تعالى لترى هل هي مسكرة خمرته أم أنها ليست كذلك. يقول الشعبي:

---

[٣٥٠] الموطا (١٨٠/٣)

[٣٥١] سنن البيهقي ٨ ص ٢٩٩.

" شرب أعرابي من أداوة عمر فأغشي فحده عمر، ثم قال: وإنما: حده للسكر لا للشراب [352] ".

لقد استمر عمر في شربه للخمر حتى وفاته، ورخص لأهل الشام في ذلك حتى كان من الحق أن تعتبره عائشة خمرا حراما لا مجال للتخريج فيه.

لقد حج أبو مسلم الخولاني ودخل على عائشة زوج النبي (ص) فجعلت تسأله عن الشام وعن بردها فجعل يخبرها فقالت كيف تصبرون على بردها؟ فقال: يا أم المؤمنين أنهم يشربون شرابا لهم يقال له: الطلاء، فقالت: صدق الله وبلغ حبيبي سمعت حبيبي رسول الله (ص) يقول:

" إن أناسا من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها [353] ".

فكيف بالله عليك أن يكون فاروق الأمة ممن يعبث بأحكام الله ويصعد منبر رسول الله (ص) بعد أن يكرع ما شاء له شيطانه علما أن الرسول (ص) قال: " ما أسكر كثيره فقليله حرام [354] ".

ولا داعي للإطناب في ذلك إذ أن غايتنا من ذلك هو إيجاد مفتاح لشخصية عمر ولعبقريته التي نسجها عنه أدباءنا ومؤرخونا، وكيف لا يكون عبقريا وهو الذي رخص في شرب الخمر وجعلها دواءا له يساعده على الهضم ويسهل بطنه حين قال:

" إني رجل معجاز البطن أو مسعار البطن وأشرب هذا النبيذ الشديد فيسهل بطني [355] ".

ومن خلال هذا يمكننا القول إن ما عرف به عمر من التزام ديني قوي رفعه إلى مستوى الفاروق. لن يكون إلا حبكة مفتعلة، فالالتزام الديني لا يظهر من خلال سلوكه ولا يستقيم دين مع الادمان، لأن هذا الأخير مفتاح لكل الشرور.

---

[352] العقد الفريد ٣ ص ٤١٦

[353] الإصابة ٣ ص ٥٤٦.

[354] الترمذي في الصحيح ص ٣٤٢ / البيهقي في السنن ٨ ص ٣٩٦.

[355] ابن أبي شيبة، كنز العمال ٣ ص ١٠٩.

ولعل ما أحدثته ذرته من أذى وشرور هو من ذلك المفتاح.

إن الالتزام الديني يعني الطاعة والامتثال، وفي سيرة عمر ما يناقض كل ذلك من الأساس.

بدأ من رفضه صلح الحديبية، والامتناع عن قتل ذي الخويصرة رغم قرار الرسول (ص) بذلك، ومرورا بامتناعه السير مع أسامة، وأشياء أخرى.

وقد جعلوا للفاروق ميزة، انفرد بها، وكانت خاصية من خاصياته، وهي العدالة.

وياليتني أفهم إلى أي درجة من الأمية التاريخية وصل الحال بالمؤرخين والأدباء حتى يجعلوها من بديهيات التاريخ والسيرة.

ونظرا لمنهجنا في هذا الباب نتوخى عرض نماذج من. تلك المرويات التي تناقض صفة العدالة عن عمر بن الخطاب. ذلك بأن موضوع إزاحة الستار عن الوجه الحقيقي للمقدس، يعرف حساسية صعبة، لذلك سوف نتمسك بالنص، وبالروايات التي أوردها علماء العامة في شأنه.

* سبق أن ذكرنا حادثة جلد عمر للأعرابي الذي شرب من عسه فسكر، مع أنه لم يفعل شيئا حراما، ولو كان عمر عادلا كما يقولون، إذن لأقام الحد على نفسه أو ليترك الأعرابي لحال سبيله، أو لا أقل ليتأمل الموضوع قبل إصدار الأحكام.

فالأعرابي يشرب من عس عمر بن الخطاب - الخليفة - وتلك قرينة كاملة على رفع الحد عنه لأن المظنون من عس - أمير المؤمنين - ألا يكون فيه ما يسكر. فتأمل.

* مر علي بمجنونة قد زنت وهي ترجم فقال علي لعمر: يا أمير المؤمنين! أمرت برجم فلانة؟ قال: نعم، قال: أما تذكر قول رسول الله (ص) رفع القلم

عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق؟ قال: نعم: فأمر بها فخلى عنها [356] .

* روى مالك أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: أبى عمر بن الخطاب أن يورث أحدا من الأعاجم إلا أحدا ولد في العرب [357] .

روى ابن الجوزي، قال: إن عمرا كان قاعدا والدرة معه والناس حوله إذ أقبل الجارود فلما دنى منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟! قال ما لي ولك لقد سمعتها. قال: وسمعتها، فمه؟ قال خشيت أن تخالط القوم ويقال، هذا أمير. فأحببت أن أطأطئ منك [358] .

هذا كله، إضافة إلى ما فعله بحق فاطمة الزهراء، عند همه بحرق دارها، واغتصاب فدك منها، ومكان الأمثلة على خرافة العدل العمري.

أما شجاعة عمر التي سمع ذويها عبر الخافقين فحدث ولا حرج فهو كرفيقه صاحب العريش لم يكن له ذكر في المعارك الإسلامية ولم يسمع له في مواقف الرجولة ركزا.

ولعل أول وآخر معركة يقودها عمر، كانت ضد يهود خيبر، حيث يحدثنا الخبر، بأنه رجع يجبن أصحابه ويجبنونه لفراره ولقد امتنع عمر عن السير مع جيش أسامة لأسباب عدة. ومنها خوفه من الروم. وقد رجع دون أن يمتثل أمر الرسول (ص) في شأن ذي الخويصرة بعد أن أرهبه الرجل وأخافه.

بالإضافة إلى فراره يوم أحد. وسكوته يوم الخندق أمام دعوى مبارزة عمر بن عبد ود وخوفه من الذهاب إلى القادسية.

فعمر بن الخطاب بهذا الحجم الصغير. وبتلك المحدودية. جعلوا منه أسطورة التاريخ الإسلامي وأوردوا حوله من الأخبار ما جعل من عمر صنما خرافيا يعبد من دون الله.

---

[356] السنن الكبرى ٨ ص ٢٦٤.

[357] الموطأ ٢ ص ١٢.

[358] شرح النهج ٣ ص ١١٢.

لقد قالوا فيه الكثير وغالوا إلى حد الشطط ومن قولهم فيه:

عن بريدة: خرج رسول الله (ص) في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله! إني كنت نذرت إن ردك الله صالحا أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال رسول الله (ص): إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا، فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت استها ثم قعدت عليها، فقال رسول الله: إن الشيطان ليفرق منك يا عمر[٣٥٩]!

* ذكر الرازي في تفسيره: وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال: اسكنيها بإذن الله، فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك [٣٦٠].

---

[٣٥٩] أحمد في المسند ٥: ٣٥٣ / قال الترمي هذا حديث حسن صحيح غريب ٢ ص ٢٩٤.

[٣٦٠] تفسير الرازي: ص ٤٧٨.

عثمان بن عفان

عندما يكون الحديث عن عثمان والفتن التي أحدثها بسياسته العشائرية، نلمح عند المؤرخين أسلوبا يكاد يكون موحدا، في قلب الحقائق بعد ثبوتها وتضبيبها بعد جلاءها، وهكذا يكون عثمان رجلا زاهدا، وتقيا، تصوره ريشة المؤرخ الفنان على لوحة التحريف، كصحابي جليل استشهد وهو يقرأ القرآن وفي المقابل، تكون الأمة التي قتلته كلها فاسقة، وكلها مارقة، حتى لو كان كبار الصحابة شاركوا في قتله. وحتى لو أن الأمة أجمعت على انحرافه عن السنة التي ضيعها والقرآن الذي أحرقه، ولم يلتزم به، بل إن أعظمهم أوردوا صورا ومشاهدا تفصيلية عن حادثة القتل لعثمان، يظهرون فيها الطبيعة الهمجية لمقتل عثمان، وقساوة الثوار.

وليس يعنيني هنا الاكثار من ذكر ما قيل عن عثمان، وما يمكن أن يقال في مقابل ذلك غير أني أحب التركيز هنا على إحدى المسائل الأساسية التي تميز بها عثمان، حسب ما جاء في السيرة، فكما أنهم خلقوا أحاديث عن حياء عثمان، ليغطوا بها ابتذال أسلوبه مع كل من الإمام علي... وعمار.. (رض) وابن مسعود (رض) وأبي ذر الغفاري (رض).

وأبدعوا ذلك المشهد الذي رؤي فيه عثمان مستشهدا وبين يديه كتاب الله ليغطوا على جريمته في تتبع القراء، وحرق المصاحف، وعدم تنفيذ أحكامه.

فإنهم اختلقوا أكذوبة السخاء الذي صدر منه إبان العهد الأول للإسلام

وعطاياه الكثيرة، ودعمه للجماعة الإسلامية، ليغطوا عبثه بالأموال الإسلامية، ونهبه أموال الرعية وإقطاعها بني جلدته.

لقد كان صادقا من قال: إن عثمان أخذ أضاف ما أعطاه لرسول الله (ص) ذلك أن عثمان لم يكن يتورع في نهبها، وقد أصبحت تدعى في عصره بأموال الله، حتى لا يبقى للمسلمين أدنى مبرر للتدخل في ما يجري داخل العشيرة الأموية، وقد كان أبو ذر (رض) على رأس أولئك المتدخلين والمنتقدين للسياسة المالية لعثمان وبطانته الأموية، فناله ما ناله من الأذى من قبل عثمان بن عفان.

ولنبدأ رحلتنا من " فدك " التي اغتصبها عثمان من فاطمة الزهراء (ع) وهي مما أورثته عن الرسول (ص) ويا ليته اغتصبها وأودعها بيت المال حتى يقال إنه تأسى بصاحبيه، بل أقطعها مروان، يقول ابن عبد ربه: إنه أقطع فدك مروان وهي صدقة لرسول الله (ص) وافتتح إفريقيا وأخذ خمسه فوهبه لمروان [٣٦١].

فأين زهد الخليفة الثالث، وورعه ولو كان قارئا للقرآن كما جاء في أخبار المؤرخين لكان أجدر به أن يعرف مدى بغض النبي (ص) للشجرة الملعونة في القرآن. ولم يمنعه ورعه من اغتصاب حق فاطمة (ع) بضعة الرسول (ص) وخير نساء العالمين، ليقطعها واحدا من أبناء الطلقاء بن طريد الرسول (ص) وأحد أغصان تلك الشجرة الملعونة في القرآن، ذكر الطبري: " إنه لما وجه عثمان عبد الله بن سعد إلى إفريقيا كان الذي صالحهم عليه بطريق إفريقيا (جرجير) ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، فبعث ملك الروم رسولا وأمره أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار كما أخذ منهم عبد الله بن سعد وكان الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد ثلثمائة قنطار ذهب، فأمر بها عثمان لآل الحكم. قلت: أو لمروان؟ قال: لا أدري " [٣٦٢].

ثم يروى أنه أعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص أخا مروان، ثلاثمائة ألف درهم [٣٦٣].

---

[٣٦١] العقد الفريد ٢: ٢٦١.

[٣٦٢] تاريخ الطبري ٥: ٥٠.

[٣٦٣] البلاذري ٥: ٥٢.

وعن عبد الله بن سنان قال: خرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد وكان على بيت مال الكوفة وفي الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال: يا أهل الكوفة! فقدت من بيت ما لكم الليلة مائة ألف لم يأتني بها كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب لي بها برائة، قال فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان في ذلك فنزعه عن بيت المال [٣٦٤].

كما أعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال [٣٦٥].

هذا جزء من ذلك السيناريو الذي اتحفت به سياسة عثمان الرعية الإسلامية ناهيك عما اختزنه قصره، وحاشيته من المترلفين له من دون عشيرته.

فإذا عرفت ذلك – عزيزي القارئ – فلا يأخذك العجب من قول الإمام علي (ع) بعد ذلك في عثمان: قام نافجا حضينه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ".

ذلك باختصار شديد.. هو أهم مشروع قدمه عثمان لأمته، فأين الزهد، وأين الورع، وأين عشرات المحامد التي حيكت حوله.

---

[٣٦٤] العقد الفريد (٢٧٢/٢)

[٣٦٥] شرح النهج (٦٧/١)

غاية الكلام في الثلاثة

الغاية من هذه الاطلالة الموجزة والسريعة في أحوال الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان، هو أن نعيد تشكيل المنظار الذي من خلاله نظرت العامة إليهم وهو ما عنينا به قبلا، - الأصنام - وليس الصنم سوى تقديس الوهم، وأسطرت التاريخ، وتضبيب الغاية من نزول الرسالة، وأذكر يوم كنت من المعجبين بعمر بن الخطاب، حيث أبهرني ما اشتهر به من عدل واستقامة، حتى ظننت أنني أمام نموذج من الكمال لا يدانيه سوى الخيال، ووقعت تحت تأثيره لمدة طويلة، ويا لها من خشونة تلك التي كنت أحسب أنها سلوك الإسلام، ويا لها من علاقة قاسية كانت تقوم بيض وبين المحيط من حولي، لقد اكتشفت عمر بن الخطاب شيئا فشيئا.

وانتهيت كافرا به وما أن كفرت بعمر، حتى تغيرت سلوكي وأمست أكثر استجابة لهمسة التعاليم الإسلامية وتحررت مشاعري من عمر، وكانت كبرى الانتصارات التي جاهدت من أجل تحقيقها، هي أن أخرج من كهوف عمر بن الخطاب إلى روضة الإمام علي (ع) وإلى عالم البيت الهاشمي.. وهكذا. لن يكون لهذا الأمة من شأن حتى تعيد النظر في رؤيتها التاريخية، وتتحرر من عقدة الصنمية وتسافر في رحاب الرسالة الإسلامية بعقل جديد.. وذهنية جديدة.

خاتمة

هناك سؤال لا بد من طرحه في هذا السياق الحساس.. هل ثمة أزمة تاريخية أو أزمة مؤرخين، في ثقافتنا الإسلامية؟.

لا شك في أن المتجول عبر الفجاج المختلفة في هذا التاريخ.. سيدرك لا محالة، إن الأزمة، هي أزمة الاثنين معا! وذلك لسبب بسيط: هو أن المؤرخ الذي لا يزال حتى اليوم، ابن بيئته التاريخية وابن الخطاب التاريخي السائد. إما أنه يوجد ضمن واقع تاريخي متخلف، ويتحرك في خط التعميق والتكريس لذلك الواقع. أم أنه يوجد ضمن أجواء بيئة تاريخية هي في حد ذاتها امتداد لواقعنا التاريخي القديم، وفي كلتا الحالتين، يكون المؤرخ ضحية لواقعه أو خطابه التاريخي السائد.

وإذا ما أردنا توسيع دائرة النقاش حول هذا الموضوع، ليشمل بذلك كل أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لقلنا بأن المؤرخ اليوم يلعب دورا خطيرا، ويمارس مهمة صعبة، من حيث أن المؤرخ يملك إمكانية لتغيير الأفكار والرؤى في مجتمعه، تلك الأفكار والرؤى التي لا تزال تجد امتداداتها في كل واحة من واحات وجودنا الحضاري.

غير أن المشكلة ما تزال قائمة، فعزوف المؤرخ عن استيعاب مادته أو التآمر على طرح الحقيقة، والعمل على طمسها بأسلوب التحريف والتزوير، هو أقرب الطرق إليه لا بد إذن من أن ننعى جميعا هذا الواقع المتخشب في موقفه، ولندع

إلى نهضة حقيقية تبدأ من الأسس، إلى ثورة تراثية، ثمينة بإعادة تشكيل منظوماتنا الثقافية.

كمقدمة لإحداث نهضة سليمة في حاضرنا، ذلك أن علاقة شعوبنا الإسلامية بتراثها علاقة متينة، وحياتها كلها تتلون بذاك اللون التراثي، مهما ظهر من تنكر ومهما بدا من شرود، فخطوط العودة إلى التراث لما تنقطع بعد، ومن هنا تكمن ضرورة إعادة النظر في تراثنا الذي يشكل ذاكرتنا الجماعية.

لقد كان وما يزال أغلب المؤرخين والناقدين للتراث، يسبحون في بحر التكرار، ويبنون إبداعاتهم النقدية على عناصر وهمية، ومعطيات جاءت بها رغبة الخلفاء وطمع المؤرخين، وإذا ما انتبهنا إلى الماضي والتفتنا إلى مجريات أحداثه، سوف يتبين لنا الأمر على درجة كاملة من الوضوح، فالسياق التاريخي الذي ظهر فيه التدوين والتأريخ، هو نهاية العصر الأموي والعصر العباسي، وهو سياق، شهد نموا خطيرا ومنظما لتيارات مختلفة الاتجاه وشهد - أيضا - صراعا سياسيا حادا تفتق عن صراعات ايديولوجية.. ولما كانت السلطة طرفا في هذا الصراع.. كان من الطبيعي أن تستثمر إمكانياتها وموقعها كسلطة صاحبة القرار في سبيل تدمير الأطراف الأخرى، وتشكيل ايديولوجية الدولة. وكان الدين دائما هو الضحية الأساس، لأن تشكيل الايديولوجية هذه لا يستقيم إلا بإجراء سلسلة من التحريفات ليكتمل التناغم والانسجام بين الاثنين.

وعلى هذا الضوء.. يمكننا القول.. أن الأمة الإسلامية خضعت - على مستوى السلطة - إلى توجيه ديانات إسلامية، أو صور مختلفة ومتناقضة للإسلام .. وقد أدرك الإمام علي (ع) هذه الوضعية الخطيرة عندما قال: " ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوبا ".

كان هذا الزوج (السلطة / الدين) ترجمة ظاهرة لواقع مبطن للزوج (سلطة / لا دين) إذ القضاء على الدين يومها لا يمكن أن يتم بهوى سلطان، وإنما كان يقتضي إجراءات تكتيكية.. تبدأ بسلب محتواه ثم الانتهاء بإزاحته ليعود الأمر إلى حالة السلطة المنفردة التي تقوم على الهوى.

ولا أحد يجهل ما كان عليه واقع جل مؤرخينا. فإما منحازين ومنتمين، وإما

متزلفين.

أي إما أنهم يؤمنون بمدرسة من تلكم المدارس الكثيرة ومتبنين لاتجاه معين .. أو مرتزقة يكتسبون معاشهم عبر التزلف والمدح.. والتحريف والتزوير وكانت التقية هي السبيل الوحيد للكثير من المؤرخين المنصفين.. لذلك أدرجوا الكثير من الأحداث في أسفارهم تناقض بعضها بعضا، وهي مع ذلك قابلة للتأويل.

إن التأويل هو المنهج الوحيد للعثور على الحقيقة في هذه المنعرجات المختلفة، تأويل الأحداث والأشخاص، وتأويل المؤرخ نفسه، والنظر إليه ضمن سياقه الاجتماعي الخاص.

وتاريخنا إلى اليوم لا يزال بكرا، ولا تزال رياضه عذراء من أي محاولة جادة للتأويل لأن مؤرخينا الأعزاء. وأحفادهم اليوم.. لم يفعلوا سوى إعادة إنتاج ذلك الماضي وهم بذلك يعيدون إنتاج أزمته.

ويؤسفني جدا، أن تكون الحياة لا تزال تدب في بعض الأوصال الميتة، التي أخرقتها الأحداث.

وطوى التاريخ عنها كشحا، لتعيدنا إلى الظلام بواسطة الجهل المركب إنها حرب حقيقية بين ظلمة التراث ونوره بين رجعيته وتقدميته ولست متحاملا إذا ما أشرت إلى ما تقوم به اليوم، عصابة - نجد - من محاولات جادة لتشويه سمعة الإسلام.. بتبنيها نشاطات ترمي من خلالها إلى تشويه مدرسة أهل البيت (ع) في سبيل الانتصار لبداوتها التي لم يعد قادرا على استيعابها سوى مذهب الوهابية القاحل من روحية الإسلام ونضجه.. وقد صادفت - وأنا أختم هذا الكتاب - كتابا لمؤلف سعودي.. واقع في ثلاثة أجزاء.. وهو في الأصل رسالة لنيل دبلوم دكتوراه من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.. وهو تحت عنوان - أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد - وقع اختيار المؤلف على هذا المبحث كما يريد أن يقول.. وبعد الاستشارة والاستخارة عقدت العزم على أن أدرس العقائد الأساسية للمذهب الاثني عشري - (ص ٨ ج ١).

لقد صدمني - قبل كل شئ - ذلك المستوى الذي تطمح أن تظهر عليه جامعة

محمد بن سعود وهي تستقبل وتشرف على رسالة هي أقرب إلى وعظيات أهالي نجد، وخشونتهم.

وإنني لأول مرة، أرى أطروحة تسب، وتشتم، وتلعن، ولكن لا عليك، إذا كانت اللجنة المشرفة هي من تلك الطينة. إن الشهادة في عرف العقيدة النجدية تعطي لمن يسب أكثر ويفرق أكثر، يقول كاتبها كما قال غيره من قبل - إذ رسالته كلها اجترار وتجميع، لما سبق تناوله جهلا وتخريفا - وقد تشيع بسبب الجهود التي يبذلها شيوخ الاثني عشرية الكثير من شباب المسلمين (ص ٩ ج ١).

ولست أدري إلى أي معنى يريد صاحب الرسالة الوصول؟ أيعني بهذا، التنبيه إلى خطورة الموقف؟.

إن هؤلاء الذين تشيعوا لم يفعلوا سوى أن دخلوا في فعالية جديدة داخل تكوينهم الإسلامي، والتشيع أعرق بكثير من خطاب الوهابية المستحدث والذين تشيعوا أيضا، لم يكونوا مغفلين.. ومجتمعاتهم تزخر بتلك الفعاليات الأخرى .. إنهم أحرار وواعون ومنطقيون مع أنفسهم.. ولعلهم أذكى وأورع من غيرهم.

هؤلاء شكلوا برهانا ساطعا على بؤس مذاهبهم السابقة.. ولم يجدوا ملاذهم إلا في رحاب البيت النبوي وليس ذلك مرده إلى اشتغال ودؤوب علمائهم على الاستقطاب، فعصابة نجد كانت أسبق إلى هذا المسعى، وهي التي أهرقت آبارها النفطية على درب الصراع المذهبي.. وهي التي أقامت في كل قرية من العالم خيمة وعقالا.

يجب من الآن أن نعامل شعوبنا باحترام.. وأن لا نعاملها بأسلوب النخبة الدينية وذهنية الأقنوم المقدس. إن شعوبنا أصبحت - بفضل الله - على درجة من الوعي قادر أن يجعلها في مستوى استيعاب الفكرة ولا داعي لأن نكثر من شرح المعتقد.

إن ما تقوم به اللوثة الوهابية - مع تقديري واحترامي للطموح - لن يعدو سوى محاولة يائسة لترقيع ذلك الجلباب الخرق كشأن العطار الذي رام إصلاح ما أفسده الدهر.

لتعلم أن شعوبنا قد تجاوزتها نضجا وثقافة لذلك يفضل إعطاءها الخيار الكامل في اختيار سبلها بكل حرية وثقة في النفس.

ومن أجل ذلك لا بد أن نقدم فهرسة كاملة لما هو مفيد في الاطلاع على كتب مدرسة أهل البيت (ع).

وأن تكون أقرب إلى ببليوغرافيا شاملة في العقائد والتاريخ وفق ذلك الاتجاه، لنعرف أبناء الأمة بمصادر الاطلاع الحر، ولها الخيرة في موقفها.

ووعيا مني أيضا بأن تعريف أعداء هذه المدرسة بأمهات الكتب العقائدية والتاريخية المهمة قد يمنحهم معلومات ببليوغرافية هامة، تساعدهم على ضبط الكتاب ومنعه، ولكن هذا لا يخيف أبدا من منع الكتاب، لأن علاقة الإنسان بالكتاب، هي علاقة حيوية لا يقوى على منعها إلا متهافت!.

الفهرست

الباب الثالث

عبقريات في الميزان